

المكتبة
الأعلى
للثقافة

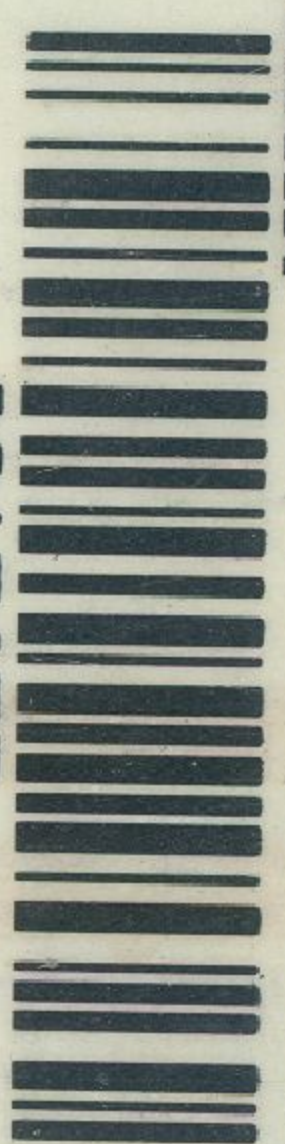
خلاصة التوحيد

مختارات من نشر أبو حيان التوحيدي

المكتبة
الأعلى
للثقافة



اعداد وتقديم
جمال الغيطاني



0013675

Bibliotheca Alexandrina



مكتبة أئمة البيان التوجيهي

١٢ - ١٩٩٥



خلاصة التوجيهي

مختارات من نشر أئمة البيان التوجيهي



General Organization of the National Library of the Republic of Egypt

Bibliotheca Alexandrina

اعداد وتقديم:
جمال الغيطاني



المجلس الأعلى للثقافة خلاصة التوحيدى

أكتوبر ١٩٩٥ - القاهرة

الخطوط للفنان :

حامد المويضى

الاخراج الفنى :

سيد عبد الخالق

مقدمة

أخي الذي لم أره !

المعايشة والصحبة ..

محوران أساسيان يحطمان علاقتي بالنصوص التراثية وأصحابها ، فما أن يبدأ ارتباطي بأديب أو مؤرخ أو متصوف أو رحالة حتى تتبلور عناصر الصلة ، وأبدأ المعايشة ، أحتفظ بالمتن على مقربة مني ، وفي الأغلب الأعم يكون فوق مكتبي الذي أجلس إليه جل وقتي ، فإذا فرغت من القراءة الأولى أعود إلى تلك الفصول أو الأجزاء أو المقاطع التي توقفت عندها ، ثم أفرغ إلى كتب أخرى ربما تشرح أو تقرب أو تفسر ذلك المتن الذي بدأ تعلقي به ، وقد أقدم على نسخ صفحات منه في كراسات خاصة أحتفظ بها لذلك الغرض ، وقد علمتني التجربة أن ما تنسخه اليد يكون الصق بالذهن ، وأثبت في خلالي الذاكرة مما أكتفى بقراءته فقط ، ومازلت أذكر ترددي على دار الكتب المصرية ، في مقرها المهيب ، القديم بميدان باب الخلق ، وقاعة القراءة الفسيحة ، نقية الضوء ، عندما كان يقدم الموظفون لمساعدتي وإرشادي حتى أن أحدهم كان يدعوني لمعاينة أحدث ما وصل إلى الدار من كتب لعلى أجد بعض ما أبحث عنه . حتى إذا أعجبنى كتاب ولم يكن بمكنتي في ذلك الوقت شراؤه لمحدودية ما عندي . أقدمت على نسخه حتى يمكنني إقتناؤه . ما نسخته باق في ذهني ، تمسك به ذاكرتي أكثر مما اكتفيت بقراءته .

وأثناء جهادي لاستيعاب المعاني ، أتخيل الكاتب ، أقرأ عنه ، مع الوقت أرسم له صورة في ذهني ، ثم تدب الحياة فيها ، فأشاهده كأنه أمامي ، أحاوره أحيانا وأصغى إليه عبر فواصل الزمن السحيقة .

هكذا ارتبطت بعدد من أعظم الشعراء والنائرين في تراثنا العربي ، حتى لأعدهم شيوخى وأعوانى .

الشيخ محمد أحمد بن إياس الحنفى المصرى صاحب بدائع الزهور في وقائع الدهور . تقى الدين المقرئى .

الجبرتي

لسان الدين بن الخطيب

الجاحظ

بديع الزمان الهمداني

الحريرى

المسعودى

الثعالبي

الأصبهاني

الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى

الشيخ عبدالكريم الجبلى

شعراء عديدون من العصر الجاهلي وحتى وقتنا هذا ، وشيخ أجل ، توقفت عنده وأمامه ، وصحبته في وقتي وأمكنتي التي أرحل إليها ، إنه أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى ، أحد أعظم النابثرين في تاريخ الأدب العربى ، وأحد أئمتي وشيوخى في اللغة والابداع .

علاقة ممتدة

لا يمكننى تحديد التاريخ الذى بدأت به الصلة ، فكثير من الكتب تستقر وقتا طويلا فوق أرفف خزانتي قبل أن أقرب منها وأشرع ، وأحيانا تمضى سنوات ، المهم .. أن يكون المتن على مقربة ، حتى إذا ما احتجت إليه لا أتكلف مشقة البحث أو السعى ، فما من أمر يكلفنى نصبا مثل بحثى عن كتاب لمدة طويلة ، وخلال أربعة عقود من الزمان خبرت سوق المخطوطات والمطبوعات العتيقة . وأصبح لى من رجالها خبراء وأعوان أستعين بهم على الوصول إلى ما يمكن أن يشق على وجوده . ومنذ سنوات طويلة تتجاوز الربع قرن ترقد مؤلفات أبو حيان على مرأى منى ، وإلى جوارها العديد من الدراسات التى أخرجتها المطابع عنه ، وبدأ تعرفى به بعد اطلاعى على الامتاع والمؤانسة لكننى لم أتعلق به كثيرا . فالكتاب أحد المراجع التى تضم المسامرات ، والمعارف ، وإن لفت نظرى روح مغامرة ، وأذكر أننى توقفت مطولا أمام أسماء عدة نسب إليها أبو حيان المشاركة في تأليف « رسائل اخوان الصفا » وكنت شديد التعلق بهذا المتن . دائم الإبحار في لججه الغامضة . إلى أن تعرفت في نهاية السبعينات بصاحب تونسى يقيم في فرنسا ، درس ويدرس بها ، هو الدكتور عبدالله شيخ موسى كنا في زيارة إلى مكتبة ابن سينا المتخصصة في الكتب العربية والتي يديرها صديق لبنانى نشط ، تقع في مواجهة جامعة باريس الخامسة (أحد فروع السوربون) وعلى مقربة من معهد العالم العربى . أشار عبدالله إلى كتاب « الاشارات الالهية » على الرف ، تحدث عن خصوصية السرد فيه واختلافه عن أساليب السرد القديمة ، بمجرد عودتى إلى القاهرة شرعت في قراءته . ومنذ توغلى عبر صفحاته الأولى يمكن القول اننى لم أفارقه حتى الآن ، وأن علاقتى بالتوحيدى بدأت وظلت تتوطد حتى الآن حتى أصبحت احدى مكوناتى الأساسية ، وقبل التوقف أمام مؤلفاته ، أفضل أن أذكر قبسا من سيرته .

ملاح شخصية

للأسف ، لم يحتفظ لنا التاريخ بملاح التوحيدى الشخصية ، لم يصفه المعاصرون ، ولم يذكر ملامحه الذين أرخوا له أو ترجموا . لكننى من خلال سطورره أكاد أستشف حضوره ، مهيبا ، قلعا ، ربما أميل إلى الطول ، مهابته خاصة ، مصدرها مضمون روحه الخصبة ، وثراء ثقافته ، وغزارة علمه ، ينازعها اضطرابه إلى معاشية ظروف تتناقض مع شخصه ، مع قيمته كما يراها في الواقع ، وكما هى عليه فعلا ، وهذا حال غالب على معظم عباقرة الثقافة العربية ، إدراكهم لقيمة مواهبهم ، واضطرابهم إلى طرق سبل شتى لضمان العيش ، ولنا في سيرة المتنبي الذروة في هذا التناقض . ولعل ذلك سار حتى الآن ، فالجوهر واحد .

من هو أبو حيان التوحيدى ؟

إننى أفضل الرجوع إلى أقدم المصادر للتعرف عليه ، فلنلجأ الى واحد من أشهر مصادر تراجم الأدباء ، « معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » لياقوت الحموى . ماذا نجد ؟

أصله

يقول ياقوت :

« على بن محمد بن العباس » أبو حيان التوحيدى ، شيرازى الأصل ، وقيل نيسابورى ، ووجدت بعض الفضلاء يقول له الواسطى ، صوفى السمى والهيئة ، وكان يتأله والناس يقولون فى دينه ، قدم بغداد فأقام بها مدة ، ومضى إلى الرى ، وصحب الصاحب أبا القاسم اسماعيل بن عباد ، وقبله أبا الفضل بن العميد فلم يحمدهما . وعمل فى مثاليهما كتابا ، وكان متفنا فى جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة ، وكان جاحظيا يسلك فى تصانيفه مسلكه ويشتهى أن ينتظم فى سلكه ، فهو شيخ فى الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء ، وعمدة لبنى ساسان ، سخيى اللسان ، قليل الرضى عند الإساءة إليه والاحسان ، الذم شأنه والثلب دكانه ، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية ، وكان مع ذلك محدودا ، محارفا يتشكى صرف زمانه ، ويبكى فى تصانيفه على حرمانه ، ولم أر أحدا من أهل العلم ذكره فى كتاب ولا دمجته فى ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجائب ، غير أن أباحيان ذكر نفسه فى كتاب « الصداقة والصدى » وهو كتاب حسن نفيس .

ثم يذكر ياقوت مؤلفات أبى حيان ومنها : كتاب رسالة فى الصدى والصداقة ، كتاب الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى .

كتاب الامتاع والمؤانسة جزآن .

كتاب الاشارات الالهية جزآن .

كتاب الزلفة .

كتاب المقابسات .

كتاب رياض العارفين .

كتاب تقريظ الجاحظ .

كتاب ذم الوزيرين .

كتاب الحج العقلى اذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى .

كتاب الرسالة فى صلوات الفقهاء فى المناظرة .

كتاب الرسالة البغدادية .

كتاب الرسالة فى أخبار الصوفية .

كتاب الرسالة فى الحنين إلى الأوطان .

كتاب البصائر وهو عشرة مجلدات ، كل مجلد له فاتحة وخاتمة ، كتاب المحاضرات والمناظرات .

للأسف ، أحرق أبو حيان كتبه كلها فى نهاية حياته ، ولم يصلنا منها الا عدد قليل ، نشر كله فيما عدا المجهول الذى لم يكتشف بعد . ما نشر هو :

● الإمتاع والمؤانسة .

● ما وصلنا من البصائر والذخائر .

● ما وصلنا من الاشارات الالهية .

● المقابسات .

● الهوامل والشوامل .

● مثالب الوزيرين .

● رسائل أبى حيان ومنها : رسالة السقيفة ، رسالة الحياة ، رسالة فى الكتابة ، ورسالة فى

تصنيف العلوم .

هذا ما وصل إلينا من مؤلفات التوحيدى . لعل القادم الآتى من الزمن يكشف لنا بعضا مما اختفى أو تبدد ، لكن .. يبقى السؤال ، من هو أبو حيان ؟
لماذا تحامل عليه القدامى وبعض المعاصرين ؟
لماذا أحرق كتبه ؟

أى حال بلغ به هذا الحد المفزع ؟
كل سؤال يحتاج الى وقفة مطولة .

للأسف ..

لا تشفع الموهبة لصاحبها فى تاريخ الثقافة العربية وحتى حاضرها المعاصر ، يستوى الأمر عند ظهورها أو بعد ثبوتها ، ومن خلال تأمل لسير المبدعين الكبار ، شعراء كانوا أو ناثرين أو فلاسفة أو علماء ، نلمح ذلك الصراع المستتر أحيانا ، الظاهر فى معظم الأحوال ، بين أصحاب المواهب ، وبين أصحاب الشأن ، بين الأديب وصاحب الثروة ، أو السلطة ، على الشاعر أن يسعى دائما كالمبتسول الى هذا الملك أو ذلك السلطان ، لينظم مدائحه ، وليستجدى الرضا والدرهم أو الدينار حتى يمكنه العيش ، حتى لا يموت جوعا ، يستوى فى ذلك أى شاعر صغير أو المتنبى أو البحترى أو أى قامة كبرى ، وحتى يحل الشعراء هذه المعضلة ، اضطرارهم الى المديح كى يعيشوا ، كى يلتمسوا الأمان ، لجأوا الى بدء قصائدهم بالنسيب ، بالغزل ، وهنا يعبر الشاعر عن ذاته بصدق ، حتى إذا وصل الى الحد الذى يتذكر أو يعى فيه أن المديح تأخر ، أو .. يجب أن يبدأ ، ينقلب على الفور وتبدأ الصنعة ويبدأ الافتعال ، وإذا أعدنا قراءة الشعر العربى سوف نجد هذه الظاهرة ، وبالنسبة لى ، عندما أعيد قراءة ما أحببته من شعر القدامى ، فانتى أكتفى بقراءة الأجزاء الأولى حيث التلقائية والصدق ، حتى إذا ما وصلت إلى بدايات المديح لا أكمل ، حتى لو كان مديح المتنبى لسيف الدولة الذى كان معجبا به حقا . فى أحيان نادرة كان الشاعر يصيغ مديحه متضمنا ذما خفيا ، كما فعل المتنبى عند مدحه كافورا .

مهما عظمت قامة الأديب ، فإنه مضطر الى خطب ود ذوى الجاه والسلطان ، ومن هنا وجد بعض أصحاب الرؤى الثاقبة ، والمواهب الاستثنائية أنفسهم فى تناقض فظيع ، فمن ناحية يشعر الواحد منهم بذاته ، ويدرك تفوقه ، وتفردده ، وما يمكن أن يقدمه ، لكنه فى نفس الوقت مضطر الى الوقوف بأبواب القصور ، وطرقها بأدب ومذلة ، فإذا ما سمح له فإنه يقعى أمام صاحب الجاه ، ينشد المديح ، أو ينظم ما يطلب به الود ، ويثير الرضى عنه ، وقد يتحول إلى ما يشبه بالهلوان ، عندما ينظر اليه صاحب الجاه ويشير الى شمعته أو تفاحة أو شيء ما ويطلب من الشاعر أن يقول شيئا على الفور ، يمتحن بذلك بديهته وقدرته ، ولا تخلو كتب التراث العربى من هذه الوقائع السخيفة التى تعكس رؤية معينة للثقافة ، للموهبة ، رؤية تعتبرها حلية أو لعبة لقضاء الوقت ، أو وسيلة لدعم المكانة ، وهذه النظرة سارية ، مستمرة إلى الآن . ولاشك أنها من أهم أسباب التدهور الثقافى .

من الأمور اللافتة للنظر انشغال القدامى وبعض المحدثين بتحقيق نسب الأديب ، والاحظ فى كتب التراجم على اختلاف القرون كلها ، ذلك التقدير الذى يشنه صاحب الكتاب للشاعر أو الفقيه أو العالم إذا كانت شجرة نسبه كريمة تنتهى إلى أصول نبيلة . وفى دراسة حديثة من قرننا نقرأ ذلك الجهد الذى بذله الأستاذ محمود محمد شاكر ليثبت لنا أن المتنبى لم يكن والده سقاء يملأ قرب الماء ويوزعها على البيوت ، وكأن مكانة المتنبى ستنقص لو أن والده كان سقاء فعلا .

هكذا اهتم القدماء والمحدثون أيضا بأبى حيان التوحيدى ، فراحوا يبحثون عن أصله ونسبه ، ولقد نظرت فى مؤلفات أبى حيان ذاتها لأتبين تفاصيل حياته ودخائلها ، وبالعكس المؤلفين العرب القدامى ، أدلى الرجل بالكثير من التفاصيل التى تنبئ بما كان عليه ، وتشير إلى أحواله ، يقول فى البصائر والذخائر :

« إن عمى كان قاعدا في بعض العشيات في قطيعة الربيع ، فاجتزت به متوجها إلى مجلس أبي الحسن بن القطان الفقيه الشافعي ، فقال له جلساؤه : ان ابن أخيك يا أبا العباس مجتهد في طلب العلم يغدو ويروح ، ولقد سمعنا منطقه فاستأنسنا به ، وقد كتب الحديث الكبير وسافر ، وتصوف ، فقال للجماعة : هذا كله كما تقولون ، ولكن له عيب واحد ، قالوا : وما هو ؟

قال : يأكل في كل يوم أربعة أرغفة ، فورد على الجماعة ما حيرها وأضحكها .
فقد أبو حيان والديه مبكرا ، وكفله هذا العم القاسي ، ولا نقرأ عن طفولته ، أو عن صباه ، بل أننا لانجد في كتبه التي وصلتنا أى إشارة إلى أسرة ، إلى زوجة ، إلى ابن أو ابنة ، وأكد أوقن أنه عاش وحيدا تماما ، منذ طفولته ، وصباه ، وحتى شيخوخته .
عاش غريبا ومات غريبا .

هذا أهم مدخل لفهم أبو حيان والاحاطة بمكنونه ، لقد بدأت غربته مبكرة باليتم ، واكتملت عبر مراحل حياته ، خاصة مع ادراكه لذاته ، وقيمه ، واضطراره في الوقت نفسه إلى السعى هنا وهناك ، إلى طرق أبواب العماد وابن العميد وغيرهما ، وعبر عن غربته بعمق لم أعرف له مثيلا في الأدب العربي ، أو الأجنبي ، ولكم اقرأ مثل السطور التالية بصوت مرتفع :

« فقد أمسيت غريب الجال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنسا بالوحشة ، قانعا بالوحدة ، معتادا للصمت ، ملازما للحرية . محتملا للأذى ، يائسا من جميع ما ترى .
أتوقف وأشعر بزفرائه الحرى تدركني بعد ألف عام ، فأشفق وأحنو وأكد أقول بنطقي المسموع .

« أه يا أخى الذى لم أره .. » .

لقد وردت سطوره السابقة في كتاب « الصداقة والصديق » وهو من أجمل كتبه وفي تقديرى أن هذا الكتاب ما هو إلا رسالة حنين جارفة إلى الصديق الذى لم يعرفه أبو حيان ، إنه تعبير عن احتياجه إلى الصداقة ، إلى الآخر الذى لم يعرفه قط ، ولم يعرف حنوه ، وفي مقدمة « الصداقة والصديق » نقرأ تعبيرا حادا ومؤثرا عن الغربة ، وكأنه ينبه بشكل غير مباشر إلى أهمية معنى الصداقة بوصفه حال وحدته وشدة وحدته .

بدأ أبو حيان يتيما ، عصاميا ، ولو أن ثقافتنا العربية تحترم الموهبة لصار جهد أبى حيان من أجل تحصيل العلم وتكوين نفسه مثالا يحتذى ، ودرسا يلقي لمن هم في بداية الطريق ، لكن جرى التعقيم عليه ، حتى إن القدماء والمحدثين لم يختلفوا على شخصيته كما اختلفوا حول نسبه وتاريخ ميلاده ، وتاريخ وفاته ، لم يصل من أخباره إلا القليل ، والقدر اليسير ، وكما يقول ياقوت في معجمه ، « لم يذكره أحد في كتاب ولا دمج في خطاب » .

غير أن أبا حيان لم يكن نصيبه التجاهل فقط ، ولكن التشويه أيضا ،

يكفى أن أقدم نموذجا لبعض من ترجم له ، في كتاب « سير أعلام النبلاء » تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، المتوفى سنة ٧٤٨ هجرية أى بعد أبى حيان بحوالى ثلاثة قرون ونصف ، يقول في مطلع الترجمة :

« الضال ، الملحد ، أبو حيان ، على بن محمد بن العباس ، البغدادي ، الصوفي ، صاحب التصانيف الأدبية والفلسفية ، ويقال : كان من أعيان الشافعية .. » .

أما ابن الجوزي فيقول : « زنادقة الإسلام ثلاثة ، ابن الراوندي ، والتوحيدي ، والمعري ، وشرهم التوحيدي لأنهما صرحا ولم يصرح » .

وهنا نتوقف أمام ظاهرة أخرى في ثقافتنا العربية ، وهي ظاهرة الاشاعات ممتدة المدى التي تعبر القرون والدهور المتعاقبة ، فيكفى أن يطلق أحد المؤثرين اشاعة ما ، وتتردد بعض الوقت إلى أن يقدم أحدهم على تدوينها ، فتبدو كحقيقة ، وربما كانت أشهر اشاعة من هذا النوع ما قيل عن ادعاء أبى الطيب للنبوة ، حتى صار اسمه « المتنبي » ، مع أنني قرأت ديوانه الذى رتبته بنفسه ، وحاولت

جاهدا أن أعثر ولو على تلميح خفى ، غير أنني لم أجد ، ولم أستشعر ، أما في حالة أبي حيان فالأمر أفدح ، ذلك أن من يطالع كتبه ، خاصة « الاشارات الالهية » سوف يجد مناجاة عميقة ، لا يمكن أن تصدر إلا عن روح عميقة الإيمان ، ويبدو ياقوت أكثر انصافا ، يقول عنه أنه كان : « صوفي السميت والهيئة ، وكان يتأله ، والناس على ثقة من دينه .. شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء » .

وفي طبقات الشافعية يقول السبكي مدافعا عن أبي حيان خاصة في مواجهة الذهبي ، يرجع السبكي الاتهام إلى :

« اتهام الذهبي للرجل بسبب كراهية - الذهبي - للصوفية » .
ثم يقول :

« ولم يثبت عندي إلى الآن من حال أبي حيان ما يوجب الوقعة فيه ، ووقفت على كثير من كلامه فلم أجد فيه ما يدل على أنه كان قوى النفس مزدريا بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن ينال منه هذا النيل » .

أليس ما قاله الذهبي هو منهج التكفير الذي مازال يمارسه البعض في عالمنا العربي ضد خصومهم في الرأي ، أو من يختلفون معهم أيا كانت درجة الخلاف ، لأن الذهبي يكره الصوفية ويبدأ ذكره لأبي حيان بهذه التهمة البشعة ، وتتحول إلى ما يشبه الحقيقة ، ويضطر آخرون إلى الرد ، فتصير عقيدة الرجل إلى أن تصبح موضع جدل ، بل ربما كان ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى غياب ذكره وعدم تداول كتبه التي بقيت بعد أن أحرق معظمها ، بل صار البعض يتشائم من قراءتها أو تداولها .. وهذا عجيب !

كثيرة تلك المؤلفات ، خاصة في القرن الحالي عن أبي حيان ، منذ أن كتب حسن السندويي مقدمته الوافية لكتاب المقابسات المطبوع في مصر سنة ١٩٢٩ ، توالى بعد ذلك الكتابات للدكتور زكي مبارك في « النثر الفني في القرن الرابع الهجري » . وأبو حيان للدكتور عبدالرزاق محيي الدين (العراق) ، وأبو حيان للدكتور ابراهيم كيلاني (سوريا) وأبو حيان للدكتور زكريا ابراهيم (مصر) وأبو حيان للدكتور محمد أحمد الحوقي (مصر) وأبو حيان للدكتور احسان عباس (لبنان) وأبو حيان للدكتور محمود ابراهيم (الأردن) وأبو حيان للأستاذ علي دب (تونس) .. هذه المؤلفات ساعدتني ، أضاءت وفسرت ، شرحت ويسرت ، غير أن المصدر الأول عن أبي حيان بالنسبة لي ، سواء كإنسان ، أو مفكر ، أو أديب ، أو صوفي ، تظل نصوصه ذاتها . تلك التي خطها بيده ، وأودعها دوائها ، في حالة فريدة ونادرة من حالات الأدب العربي .

إعتداد شديد بالذات ، ربما كان أحد الأسباب القوية التي قوت ذلك الشعور بالغربة . وفاء عميق لأساتذته ، أبي سليمان المنطقي السجستاني ، يحيى بن عدي ، (الفلسفة) ، والرماني ، وأبو سعيد السيرافي (في اللغة والأدب) القاضي المروذي أول أساتذته خاصة في الفقه . وأيضا المعافي بن زكريا النهرواني ، وكان من علماء عصره ، وبرع في عدة علوم .

يحدثنا أبو حيان عن شيوخه بإجلال وحب وتعظيم ، سعى هو إلى كل منهم لتحصيل العلم ، درس النحو ، واللغة ، والمنطق ، وعلم الكلام ، والفلسفة ، والحديث النبوي الشريف ، وممن سبقه أعجب بالجاحظ وأحبه وأخلص له الود ، وأحيانا تكون العلاقة بين الأديب وأديب عاش في عصر آخر ، وزمن مغاير ، أقوى من تلك العلاقة التي يمكن أن تقوم بينه وبين معاصريه ، وقد خبرت ذلك وعرفته ، وأقوى دليل علاقتي بأبي حيان الذي اعتبره من أجل شيوخى وأقرب صحبى ، هو الذي لم ينعم بالصحبة في حياته !

لاشك أن خطوات تكوين أبي حيان لنفسه وثقافته تشكل سيرة رائعة ، ألمح إلى بعض تفاصيلها في كتاباته ، ولم يكن ذلك سهلا في عصر اضطراب وتمزق ، كان القرن الرابع الهجري مليئا

بالتناقضات ، فرغم ازدهار الثقافة العربية بتفتحها على الثقافات الأخرى ، خاصة اليونانية والفارسية ، وصيغها آثار هذه الثقافات المنقولة بالروح العربية ، رغم ازدهار الأدب ، والنثر بصفة خاصة ، وظهور فن المقامة ، وتطور فن الرسائل ، إلا أن العصر كان مضطربا سياسيا واجتماعيا ، إذ شمل الضعف دولة الخلافة العباسية ، وتناثرت أطرافها ، ودب الفساد إليها ، واتسعت الهوة بين أثرياء لا يعرفون كيف يتفقون مالدتهم ، وفقراء أغلبية يأكل بعضهم بعضا في أيام المجاعات ، حتى إن بعض المصادر التاريخية تروى مشاهد مرعبة عن أمهات اضطرن إلى أكل أبنائهن (نشوار المحاضرة للتنوخي - الجزء الأول - صفحة ٢٥١) يصف لنا أبو حيان أحوال الناس في عصره ، خاصة سنة ٢٧٠ هجرية ، يقول في كتاب الإمتاع والمؤانسة :

« كنت بنيسابور سنة سبعين وثلثمائة ، وقد اشتعلت الفتنة بخراسان ، وغلا السعر ، وأخيف السبيل وكثر الأرجاف وساءت الظنون ، وضجت العامة ، والتبس الرأي ، وانقطع الأمل ، ونبح كل كلب كلب من كل زاوية وزأر كل أسد من كل أجمة ، وضج كل ثعلب من كل قلعة » .
في تلك الظروف الصعبة راح أبو حيان يطوف شرقا وغربا ، من بغداد إلى سر من رأى (سامراء) إلى سمرقند ، إلى الري ، إلى جرجان ، إلى جند سابور ، إلى مكة التي حج إليها سيرا على الأقدام بصحبة جماعة من الصوفية ، إلى شيراز التي كانت نهاية المطاف ، حيث بلغ فيها رأس الجدار ، أو نهاية الحائط ، وانحسر ظله ، وثوى في أرضها .
أحيانا ، أتساءل .

متى كان يكتب ؟ وأين ؟ ، وكيف تمكن من الاطلاع ؟
أعرف أنه عمل وراقا أي ناسخا للكتب ، ورغم صعوبة المهنة ، إلا أنها مكنته من الاطلاع الواسع العميق ، وقد خبرت هذا في مطلع حياتي عندما كنت أضطر إلى نقل بعض الكتب من دار الكتب بباب الخلق ، تلك التي لم أستطع اقتناءها ، ما نسخته منها بقي محفورا في ذهني حتى الآن ، أكثر من الكتب التي اكتفيت بالاطلاع عليها ، ما نسخته كتب معدودة ، غير أن أبا حيان عمل بالوراقة معظم سنوات عمره ، وله رسالة نادرة في فن الكتابة (الخط) . لم يحدثنا عن مكتبته الخاصة ، أو كتبه التي كان يعتز بها ويقيها بقربه ، وإن كنت أشك في وجود مثل هذه المكتبة مع تلك الحياة المضطربة ، البائسة ، المعذبة ، ولكم يبدو التناقض شاسعا بين رسوخ مؤلفات أبي حيان ، وظروف حياته القلقة والتي لم يستقر خلالها في مكان وثير ، أو حتى تتوافر فيه الحدود الدنيا للراحة ، بل إن ما وصلنا من وصف لثيابه وأحواله على فترات مختلفة يؤكد أنه كان مضطرب الحال ، يعاني الفاقة والغربة ، رغم ذلك فقد وصلنا منه هذا التراث الثرى ، الغنى .

ذكرنا نقلا عن ياقوت الكتب التي وضعها ولم يصلنا معظمها ، ونتوقف عند الكتب التي وصلتنا وطبعت ، أولها البصائر والذخائر ، والمرجح أنه أول ما وضع أبو حيان ، ويعد أضخم كتبه من ناحية الحجم ، ويعتبر بمثابة دائرة معارف تعكس معرفة عصره ، وثقافته هو المتنوعة ، وقد اخترت منه المقدمة ، أما متن الكتاب فيتكون من أمثال ، وحكم ، ونوادر ، ومقتطفات تورث بدون منهج ظاهر محدد ، ويتناول مسائل لغوية ، وأدبية ، وتراجم وأخبار ، وبه نصوص من كتب ضاعت أصولها ، ويقول التوحيدى واصفا كتابه :

« وإنما أتباع قليلا ، وأتقارب قليلا ، وأذكر فصلا نحوا ، وفصلا كتابيا ، وفصلا كلاميا وفصلا فقها وفصلا فلسفيا وفصلا لغويا وفصلا شعريا ، وأشبع ذلك كله بما احتمل من الاعتراض والبحث والتفسير » .

الكتاب التالى هو « أخلاق الوزيرين » أو « مثالب الوزيرين » ، ويرجح الدكتور عبدالواحد الشيخ في بحثه القيم عن أبي حيان وجهوده الأدبية والفنية أنه ثانى كتبه ، لأن البصائر استغرق تأليفه حوالى خمس عشرة سنة ، انتهى منه حوالى سنة خمس وستين وثلثمائة . بعد أن فرغ رحل إلى

الرى ، ملتصبا الرعاية عند صاحب ابن عباد ، لكن خاب سعيه ، وعاد من الرى خاوى الوفاض ، ولم يكن حظه عند ابن العميد بأفضل مما لقيه عند ابن عباد ، وكان كل منهما وزيرا له نفوذ وصاحب بلاط ، وكل منهما يحيط نفسه بالأدباء ، غير أن كلا منهما ، شأن أصحاب السلطان الذين يتظاهرون برعاية الأدباء ، لا يحبون الأدباء المعتدين بأنفسهم ، أصحاب المواهب الكبيرة ، وكلا الوزيرين كان له موقف مشابه من المتنبي ، صحيح أن أبا حيان لجأ إليهما ، ولكنه في أعماقه كان يدرك قيمتهما الحقيقية ، ولم يكن مداحا كالشعراء ، إنما يبدو أنه لم يكن يستطيع أن يخفى ما يدور في نفسه ، وأصحاب السلطان يدركون ما يمكن أن يدور في نفوس الساعين اليهم . بل إنهم قد يشترطون مواصفات معينة للقرب منهم قد تطل الملامح الجسدية . انصرف أبو حيان عنهما خائبا ، خاوى الوفاض ، وإذا لم يقدر الأديب على مواجهة السلطان بالفعل ، فانه يلجأ الى الكلمة ، إلى أدوات الوحيدة ، هكذا أقدم أبو حيان على تأليف كتاب « أخلاق الوزيرين » والذي تضمن أعنف هجاء يمكن أن نقرأه في الأدب العربى ، وإن كان لم يستسلم لغضبه تماما ، فقد ذكر لكل منهما ما يمكن اعتباره ميزة ، غير أن قيمة الكتاب تكمن في إبرازها لتلك العلاقة المعقدة بين الأديب والسلطة ، بين الكاتب والحاكم ، والتي لم يتغير جوهرها في الواقع العربى منذ عصر أبى حيان وحتى الآن .

راح أبو حيان يحاول التقاط أسباب رزقه من أعمال متواضعة ، مرة بمهنته الأصلية ، نسخ الكتب ، ومرة بالعمل في البيمارستان (المستشفى) كملاحظ للمرضى ، وربما بلغت غربة التوحيدى مداها في تلك الفترة الصعبة التي لم يكن يجد خلالها قوت يومه ، حتى اضطر إلى أكل أعشاب الصحراء ، هذه الغربة وتلك الوحدة ، جعلته يتوق إلى الصداقة . وباستثناء المقدمة والخاتمة التي يعبر فيهما عن ذاته ، فقد جمع في المتن أمثلة وحكايات عديدة حول معانى الصداقة ، وما يتصل بالوفاق والخلاف والهجر والصلة والعتب والرضا والاخلاص والرتاء ، والنفاق والحيلة والخداع والالتواء والاستكانة والاحتجاج يقول أبو حيان :

« وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصة لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو اليق أو قريب أو بعيد أو ولى أو خليط ، كما لا يخلو أيضا من عدو كاشح أو مداح أو مكاشف أو حاسد أو شامت أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو مذل أو مضل أو مغل .. فالإنسان مدنى بطبعه » .

إننى أعتبر كتاب « الصداقة والصديق » من النصوص الفريدة في النثر العربى ، ويجمع بين الكتابة الذاتية بما تضمنه من حديث أبى حيان عن نفسه وهذا ما توقفت عنده ، وبين المختارات الثرية التي تدور كلها حول معنى الصداقة وجوهرها ، الصداقة التي حرم منها فكان اغترابه العظيم .

الوزير ابن سعدان يسأل ، وأبو حيان يجيب على امتداد أربعين ليلة ، في مجملها ليالى الإمتاع والمؤانسة .

والوزير ابن سعدان ممن اتصل بهم أبو حيان . وكما يرجح الأستاذ أحمد أمين ، فهو أبو عبدالله الحسين بن أحمد سعدان ، وزير صمصام الدولة البويهى من ٢٧٣ هجرية الى ٢٧٥ هجرية ، وهو الذى وضع من أجله الكتاب ، وكان ابن سعدان شغوبا بالمعرفة من فنون شتى ، كالفلسفة والأخلاق والأدب واللغة والدين ، وهو كما يبدو من خلال الكتاب محاور ايجابى ، فأحيانا ينقد إجابات أبى حيان ويحاوره فيها ، وربما أظهره أبو حيان كذلك ترضية له ، لكننا في كل الأحوال نجد أنفسنا في موقف فريد في كتب التراث العربى القديمة ، فالسائل هو الوزير صاحب السلطان ، والمجيب العالم هو الأديب الفقير ، هو أبو حيان نفسه .

خلال ليالى المسامرة جرت الأسئلة والإجابة ، ويبدو أن أبا حيان لم يخطط لتدوينها في كتاب ، غير أن أبا الوفاء المهندس (محمود بن محمد بن يحيى بن اسماعيل بن العباس البوزنجانى المولود

سنة ٣٢٨ والمتوفى سنة ٢٨٨ هجرية) طلب من أبى حيان أن يدون له ما سامر به الوزير ، ذلك إنه هو الذى قدم أبا حيان إلى الوزير ، ولما بلغه ما يجرى من مسامرة عاتب أبا حيان لأنه اختص الوزير بسمره ، وذكره بفضله في تقديمه إليه ، وطلب منه أن يكتب ماجرى ، وبدأ أبو حيان يكتب ليالى (الإمتاع والمؤانسة) ويبدو أنه كان يرسلها أولا بأول ، إلى أبى الوفاء المهندس ، إذ يذكر في أول الجزء الثالث :

« أوصلت إليك الجزئين الأول والثانى على غلامك فائق وهذا الجزء هو الثالث .. »
ليس للكتاب موضوع واحد ، وإنما أقانين مختلفة من المعرفة ، كما تضمن مناظرات حول أيهما أفضل ، العرب أم الفرس ؟ ، وانحاز أبو حيان إلى العرب ، ومناظرة بين أبى سعيد السيرافى ومتى بن يونس في المنطق اليونانى والبيان والنحو العربى ، كما كشف عن أسماء بعض جماعة اخوان الصفا ، التى قد يكون أبو حيان واحدا منها ، وقد اخترت من هذا الكتاب ما يعبر عن ذات أبى حيان ، خاصة المقدمة ، فعندما يكتب أبو حيان عن ذاته ، عندما يعبر عن آرائه ، نجد أنفسنا أمام نمط نادر من الكتابة في النثر العربى وفي ذلك تكمن فرادته .

السؤال أول الطريق إلى المعرفة ، أول خطوة إلى أفق العلم بالشئ المسئول عنه خاصة ، وبالإحاطة عامة . يرتبط السؤال بالتوق ، بالشوق ، بالرغبة في أن يلم الإنسان بما لا يعرفه ، والسؤال لا يصدر إلا عن الإنسان ، من بين كافة المخلوقات التى تسعى ، لا يتوجه بالسؤال إلا الإنسان ، والسائل يكون في الأغلب الأعم جاهلا بما يستفسر عنه ، غير أن المجيب لا يكون بالضرورة عالما ، بل أحيانا ما يتضمن السؤال اشراقات معرفية أكثر وأعمق مما تتضمنه الإجابة ، وهنا يصبح السؤال مفجرا للمعرفة ، محرضا على التماسها ، والوصول إليها ، يصبح السؤال في حد ذاته معرفة ، وأحيانا يتضمن الجواب أيضا إما بصيغة إشارة خفية إلى الإجابة ، أو بنطق السؤال فيما يتعلق بالمحظور ، المسكوت عنه ، ما يصعب الاقتراب منه .

تلك قيمة السؤال المعرفية ، ومن هنا تأتي أيضا قيمة الكتاب الفريد ، النادر ، الذى لا أعرف له مثيلا في التراث العربى ، كتاب « الهوامل والشوامل » والمتضمن أسئلة التوحيدى ، وأجوبة الفيلسوف المتكلم مسكويه .

يقول المحققان الجليلان ، أحمد أمين وأحمد صقر ، في مقدمة الطبعة الوحيدة ، للجزء الأول من « الهوامل والشوامل » ، والتى صارت أنفوس من المخطوطات لندرتها ، وفي معرض تفسيرهما لهذا العنوان ، أن الهوامل مقصود بها الإبل الهائمة ، الشاردة ، أما الشوامل فهى الحيوانات التى تضبط الإبل الهوامل فتجمعها ، غير أن الدكتور أحمد محمد الحوفى في كتابه عن التوحيدى يختلف في تأويل العنوان ، فالهوامل في رأيه هى الإبل المهملّة المسيبة التى لا راعى لها ، وربما كانت جمعا لكلمة هاملة أى من « هملت » السماء ، أى دام مطرها في سكون ، والمراد إذن الأسئلة المنطلقة المتوالية الموجهة إلى مسكويه ، كأنها المطر النازل المدرار ، أما الشوامل فهى جمع لكلمة شامل أو شاملة ، من شملهم الأمر إذا عمهم ، والمراد إذن الأجوبة الشاملة المحيطة المستوعبة لما في نفس السائل ، وربما كانت كلمة (شومل) وهى اسم من أسماء ريح الشمال التى تهب على بلاد العرب من ناحية الشام والمراد إذن الأجوبة المنعشة لشوق أبى حيان إلى العلم والمعرفة (فهى جمع شومل) كأنها نسيمات الشمال الهابة على بلاد العرب من ناحية الشام .

أيا كانت التفسيرات لعنوان الكتاب الذى أرجح أنه من وضع التوحيدى ، فإنه دال بعمق ونفاذ على مضمون الكتاب الذى تتدفق فيه الأسئلة كالإبل الهوامل في بيداء المعرفة ، غير أن الحيوانات الشوامل لا تنجح أبدا في الإمساك بها وحصارها أو حتى تهدئتها .

عندما قرأت الهوامل والشوامل للمرة الأولى ، قرأت الأسئلة والأجوبة معا ، وعندما قرأته للمرة

الثانية توقفت أمام الأسئلة فقط ، وعدت إليها مرات ، والآن بعد حوالي ربع قرن من معاشة لهذا الكتاب الرائع لا أجد في ذهني ما علق منه إلا الأسئلة ، فلكم تبدو أجوبة « مسكويه » متواضعة ، محدودة في مواجهة شمولية الاستفهام واتساع أفقه ، واستيعابه للتجربة الإنسانية .

لم يترك التوحيدى دربا إلا وسلكه عبر أسئلته . دروب فلسفية ، علمية ، اقتصادية ، خلقية ، اجتماعية ، نفسية ، تعكس بصيرة نافذة ، وروحا قلقة يعذبها التوق إلى المعرفة ، وهذا التوق كان التوحيدى يدرك جيدا أنه لن يجد مستقرة عند مسكويه أو غيره ، إنما أراد بتوجيه الأسئلة أن يعلنها ، أن يجاهر بها ، أن يطرحها على العالمين ، وما توجيهها إلى مسكويه إلا وسيلة ، إلا حجة ، بل أنه يورد في بعض الأسئلة تفاصيل دقيقة يبدو من خلالها أكثر علما من مسكويه ، لقد أدرك التوحيدى تلك الأسئلة الأبدية التي ستظل بلا إجابة فطرحها ، لكن مجرد النطق بها يعنى أنه ما من أفق يحول بين الإنسان والتوق إلى المعرفة ، وتلك عظمة الإنسان ونبل جوهره ، أنه يسعى إلى ادراك ما لا يمكن ادراكه ، لكن الوعي بذلك لا يحول بينه وبين شرف الطرح ، شرف التساؤل رغم ادراكه أحيانا باستحالة الإجابة .

لماذا لا يعود الانسان شابا فطفلا فجئنا ؟

ما ملتمس النفس في هذا العالم ؟

ما سبب استشعار الخوف بلا مخيف ؟

ما الزمان ؟

ما المكان ؟ وهل الوقت والزمان واحد ؟

لماذا يحن الإنسان إلى مكان بعينه ؟ أو إلى زمان بعينه ؟

ما السبب ، ما العلة ؟

ما ملتمس النفس في هذا العالم ؟

توقفت مطولا أمام الأسئلة التي تتعلق بالإنسان ، وقضاياها الخالدة ، الباقية ، وتجاوزت تلك الأسئلة التي طرحها التوحيدى منذ ألف عام والتي لم تكن معارف عصره قد توصلت إلى الإجابة عنها بعد ، مثل تساؤله : ما البرق ؟ ما الرعد ؟ ، لم كان صوت الرعد إلى أذانتنا أبداً وأبعد من رؤية البرق إلى أبصارنا ؟

لقد أجاب العلم الحديث على مثل هذه الأسئلة وإن كانت ملاحظة التوحيدى الدقيقة الثاقبة تظل موضع تقديرنا ، ذلك أنه أدرك بثاقب بصره أن الضوء أسرع من الصوت في وقت لم يكن العلم قد اكتشف فيه ذلك ، هكذا يكون السؤال حافزا للمعرفة ، وكاشفا عن الحقيقة حتى مع العجز عن الوصول إلى الأسباب . لقد أعاد التوحيدى إلى السؤال قيمته ، السؤال المقلق ، المحرض ، الدافع ، أعاد إليه قيمته ، وعلمنا جوهر فرادته ، ويبدو ذلك رائعا في ثقافة طابعها المحافظ أعم ، وميلها إلى القائم أقوى ، وأخذها بالمفروغ منه ، بالنصوص المصاغة ، المنقولة أكثر ، من هنا قيمة التوحيدى في تراثنا العربى ، القدرة على طرح السؤال ، وصياغته في أكثر من صورة ، مرة مباشرة ، ومرة بمرآوة ، وبعد ألف عام من رحيله ، نحن في أمس الحاجة إلى تعلم واحياء هذه القيمة ، قيمة السؤال ، مرة ببراءة الأطفال ، ومرة بدهاء المحنكين ، المجربين ، الذين يعون الأخطار التي يمكن تلحق بهم ، ولكن اخلاصهم للإنسانية ، لا يمنعهم أو يحول بينهم وبين النطق بالسؤال !

إذا كان التوحيدى قد طرح الأسئلة في « الهوامل والشوامل » فإنه في المقابسات يحاول ان يدمج السؤال بالجواب ، المؤكد أن « المقابسات » يلى « الهوامل والشوامل » إذ ترد إليه اشارة في المقابسات ، إذ يقول :

(وهذه مسألة في الهوامل ولها جواب آخر في الشوامل ..) ويبدو أنه كتبه في مرحلة متقدمة من عمره ، نلمح في بعض أجزائه شجنا يكاد يقارب ما يحويه « الاشارات الالهية » من شجن ، إذ يقول :

« الدنيا في عيني مسودة ، وأبواب الخير دوني منسدة ، بثقل المؤونة ، وقلة المعونة ، وفقد المؤنس بعد المؤنس ، وعثار القدم بعد القدم ، وانتشار الحال بعد الحال ، هذا مع ضعف الركن ، واشتعال الشيب ، وخمود النار ، وأفول شمس الحياة وسقوط نجم العمر ، وقرب الرجيل وإلى الله التوجه » .
أما الباعث على تأليفه فهو حبه للفلسفة والفلاسفة ، يقول :

« إنما يبعثني على رواية كل ما سمعته من هؤلاء الجلة الأفاضل ، عشقى لهم وحمدي لله تعالى على ما أتاح منهم ، فلا تقرأن هذا الفصل ، ثم تقول : وما في هذا من الفائدة ؟ فإن درجات الحكمة مختلفة ، ولكل كلمة قائل ، ولكل قول واع ، ولكل عمل عامل ، ولكل عامل راع ، وهذا الشيخ ممن قد أعلى الله كعبه في علم الأوائل ، ووفر حظه من الحكمة الميثوقة في هذا العالم ، وفيما قال حث على حسن معرفة فضل الحكمة ، وفي معرفة فضل الانبعاث على اكتسابه والاستكثار منه » .

ورغم ما يقوله التوحيدى نفسه عن مخالطته كبار علماء عصره ، ونقله عن بعضهم ، إلا أن « المقابسات » يعد امتدادا للهوامل ، فالمسائل التى يدور حولها سبق أن عبر عنها بالسؤال ، خاصة ما يتعلق بالإنسان . وعلاقته بالزمان والمكان ، وهذا ما توقفت أمامه .

نصل إلى الذروة ، إلى أحد قمم النثر العربى ، إلى الاشارات الالهية ، والذى تخطى فيه التوحيدى أساليب التعبير المستقرة ، المؤطرة ، ليخلق اسلوبه الخاص ، المتدفق ، الذى يستوعب كافة تقاليد النثر العربى ، لكنه يتجاوزها أيضا ، هذا كتاب لا أقرأ صفحاته إلا بصوت مرتفع ، وإذا شرعت فلا أقدر إلا على قراءة عدد محدود من الصفحات لا يتجاوز العشرين فى الجلسة الواحدة ، ذلك أن تدفقه ، وما يفيض به من ثراء ، يجعل استيعابه على مهل ضروريا ، خاصة أنه جمع النثر والشعر معا .

فى النثر العربى اتجاهان رئيسيان ، اتجاه مستقر ، واضح ، لا يخرج عن الأسس البلاغية التى وضعها علماء اللغة ، وهذا الاتجاه يحاكى فى تقديرى المؤسسات الظاهرة ، المسيطرة ، التى تسعى إلى اقرار الثبات ، والحد من المغامرة ، فكرية كانت أو سياسية أو اجتماعية ، انه مواز أيضا إلى ما يمكن اعتباره الظاهر .

وثمة اتجاه آخر ، يعبر عما هو أعمق ، عما لا يدرك فى الظاهر ، عن تقلبات الذات وأحوالها ، عما لا يمكن أن تستوعبه العبارة ، فاللفظ محدود بحروفه ، لكن المعنى شاسع ، مراوغ ، وجهاد المبدع الحقيقى فى الامساك به والتعبير عنه . هذا ما حاوله الصوفية الكبار ، عندما أشاروا ولم يحددوا ، وعندما رمزوا ولم يفسروا .

التوحيدى وحد بين ظاهر النثر وباطنه ، بين الأساليب التى تعارف عليها القوم ، والمعانى التى لم يطرقها أحد ، بالطريقة التى يألّفها الكافة ، نادرة تلك الكتابة الذاتية التى يتوحد فيها الكاتب بما يكتب ، لا يخبر عن آخر ، ولا ينقل عن أولين ، إنما الكاتب والمكتوب عنه شيء واحد ، نادرة تلك الكتابة فى تراثنا القديم ، يشير إلى رسائل بديع الزمان الهمذانى ، وإلى « اعتبار » أسامة بن منقذ ، وسير بعض الدعاة الفاطميين مثل الأستاذ جودر ، والقاضى النعمان ، وما بثه الصوفية من أشواق ومكابدات فى تنايا كتبهم ، التوحيدى لم يكتف بالتعبير ظاهرا وباطنا ، إنما طرق دروبا مؤدية إلى أغوار النفس لم يسلكها قبله أحد .

أقرأ « الاشارات الالهية » فأجد نفسى فى مواجهة نص حديث كأنه كتب اليوم ، وأظنه أصبح خارج التحديد لأنه صادق صدقا موجعا . يعبر عنى وعن أى إنسان ، فى أى مكان وزمان ، أكثر مما يعبر بعض المجايلين ، المعاصرين .

أقرأ « الاشارات الالهية » فأتخيل لو أن النثر العربى انطلق من صفحات ذلك الكتاب وتطور ، لكننى أعرف جيدا أن « لو » لا تجوز فى التاريخ ، لكن هذا لا يمنع من استخلاص العبر ، لقد جرى تعميم مقصود على التوحيدى ، وكتبه ، وحتى سنة ١٩٢٩ عندما قدمه حسن السندوبى فى مصر ، من خلال طبعه للمقابسات لم يكن يسمع به أحد ، ولم يتوقف عنده أحد ، وقبل السندوبى طبعت

المقاييسات في مكان ناء عن تلك الرقعة الجغرافية التي نعيش فيها ويتكلم أهلها العربية ، طبع في الهند طبعة محدودة جدا . ولحسن الحظ أن نسخة منها وصلت إلى يدي حسن السندوبي فقدمها ، ونقحها ، وطبعها من جديد ، جزاء الله خيرا ، ورحمه رحمة واسعة .
أقرأ « الاشارات الالهية » فأدرك هذا الحس الإيماني العميق ، وأذهل من جرأة بعض الفقهاء الذين رموا التوحيدى بالزندقة .

أقرأ « الاشارات الالهية » ويدركنى الاعجاب بهذا التعبير القوى عن الغربة ، غربة الموهبة ، عاقبة التفرد ، غربة الذات التي تدرك قيمتها ، تفشل في تحقيق الصلة بمن يحيطها ، فتسعى إلى تحقيق الصلة بالملوك ، بالأبدى ، بالأكوان كلها ، فتتحقق صلة من نوع آخر ، بقدر ما تحوى من تحقق ، بقدر ما تحوى من غربة أبدية .

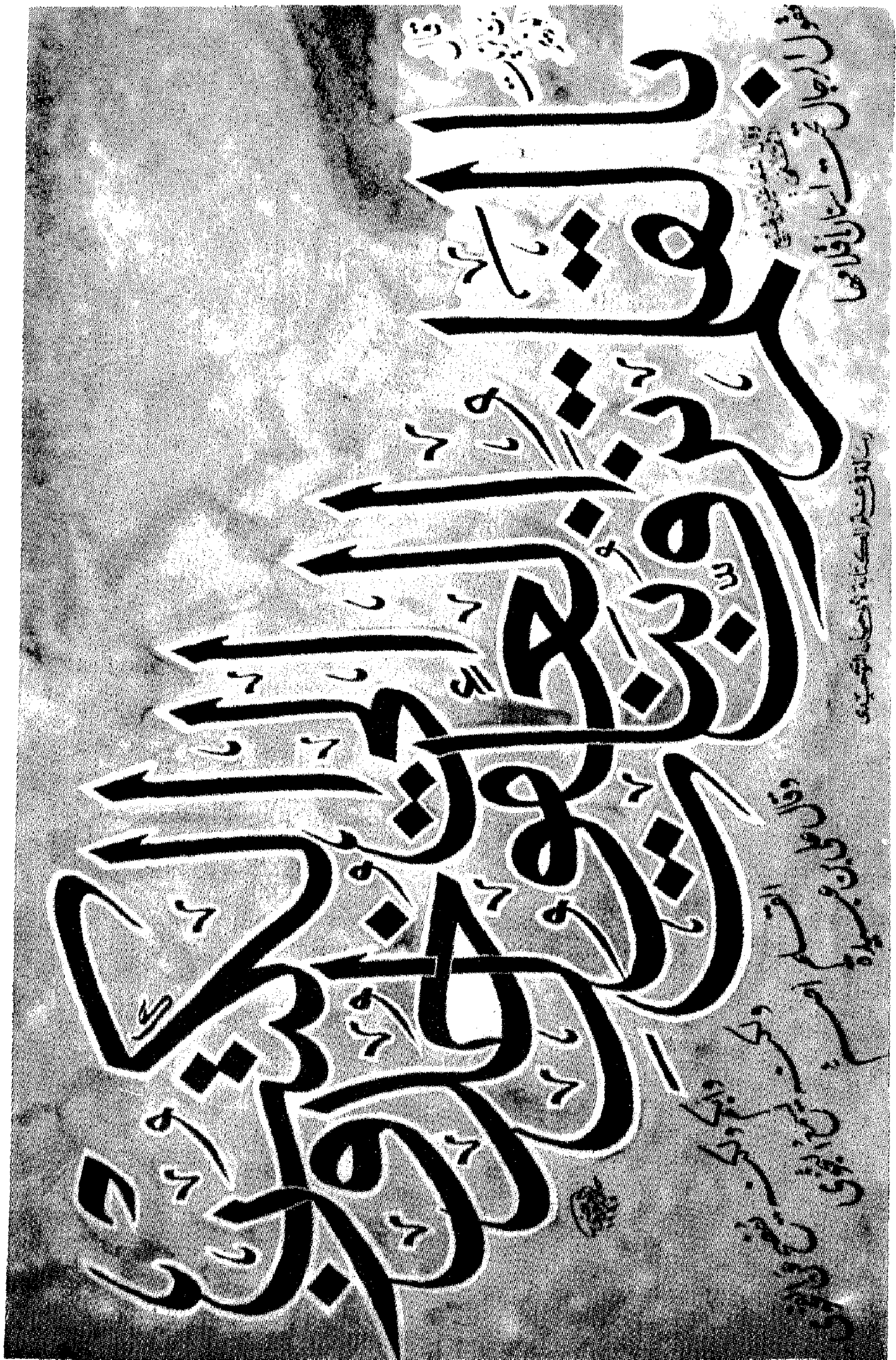
ولأن الكتاب كنز ، ومن الصعب اشاعة هذا الكنز في حيز ضيق ، واطار محدد ، أثرت الاشارة إلى الاشارات من خلال نموذجين متكاملين ، الرسالة الأولى ، والرسالة التي أطلقت عليها « رسالة الغربة » ، للأسف وصلنا بعض من الكتاب ، ومازال جزء منه مفقودا ، بل اننى أتخيل تلك المخطوطات العتيقة في الهند وماليزيا وقرى الصعيد ومساجد اليمن والمغرب وسائر أنحاء الدنيا ، وأمل العثور يوما على مؤلفات التوحيدى المفقودة ، نسخة كاملة من الاشارات الالهية ، أو نسخة كاملة من المحاضرات الذى أورد ياقوت الحموى أجزاء منه ، وكتاب الزلفة ، وكتاب رياض العارفين ، ونصوص رسائله التي اتوقف أمام آخرها ، تلك الرسالة المؤثرة التي يشرح فيها ، لماذا أقدم على حرق كتبه ؟

هذا الموقف المأساوى الذى لا أقرأ عنه إلا وأرتعد . ولا أتخيله إلا وأفزع ، ولا أسمع من يتحدث عنه إلا وينتابنى كمد !

اعتدت معايشة من تعلقت بهم من أعظم الأقدمين ، ومع الوقت ، مع القراءة لهم وعندهم ، يصبحون جزءا من صحبى ، وعمادا فى أسرتى ، وأركاننا لروحي .
الشيخ محمد أحمد ابن اياس الحنفى المصرى ، صاحب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، صاحبى الذى يحدثنى عما لم أعشه .

الشيخ محبى الدين ابن عربى الحاتمى ، الشيخ الأكبر ، أراه كمعلم ، شيخ أحيانا يحنو وأحيانا يقسو ، لكنه فى كل الأحوال يكشف ويدل ويهدى إلى مجرات الروح الخفية .
أما على بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدى ، فأراه وأشعر به بمنزلة شقيقى وأخى الذى سبقنى فى الوفاة على الدنيا ، لكنه لسبب ما اغترب ورحل ، ولا أحد من أهلى يريد أن يبصرنى ، لكننى كلما خلوت بنفسى تلوت بعضا مما خطه وأودعه تلك الصفحات ، فأشفق وأرثى وأعجب ، ويغمرنى حنين ، لا قضا فى صوت بين بين ، لعله بالغة .
« أه يا أخا غربتى الذى لم أره »

جمال الغيطانى



البصائر والذخائر

يرجح بعض الدارسين لأبي حيان أن كتابه البصائر والذخائر من مؤلفاته البكر ، ويشير أبو حيان إلى سنة تأليفه في مقدمة الجزء الأول (٣٥٠ هجرية) ، وقد اعتمدنا على الطبعة التي حققها الدكتورة وداد القاضي ، وصدرت عن دار صادر - بيروت ، والهوامش الواردة في ذيل المختارات من إعدادها .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقني

اللهم إني أسألك جداً مقروناً بالتوفيق ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وعملاً عريئاً من الرياء ، وقولاً موشحاً بالصواب ، وحالاً دائرةً مع الحق ؛ نعم ، وفطنةً عقلٍ مضروبة في سلامة صدر ، وراحةً جسمٍ راجعةً إلى رُوح بال ، وسكونَ نفسٍ موصولاً بثبات يقين ، وصحةً حجةٍ بعيدة من مرض شُبْهة ، حتى تكونَ غايتي في هذه الدار مقصودةً بالأمثل فالأمثل ، وعاقبتى عندك محمودَةً بالأفضل فالأفضل ، مع حياةٍ طيبة أنت الواعدُ بها ووعدك الحق ، ونعيمٍ دائمٍ أنت المبلغُ إليه .

اللهم فلا تخبِّب رجاء مَنْ هو منوطٌ بك ، ولا تصفّر كَفّاً هي ممدودةٌ إليك ، ولا تُذل نفساً هي عزيزةٌ بمعرفتك ، ولا تسلب عقلاً هو مستضيءٌ بنور هدايتك ، ولا تُعم عينا فتحتها بنعمتك ، ولا تحبس لساناً عودتهُ الثناء عليك ، وكما أنت أولى بالفضل فكنْ أحرى بالإحسان : الناصيةُ بيدك ، والوجهُ عانٍ لك ، والخيرُ متوقع منك ، والمصيرُ على كلِّ حالٍ إليك ، ألبسني في هذه الحياة البائدة ، ثوبَ العِصمة ، وحلّني في تلك الدار الباقية بزينَةِ الأَمْن ، وافطمُ نفسي عن طلبِ العاجلةِ الزائلةِ ، وأجِرني على العادةِ الفاضلةِ ، ولا تجعلني ممن سَها عن باطن ما لك عليه ، بظاهر ما لك عنده ، فالشقيُّ من لم تأخذ بيده ، ولم تؤمّنه من غده ، والسعيدُ من آوَيْته إلى كَنَفِ نعمتك ، ونقلتهُ حميداً إلى منازلِ رحمتك ، غيرَ مُناقِشٍ له في الحساب ، ولا سائقٍ له إلى العذاب ، فإنك على ذلك قدير .

ثَبَّتْ - أطال الله بقاءك - الرأيُّ بعد المخض والاستخارة ، وصَحَّ العزمُ بعد التنقيح والاستشارة ، على نقلِ جميع ما في ديوان السَّماع ، ورسم ما أحاطت به الرواية ، واشتملت عليه الدراية ، منذ عام خمسين وثلاثمائة ، مع توخي قصار ذلك دون طويله ، وسَمينه دون غثه ، ونادره دون فاشيه ، وبديعه دون مُعتاده ، ورفيعه دون سَفْسافه ، ومتى أنصفتك نفسك ، وهدتك الرأي ، وملكتك الزَّمام ، وجنبتك الهوى ، وحملتك على النهج ، وحمكت دواعي العصبية ، علمت علماً لا يُخالطه

شك ، وَتَيَقَّنْتَ تَيَقُّنًا لَا يَطُورُ بِهِ رَيْبٌ ، أَنْكَ مِمَّنْ كُفِيَ مَوْوَنَةُ التَّعَبِ بِنَصَبِ غَيْرِهِ ، وَمُنَحَّ شَرِيفَ الْمَوْهَبَةِ بِطَلَبِ سِوَاهِ ، وَذَلِكَ بَيْنَ عِنْدِ تَصَفُّحِ مَا تَضُمَّنُ هَذَا الْكِتَابُ ؛ فَإِنَّكَ مَعَ النَّشَاطِ وَالْحَرَصِ سَتُشْرِفُ عَلَى رِيَاضِ الْأَدَبِ ، وَقَرَائِحِ الْعُقُولِ ، مِنْ لَفْظٍ مَصُونٍ ، وَكَلَامٍ شَرِيفٍ ، وَنَثَرٍ مَقْبُولٍ ، وَنَظْمٍ لَطِيفٍ ، وَمَثَلٍ سَائِرٍ ، وَبِلَاغَةٍ مُخْتَارَةٍ ، وَخُطْبَةٍ مُخَبَّرَةٍ ، وَأَدَبٍ حَلَوٍ ، وَمَسْأَلَةٍ دَقِيقَةٍ ، وَجَوَابٍ حَاضِرٍ ، وَمَعَارِضَةٍ وَاقِعَةٍ ، وَدَلِيلٍ صَائِبٍ ، وَمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ ، وَحُجَّةٍ بَلِيغَةٍ ، وَفِقْرَةٍ مَكْنُونَةٍ ، وَلَمْعَةٍ ثَاقِبَةٍ ، وَنَصِيحَةٍ كَافِيَةٍ ، وَإِقْنَاعٍ مُؤَنَسٍ ، وَنَادِرَةٍ مُلْهِمَةٍ ، وَعَقْلٍ مُلَقَّحٍ ، وَقَوْلٍ مُنَقَّحٍ ، وَهَزْلٍ شَيْبٍ بَجْدٍ ، وَجِدِّ عُجْنٍ بِهِزَلٍ ، وَرَأْيٍ اسْتَنْبِطَ بَعْنَايَةَ ، وَأَمْرٍ بَيَّتَ بَلِيلٍ ، وَسِرٍّ كُتِمَ عَلَى الزُّهْدِ ، وَحُجَّةٍ اسْتُخْلِصَتْ مِنْ شَوَائِبِ الشُّبْهِ ، وَشَبْهَةٍ أُنْشِئَتْ مِنْ فَرْطِ جَهَالَةٍ ، وَبِلَادَةِ طَبَاعِ زُرُوتِ بِلِسَانِ عِيٍّ ، وَلَفْظٍ مَرْدُودٍ عَنْ صَدْرِ حَرَجٍ ، وَفَوَادِ عِبَامٍ .

جَمَعْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ مَعَ الشَّهْوَةِ^(١) التَّامَةِ ، وَالْحَرَصِ الْمَتَضَاعِفِ ، وَالذَّأْبِ الشَّدِيدِ ، وَلِقَاءِ النَّاسِ ، وَقَلْيِ الْبِلَادِ ، مِنْ كِتَابٍ شَتَّى حُكِيَتْ عَنْ أَبِي عَثْمَانَ عَمْرُو بْنِ بَحْرِ الْجَا حِظِ الْكِنَانِيِّ ، وَكُتِبَ هِيَ الدَّرُّ الثَّيْرُ ، وَالنُّورُ الْمَطِيرُ ، وَكَلَامُهُ الْخَمَرُ الصَّرْفُ ، وَالسُّحْرُ الْحَلَالُ ؛ ثُمَّ كِتَابُ « النُّوَادِرِ » لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادِ الْأَعْرَابِيِّ^(٢) ، ثُمَّ كِتَابُ « الْكَامِلِ » لِأَبِي الْعَبَّاسِ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدِ الثُّمَالِيِّ ، ثُمَّ كِتَابُ « الْعَيُونِ » لِأَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ قَتَيْبَةَ الْكَاتِبِ

١ - ابن الأعرابي هو اللغوي النحوي النسابة الكوفي المشهور المتوفى في سر من راي سنة ٢٣١ : انظر ترجمته في الفهرست : ٧٥ وتاريخ بغداد : ٢٨٢ ومعجم الأدباء ٧ : ٥ ووفيات الأعيان ٤ : ٣٠٦ والوافي بالوفيات ٣ : ٧٩ وإنباه الرواة ٣ : ١٢٨ . وكتابه « النوادر » لم يصلنا ، وقد وصفه ياقوت بأنه « كبير » ، وقال ابن الفديم إن جماعة رووه عن ابن الأعرابي ، منهم الطوسي وثلعب وغيرهما ، وأضاف أنه قيل إنه اثنتا عشرة رواية ، وقيل تسع .

٢ - لأبي عبدالله العباس محمد بن يزيد : والمبرد هو أحد كبار أئمة اللغة والنحو والأدب ببغداد ، وكانت وفاته بها سنة ٢٨٥ ، وله الكتب الكثيرة ، وكتابه « الكامل » المذكور هنا طبع عدة مرات : انظر ترجمته في الفهرست : ٦٤ وتاريخ بغداد : ٣٨٠ ومعجم الأدباء ٧ : ١٣٧ ووفيات الأعيان ٤ : ٣١٣ ونور القبس : ٣٢٤ وإنباه الرواة ٣ : ٢٤١ .

الدَّينوري^(١) ، ثم « مجالسات » ثعلب^(٢) ، ثم كتاب ابن أبي طاهر الذي وسمه بـ « المنظوم والمشور »^(٣) ، ثم كتاب « الأوراق » للصولي^(٤) ، ثم كتاب « الوزراء » لابن عبدوس^(٥) ، و« الحيوانات » لقدامة^(٦) . هذا إلى غير ذلك من جوامع للناس مضافات إلى حفظ ما فاهوا به ، واحتجوا له ، واعتمدوا عليه ، في محاضرتهم ونواديهم ، وحواضرهم وبواديهم ، مما يطول إحصاؤه ، ويُمل

١ - هو من كبار علماء الكوفة باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والفقه والشعر ، ولد في الكوفة وتوفي سنة ٢٧٠ ، وله المؤلفات الكثيرة المشهورة ، وكتابه « العيون » المذكور في النص هو كتابه المشهور المسمى كتاب عيون الأخبار : انظر ترجمة ابن قتيبة في الفهرست : ٨٥ وتاريخ بغداد ١٠ : ١٧٠ ووفيات الأعيان ٣ : ٤٢ وإنباه الرواة ٢ : ١٤٣ .

٢ - أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني هو أحد أئمة الكوفيين في اللغة والنحو والمعاني والشعر والغريب ، توفي ببغداد سنة ٢٩١ ، وله الكتب الكثيرة ، وكتابه « المجالسات » المذكور هنا طبع تحت اسم « مجالس ثعلب » (القاهرة ، ١٩٤٨) ، إلا أنه يبدو أن المطبوع هذا يشكل جزءاً وحسب من الكتاب ، إذ إن بعض نقول أبي حيان عنه لا ترد فيه : وقد وصف ابن النديم كتاب المجالسات هذا فقال : « ولأبي العباس مجالسات أملاها على أصحابه في مجالسه ، تحتوي على قطع من النحو واللغة والأخبار ومعاني القرآن والشعر مما سمع وتكلم عليه ، روى ذلك عنه جماعة منهم أبو بكر ابن الأنباري وأبو عبد الله اليزيدي وأبو عمر الزاهد وابن درستويه وابن مقسم » . انظر ترجمة ثعلب في الفهرست : ٨٠ وتاريخ بغداد ٥ : ٢٠٤ ووفيات الأعيان ١ : ١٠٢ وإنباه الرواة ١ : ١٣٨ وتذكرة الحفاظ : ٦٦٦ .

٣ - ابن أبي طاهر هو أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور الكاتب الشاعر المشهور المتوفى ببغداد سنة ١٨٠ : ألف كتاباً عديدة أشهرها كتاب بغداد ، وكتابه « المنظوم والمنثور » ، لم يصلنا كله ، وقد قال ابن النديم إنه يقع « في أربعة عشر جزءاً والذي بيد الناس ثلاثة عشر جزءاً » ، وهناك جزء منه قد وصلنا ولكنه مازال مخطوطاً محفوظاً في دار الكتب (ادب : ٥٨١) بعنوان اختيار المنظوم والمنثور . ترجمة ابن أبي طاهر في الفهرست : ١٦٣ ومعجم الأدباء ١ : ١٥٢ وتاريخ بغداد ٤ : ٢١١ والوافي بالوفيات ٧ : ٨ .

٤ - الصولي هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي الشطرنجي الكاتب الأديب النديم المشهور المتوفى سنة ٣٣٥ : ترجمته في الفهرست : ١٦٧ وتاريخ بغداد ٣ : ٤٢٧ ومعجم الأدباء ٧ : ١٣٦ ومعجم المرزباني : ٤٣١ ووفيات الأعيان ٤ : ٣٥٦ والوافي بالوفيات ٥ : ١٩٠ ولسان الميزان ٥ : ٤٢٧ : ومصنفاته كثيرة ، وكتابه « الأوراق » المذكور في النص هو أشهر كتبه ، واسمه كاملاً « الأوراق في أخبار آل العباس وأشعارهم » ، وقد طبع منه ثلاث قطع : أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم (لندن ، ١٩٣٥ - ١٩٣٦) وأخبار الراضي والمتقي (لندن ، ١٩٣٤ - ١٩٣٥) وأخبار الشعراء المحدثين (لندن ، ١٩٣٤) .

٥ - ابن عبدوس هو أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي المعروف بالجهشياري ، أحد كبار المؤرخين القدماء وواحد من البارزين من رجال الدولة العباسية في عصره . توفي سنة ٣٣١ ، أخباره متفرقة في المصادر ، وله ترجمة في الفهرست : ١٤١ والوافي بالوفيات ٣ : ٢٠٥ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٧٩ . وكتابه المذكور في النص والمسمى « كتاب الوزراء والكتاب » طبع في القاهرة سنة ١٩٣٨ بتحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي . وفي سنة ١٩٦٤ قام ميخائيل عواد بطبع النقول عن هذا الكتاب من المصادر المخطوطة والمطبوعة ونشرها تحت عنوان « نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب » (دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٤) .

٦ - هو أبو جعفر قدامة بن جعفر بن قدامة البغدادي الكاتب البليغ المنطقي المعروف المتوفى ببغداد سنة ٣٣٧ : انظر ترجمته في الفهرست : ١٤٤ والمنظوم ٦ : ٣٦٣ ، ومعجم الأدباء ٦/٣٠٣ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٩٧ : وكتابه « الحيوانات » المذكور في النص لا ذكر له فيما بين أيدينا من المصادر .

استقصاؤه ، وسيعتري في التفصيل كل شيء منه إلى معدنه ، وينتسب إلى قائله ، والغرض من الكتاب مسوق إليك ، والمراد فيه معروض عليك ، فلا عائدة إذن للإطالة ، إلا بقدر التلطف والاستمالة .

وأنا ضامن لك أنك لا تخلو في دراسة هذه الصحيفة من أمهات الحكم ، وكنوز الفوائد :

أولها وأجلها : ما يتضمن كتاب الله تعالى الذي حارت العقول الناصعة في رصفه ، وكلت الألسن البارة عن وصفه ، لأنه المظيع ظاهره في نفسه ، الممتنع باطنه بنفسه ، الداني بإفهامه إياك إليك ، العالي بأسراره وغيوبه عليك ، لا يطار بحواشيه ، ولا يمل من تلاوته ، ولا يحسن بإخلاق جدته ، كما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، ظاهره حكم ، وباطنه علم .
والثاني : سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنها السبيل الواضح ، والنجم اللائح ، والقائد الناصح ، والعلم المنصوب ، والأتم المقصود ، والغاية في البيان ، والنهاية في البرهان ، والفرع عند الخصام ، والقذوة لجميع الأنام .

والثالث : حجة العقل ؛ فإن العقل هو الملك المفزوع إليه ، والحكم المرجوع إلى ما لديه ، في كل حال عارضة ، وأمر واقع ، عند خيرة الطالب ، ولدد الشاغب ، ويس الرقيق ، واعتساف الطريق ، وهو الوصلة بين الله وبين الخلق ، به يميز كلام الله عز وجل ، ويعرف رسول الله ، وينصر دين الله ، ويذب عن توحيد الله ، ويلتمس ما عند الله ، ويتحجب إلى عباد الله ، ويؤسس عباد الله ، ويتخلص عباد الله من عذاب الله ؛ نوره أسطع من نور الشمس ، وهو الحكم بين الجن والإنس ، التكليف تابعه ، والحمد والذم قريناه ، والثواب والعقاب ميزانه ، به ترتبط النعمة ، وتستدفع النعمة ، ويستخدم الوارد ، ويتألف الشارد ، ويعرف الماضي ، ويقاس الآتي ، شريعته الصديق ، وأمره المعروف ، وخاصته الاختيار ، ووزيره العلم ، وظهيره الحلم ، وكنزه الرفق ، وجنده الخيرات ، وجلية الإيمان ، وزينته التقوى ، وثمرته اليقين .

والرابع : رأي العين ؛ وهو يجمع لك بحكم الصورة ، واعتراف الجمهور ، وشهادة الدهور ، فتيحة التجارب ، وفائدة الاختيار ، وعائدة الاختبار ، وإذعان

الحس ، وإقرار النفس ، وطُمأنينة البال ، وسكون الاستبداد .
هذا سوى أطراف من سياسة العجم ، وفلسفة اليونانيين ، فإنَّ الحكمة ضالةُ
المؤمن ، أين ما وجدها أخذها ، وعند مَنْ رآها طلبها ، والحكمة حق ، والحق
لا يُنسب إلى شيء ، بل كلُّ شيء يُنسب إليه ، ولا يُحمل على شيء ، بل كلُّ شيء
يُحمل عليه ، وهو متفق من كل وجه ، يطربُّ به الراضي ، ويقنع به الغضبان ،
مُشرق في نفسه ، موثوق بحكمه ، معمولٌ بشرطه ، معدولٌ إلى قضيته ، به خَلَقَ الله
عز وجلَّ السماء والأرض ، وعليه أقام الخلق ، وبه قبض وبسط ، وحكم وأقسط .
فاستدع - أَيْدِكَ الله - نشاطك الشارد ، وراجع بآلك الرخيَّ وجلِّ بفهمك في
رياض عقول القدماء ، وانظر إلى مآثر هؤلاء الحكماء ، واطَّلِعْ على نوادر فطن
الأدباء ، واجمع بين طيب السلف ، وخبيث الخلف ، فما تَخْلُو عند جولانك فيها من
جِدِّ أنت سعيدٌ به ، وهَزَلٍ أنت مُدارى فيه ، ورأى أنت فقيرٌ إليه ، وأمرٍ لعلك
محمود عليه : [البسيط] .

فَالذَّهْرُ آخِرُهُ شِبْهُ بِأَوَّلِهِ نَاسٌ كَنَاسٍ وَأَيَّامٌ كَأَيَّامٍ

وإذا حفظت ما مضى ، حذرت ما بقي .
واجعل نهاية حالك ، وقصارى أمرك ، فيما تستفيد من هذا الكتاب ، وعساه
يجمع ألفي ورقة ، أن تكون سالياً عن هذه الدنيا ، قالياً لأمرها ، واثقاً بالله تعالى ،
مطمئناً إليه ، ممترياً لمزيدة ، منتظراً لموعوده ، عالماً بأنه أولى بك ، وأملك لك ،
وأقرب إليك ، فإنه متى خَلَكَ من توفيقه عثرت عثراً بعد عثار ، وحطَّ ثَقُلَ الحرص
عليها عن ظهورنا ، وفتح على ما عنده بصائرنا ، وغمض عما هاهنا أبصارنا ،
ولا ابتلانا بنا ، ولا أسلمنا إلينا ، إنه وليُّ النعمة ومانحها ، ومرسلُ الرحمة وفاتحها ،
بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ؛ جلّ مذكوراً ، وعزّ مراداً .

اللَّهُمَّ فَاسْمِعْ ، وإذا سمعت فأجب ، وإذا أجبت فبلغ ، وإذا بلغت فأدِّمْ ، فإنه
لا يشقى مَنْ كُنْتَ له ، ولا يسعد مَنْ كُنْتَ عليه ، وصلِّ على نبيِّك المبعوث من لدنك
إلى خَلْقِكَ ، محمدٍ وآله الطاهرين ، ولا تنزع من قلوبنا خلاوة ذكره ، ولا تُضِلَّنَا بعدُ

إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَقَرَّبْتَ عَلَيْنَا طَرِيقَ الْاِقْتِدَاءِ بِأَمْرِهِ ، وَالْاِهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ ، فَإِنَّكَ تَصْرِفُ مَنْ
تَشَاءُ إِلَى مَا تَشَاءُ ؛ لَا رَادَّ لِقَضَائِكَ ، وَلَا مَعْقِبَ لِحُكْمِكَ ، وَلَا مُحِيطَ بِكُنْهِكَ ،
وَلَا مُطَّلِعَ عَلَى سِرِّكَ ، وَلَا وَاصِفَ لِقَدْرِكَ ، وَلَا آمِنَ لِمَكْرِكَ ؛ أَنْتَ الْإِلَهُ الْمَحْمُودُ ،
وَأَنْتَ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ .

قَدْ تَلَطَّفْتُ إِلَى قَلْبِكَ بِحَثِّي إِيَّاكَ عَلَى حِظِّكَ فِي فَنُونٍ مِنَ الْقَوْلِ ، وَضُرُوبٍ مِنَ
الْوَصَايَا ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَوَابِي عِنْدَكَ فِيهَا مُتَقَبَّلًا ، وَخَطَايِي فِيهَا عِنْدَكَ مُتَأَوَّلًا ،
لَا لِأَنِّي لَذَلِكَ أَهْلٌ ، وَلَكِنْ لِأَنَّكَ حَقِيقٌ بِهِ ، وَلَهُ خَلِيقٌ ، وَمَهْمَا شَكَّكَتَ فِيمَا يَرِدُ
عَلَيْكَ مَنِّي فِي هَذَا الْكِتَابِ ، فَلَاتَشْكُ أَنْيَ قَدْ نَثَرْتُ لَكَ فِيهِ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ ،
وَالْعَقِيقَ وَالْعَقِيَانَ ، وَهَكَذَا يَكُونُ عَمَلٌ مِنْ طَبِّ لِمَنْ حَبَّ .

ثَبَّتَ اللَّهُ نِعَمَهُ لَدَيْكَ ، وَخَفَّفَ مَوْثَنَهُ شُكْرَهَا عَلَيْكَ ، وَتَابَعَ لَكَ الْمَزِيدَ فِي ،
وَأَسْرَتْ إِسَارًا بَعْدَ إِسَارٍ ، وَاسْتَمَرَّتْ فِي الْخِزْيِ اسْتِمْرَارًا بَعْدَ اسْتِمْرَارٍ ، وَتِلْكَ حَالُ
مَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَرْسَلَهُ مِنْ يَدِهِ ، وَوَكَّلَهُ إِلَى حَوْلٍ خَفِيفٍ ، وَمَتْنٍ ضَعِيفٍ ؛
لَا أَذَاقَكَ اللَّهُ كَرَبَ هَذِهِ الْبَلْوَى ، وَلَا أَخْلَاكَ أَبَدًا مِنْ مُتَجَدِّدِ النُّعْمَى .

وَاصْرِفْ مَا اسْتَطَعْتَ هِمَّتَكَ عَنْ هَذَا الظِّلِّ الْقَالِصِ ، وَالزَّخْرِفِ الْغَاثِلِ ، وَالْعَيْشِ
الزَّائِلِ ، إِلَى مَا وَعَدَكَ اللَّهُ ، فَإِنْ إِلَهَامُهُ إِيَّاكَ مَتَى صَادَفَ طَاعَتَكَ لَهُ ، وَدَعَاكَ لَكَ مَتَى
وَافَقَ إِجَابَةً مِنْكَ ، مَدَّتْ السَّعَادَةُ جَنَاحَهَا عَلَيْكَ ، وَصَافَحَتْ يَدُ الْيُمْنِ كَفَّكَ ، وَنَجَوْتَ
مِنْ مَعَاطِبِ عَالَمٍ : السَّاكِنُ فِيهِ وَجِلٌ ، وَالصَّاحِي مِنْ أَهْلِهِ ثَمِلٌ ، وَالْمَقِيمُ عَلَى ذُنُوبِهِ
خَجِلٌ ، وَالرَّاحِلُ عَنْهُ مَعَ تَمَادِيهِ عَجَلٌ ؛ وَإِنْ دَارًا هَذَا مِنْ آفَاتِهَا وَصُرُوفِهَا ، لِمَحْقُوقَةٍ
بِهَجْرَانِهَا وَتَرْكِهَا ، وَالصُّدُوفِ عَنْهَا ، خَاصَّةً وَلَا سَبِيلَ لِسَاكِنِهَا إِلَى دَارِ قَرَارِهِ إِلَّا بِالزَّهْدِ
فِيهَا ، وَالْبِرْضَى بِالطَّفِيفِ مِنْهَا « كَبُلُغَةُ الثَّائِي وَزَادِ الْمُنْطَلِقِ » .

عَرَّفْنَا اللَّهَ حِظَّنَا ، وَسَلَّكَ بِنَا فِي طَرَقِ رُشْدِنَا ، وَسَلَّ حُبَّ الدُّنْيَا مِنْ قُلُوبِنَا ، كُلَّ يَوْمٍ
جَدِيدٍ ، وَحَرَسَكَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَعَصَمَكَ مِنْ بَنِي جَنْسِكَ ، وَعَرَّفَكَ الْخَيْرَ ، وَحَبَّبَ
إِلَيْكَ الْإِحْسَانَ ، وَوَفَّقَكَ لِلرِّشَادِ ، وَخَتَمَ أَمْرَكَ بِالطَّهَارَةِ بَعْدَ بُلُوغِ الْأَمَانِيِّ وَدَرَكِ
الْمَطَالِبِ ، بِمَنْهُ وَقْدَرْتَهُ .

نصيحة

إِيَّاكَ أَنْ تَعَافَ سَمَاعَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمَضْرُوبَةِ بِالْهَزْلِ ، الْجَارِيَةِ عَلَى السُّخْفِ ، فَإِنَّكَ لَوْ أَضْرَبْتَ عَنْهَا جُمْلَةً لِنَقْصِ فَهْمِكَ ، وَتَبَلُّدِ طَبْعِكَ وَلَا يَفْتَقُ الْعَقْلُ شَيْءٌ كَتَصَفْحِ أُمُورِ الدُّنْيَا ، وَمَعْرِفَةِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَعِلَانِيَتِهَا وَسِرِّهَا ؛ وَإِنَّمَا نَثَرْتُ هَذِهِ الْفَوَاتِحَ عَلَى مَا اتَّفَقَ ، وَقَدْ كَانَ الرَّأْيُ نَظَمَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى شَكْلِهِ ، وَرَدَّهُ إِلَى بَابِهِ ، وَلَكِنْ مَنَعَ مِنْهُ مَا أَنَا مَدْفُوعٌ إِلَيْهِ مِنْ انْفِتَاتٍ حَالِي ، وَانْبِتَاتٍ مُنْتِي ، وَالتَّوَاءِ مَقْصِدِي ، وَفَقَدِ مَا بِهِ يُمَسِّكُ الرَّمَقُ ، وَيُصَانُ الْوَجْهُ ، لَاعُوجَاجِ الدَّهْرِ ، وَاضْطِرَابِ الْحَبْلِ ، وَإِدْبَارِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا ، وَقُرْبِ السَّاعَةِ إِلَيْنَا ؛ فَاجْعَلِ الْإِسْتِرْسَالَ بِهَا ذَرِيعَةً إِلَى جَمَامِكَ ، وَالْإِنْبِسَاطَ فِيهَا سُلَّمًا إِلَى جِدِّكَ ، فَإِنَّكَ مَتَى لَمْ تُذِقْ نَفْسَكَ فَرَحَ الْهَزْلِ ، كَرَبَهَا غَمُّ الْجِدِّ ، وَقَدْ طُبِعَتْ فِي أَصْلِ التَّرَكِيبِ عَلَى التَّرْجِيحِ بَيْنَ الْأُمُورِ الْمُتَفَاوِتَةِ ، فَلَا تَحْمِلْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهَا ، فَتَكُونَ فِي ذَلِكَ مُسِيئًا إِلَيْهَا ، وَلَأَمْرٍ مَا حُمِدَ الرَّفْقُ فِي الْأُمُورِ وَالتَّائِي لَهَا ، وَمَا أَحْسَنَ مَا أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ (١) : « إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بَرْقُقٌ ، فَإِنَّ الْمُتَنَبِّتَ لَا أَرْضَاءَ قَطَعَ ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى » .

قعود وقيام

قال الإسكافي وأبو عيسى الوراق (٢) : يجوزُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ قَاعِدًا قَائِمًا ، وَمَتَحَرِّكًا سَاكِنًا ؛ هَكَذَا حَكَى الْكَعْبِيُّ وَهُوَ ثِقَّةٌ . وَهَذَا مِنْ شَنِيعِ الْقَوْلِ وَفَاحِشِ الْإِعْتِقَادِ .

١ - الحديث في مسند أحمد بن حنبل ٣ : ١٩٩ والمقاصد الحسنة : ٣٩١ ، قال : رواه البزار والحاكم في علومه والبيهقي في سننه . وقوله « فَإِنَّ الْمُتَنَبِّتَ لَا أَرْضَاءَ قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى » ، يجري مجرى المثل : قال ابن سلام : يقول إن هذا الذي كلف نفسه فوق طاقتها من العبادة بقي حسيراً كالذي افترط في إغذاذ السير حتى عطبت راحلته ولم يقض سفره (فصل المقال : ١٣ : وانظر أيضاً الميداني ١ : ٦) .

(١) الإسكافي أبو جعفر محمد بن عبدالله من أئمة المعتزلة . وإليه تنسب الفرقة الإسكافية . توفي سنة ٢٤٠ أو ٢٤١ : له أخبار في المنية والأمل : ٤٤ والانتصار : ٢٠٢ و ٢٢٨ والفرق بين الفرق : ١٦٩ والملل والنحل لمجهول : ١٠٣ وصفحات متفرقة من مقالات الإسلاميين ومادة الإسكافي في الأنساب : وأما أبو عيسى الوراق فهو محمد بن هارون . توفي سنة ٢٤٧ ، وهو ممن ألف كتباً للشيعنة كما فعل ابن الراوندي . ويحط عليه أبو حيان في كتبه ويسمه بالإلحاد (انظر مثلاً الإمتاع ٣ : ١٩٢ والهوامل والشوامل : ٢١٣) : وفي ترجمة الوراق انظر لسان الميزان ٥ : ٤١٢ والفهرست : ٢١٦ ، وانظر فهرس كتاب الانتصار لأرائه .

وما أدري ما أقول في هذه الطائفة التي تبعت آراءً مشوبةً . وأهواءً فاسدةً ،
 وخواطراً لم تختمر . وفروعاً لم يؤسس لها أصول ، وأصولاً لم تشرع على مَحْصول ،
 لا جَرَمَ اتَّسع الخرقُ على الراقع ، واشتبه الأمرُ على المستبصر ، وخاست بضائعُ
 العلماء . وعاد الأمرُ إلى الهزلِ المقوى بِجِدِّ ، والباطلُ المزيّن بحقٍّ ، وذَهَبَ
 التَّقَى ، وسقط الورع ، وهَجَرَ التَّورع والتَّحَرُّج ، وصار الجوابُ في كل مسألة دَقَّتْ
 أو جَلَّتْ ، أو اتَّضحَتْ أو أَشكَلَتْ ، لا أو نعم ، كأنهم لا يعلمون أنهم لا يعلمون كلَّ
 شيءٍ ، ولا يُحيطون بكلِّ شيءٍ ، وأنَّ الدينَ مشروعٌ على التسليم والتعظيم والعمل
 الصالح ، واعتقاد ما عَرِيَ من الرأي المنقوض والعقل المنقوص ، وأن رسولَ الله
 صَلَّى الله عليه وسلَّم لم يُجب في كل شيءٍ ، ولا أثار ما لم يكن مأموراً بِإثارته ، وأنه
 أمر بالكفِّ والسكوت إلَّا فيما عمَّ نفعه ، وشملت عائدته ، وأمنت عاقبته ، بذلك
 بُعث ، وعليه حُتَّ وحَتَّ . إلى الله عزَّ وجلَّ أشكو عصرنا وعلماءنا ، وطالبي العلم
 منا ، فإنَّه قد دَبَّ فيهم داءُ الحميَّة ، واستولى عليهم فسادُ العَصبيَّة ، حتى صار الغيُّ
 متبوعاً ، والرُّشدُ مقموعاً ، والهوى معبوداً ، والحقُّ منبذاً كلُّ يزخرف بالحيلة
 ولا يُنصف ، ويموّه عليه بالخداع ولا يَعرف .

ولقد رأيت شيخاً من أبناء ستين سنةً وهو يقول : ما ناظرتُ قطُّ في إثبات الرؤية من
 ينفيها إلَّا انقطعتُ ، ولا أتيتُ بحجةٍ إلَّا زوحت ، ولا عَوَّلْتُ على أصل
 إلَّا نُوزعت ، وما أمدني في ذلك إلَّا هواي في أني أحبُّ إثبات الرؤية ، وأستوحش من
 نفيها ، فأنا أتبع ما يقوى في نفسي ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قاذفُ تلك المحبةِ في نفسي ،
 ومُتولِّيها دوني ، ولو كان العملُ على بيان الخصم واحتجاج النُّظير وشواهد المناظر ،
 لقد كُنْتُ تحوَّلْتُ في ألف مقالة ، فإنِّي لا أسمعُ خطبةً مقالةً ، ولا ألحظ ظاهراً نِحلةً ،
 إلَّا وأرى له من البهاء والحلاوة والحُسن والشارة ما لا أجِدُ لغيره ، فإن ذهبتُ إلى
 تكافؤ الأدلة قهرتُ العقل ، وفارقتُ المحجَّة ، وإن ملَّتُ إلى تَخْلِصِ الحُجَّة من
 عوارض الشبهة رُمْتُ كَوُوداً ، ورُهِّقْتُ صَعُوداً ، لكنِّي مع ما أُلقي في روعي لأنني
 واثقٌ به ، وذلك أني لم أجلبه ولم أكسبه ، وإنما هو شيءٌ سيقَ إليَّ سَوْقاً ، وشوِّقَتْ
 إليه شَوْقاً ، ولأنَّ أكونَ مع هذه الدواعي أحبُّ إليَّ من أن أُطيلَ المنازعةَ وأكثرَ
 البحث ، فإنَّ آفةَ المنازعة ثورانُ الطُّباع وهيجَ النفس وعصبيَّة الهوى ، وآفةُ البحث

التردد بين الاستيحاش والتحير على غير يقين يُمسك الفؤاد ، ولا عمل يزود إلى المعاد .

هذا كلام هذا الرجل ، ولعلّ فتنته فيما ذهب إليه ، وعقد إصبعه عليه ، أخفّ من فتنه غيره ، وإذا كان بعض ما يعتري خائض هذا الغمر ، وراكب هذا البر ، فما نقول بأمور أدقّ من هذا وأخفى ؟ ! ولهذا قال بُندار بن الحسين ، وكان شيخ فارس علماً وفضلاً ونُبلاً : ما نظرتُ في الكلام قط إلا رأيتُ في قلبي منه قسوة ، وعلى لساني منه سَطوة ، وفي أخلاقي مع خصومي جفوة .

وكان أبو زيد المَرُوزي يقول - وشاهدته بمكة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة - كنت أقرأ علم الكلام على الأشعري أيامَ حدثي بالبصرة ، فرأيتُ في المنام كأنني قد فقدتُ عيني جميعاً ، فاستعبرتُ حاذقاً بعلم الرؤيا فقال لي : لعلّ هذا الرائي قد سلخ دينه ، وفارق حقاً كان عليه ، فإنّ أوضح دلائل البصر على الدين والعقيدة . قال : فاستوحشتُ من هذه العبارة ، وانقبضتُ عن المجلس ، فسأل عني وجدّ في تعرف خبري وألح على نظرائي ، فلم أرتج ولم أهتز ، فبينما أنا على انقباضي إذ جَمَعَنِي وإياه طريقٌ ، فبدأنِي بالسَّلام ، وأطال طَرَفَ الحديث ، وشهد تَعَسُّري في الإجابة ، واستيحاشي من الطريقة ، فقال لي عند آخر كلامه : إن كنت تنفر من مقالاتنا التي شاهدناها ونصرناها ، فاحضرْ واقرأ أيّ مقالة أحببتُ فإنّي أدرّسها لك . قال أبو زيد : فازددتُ في نفسي نفوراً ، وكان سبب إلحافه وتشدّده أني كنتُ حديث السن ، وكان للعين في مجال ، ثم ثبّتي الله تعالى على هجران هذا الفن ، وأقبل بي على الحق والفقه ، وبلغني هذه الحال التي أسأل الله عزّ وجلّ تمامها وخير عاقبتها .

هذا نصّ ما حفظته عنه ، وإن كنت قدّمتُ بعض اللفظ وأخرت ، فإنّي لم أحرف المعنى ، ولم أزد فيه من عندي شيئاً . ولقد سمع هذا ابنُ المرزبان الشافعي سنة تسع وخمسين مع أصحابه بعد أن عاد أبو زيد من الحجاز والشام إلى مدينة السلام قاصداً إلى خراسان .

رسالة جوامع القرآن في تفسيره

مكتبة

١٩٩٥



الصدّاقة والصديق

لكم حن أبو حيان إلى الصداقة العميقة ، وحنينه وتوقه الإنسانى إليها تجسد فى هذا الكتاب الذى بدأ فى وضعه بعد خيبته فى إقامة علاقة قوية بابن العميد والعماد ، إضافة إلى صدمته فى الآخرين ، ومن الكتاب اخترنا مقدمته التى حوت سطورا عميقة فى التعبير عن الغربة . اعتمدنا على الطبعة الصادرة فى القاهرة عن مكتبة الآداب . سنة ١٩٧٢ ميلادية ، بتحقيق الأستاذ على متولى صلاح .

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا^(١) ، واستر علينا فقد أغورنا^(٢) ، وارزقنا الألفة التي بها
تصلح القلوب ، وتنقى الجيوب^(٣) ؛ حتى نتعيش^(٤) في هذه الدار مصطلحين^(٥)
على خير ، مؤثرين للتقوى ، عاملين شرائط الدين ، آخذين بأطراف^(٦) المروءة ،
أنفين^(٧) من ملابسة^(٨) ما يقدر^(٩) في ذات البين^(١٠) ، متزودين للعاقبة التي لا بد من
الشخص^(١١) إليها ، ولا محيد^(١٢) عن الاطلاع عليها ؛ إنك تؤتي من تشاء
ما تشاء .

سُمع مني في وقت بمدينة السلام^(١٣) كلام في الصداقة والعشرة والمؤاخاة والألفة
ما يلحق بها من الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والبذل والمواساة
والجود والتكرم ، مما قد ارتفع رُسمه^(١٤) بين الناس ، وعفى^(١٥) أثره عند العام
والخاص ، وسُئلت إثباته ففعلت ، ووصلت ذلك بجملة مما قال أهل الفضل

(١) عثرنا : زللنا وكبوّنا .

(٢) أغورنا : تقول (أغور القارس) إذا بدا فيه موضع خلل للطعن ، والمراد أنه قد ظهرت
مواطن ضعفنا .

(٣) الجيوب : جمع جيب ، وهو القلب والصدر .

(٤) نتعيش : نحيا .

(٥) مصطلحين : متفقين .

(٦) أطراف المروءة : نواحيها .

(٧) أنفين : أنف من الشيء - استنكف منه ، وتَنَزَّ عنه .

(٨) ملابسة : لبس الأمر - زاوَلَهُ .

(٩) ما يقدر : قدح في عرضه - طعن فيه وعابه وتنقصه .

(١٠) ذات البين : الوصل ، والصداقة ، والنسب ، والقربة .

(١١) الشخص إليها : الذهاب إليها .

(١٢) لا محيد : لا مئيل ولا عدول .

(١٣) مدينة السلام : بغداد .

(١٤) رُسمه : الرسم ما كان لاحقاً بالأرض من آثار الديار ، ويطلق على ما يقابل الحقيقة ، قال
الشاعر « أرى ودكم رُسماً وودى حقيقة » .

(١٥) عفى أثره : امحى ، واضمحل .

والحكمة وأصحاب الديانة والمروءة ؛ ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يُستفاد منها ، ويُنتفع بها في المعاش^(١) والمعاد^(٢) .

وسمعت الخوارزمي أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول : « اللهم نَفَقْ^(٣) سوق الوفاء فقد كَسَدَتْ ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تُمَتِّنِي حتى يبور الجهل كما بار العقل ، ويموتِ النقص كما مات العلم » .

وأقول : اللهم اسمع واستجب فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء^(٤) ، وطال الانتظار ، ووقع البأس ، ومرض الأمل ، وأشفى^(٥) الرجاء ، والفرج معدوم . وأظن أن الداء في هذا الباب قديم ، والبلوى فيه مشهورة ، والعجيج^(٦) منه معتاد .

فأول ذلك أني قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني : إنني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي مُمازحة نفسية ، وصداقة عقلية ، ومساعدة طبيعية ، ومؤاتاة^(٧) خلقية ، فمن أين هذا ؟ وكيف هو ؟ فقال : يا بني ، اختلطت ثقتي به بثقته بي ، فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يَرِثَان^(٨) على الدهر ، ولا يُحْوَلَان^(٩) بالقهر^(١٠) ومع ذلك فبيننا بالطالع^(١١) ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة ، ومظاهرة^(١٢) غريبة ، حتى إنا نلتقى كثيراً في الإرادات والاختبارات والشهوات والطلبات ، وربما تزوارنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل ، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان حتى كأنها قسائم^(١٣) بيني وبينه ، أو كأنني هو فيها ، أو هو أنا ، وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها ، فنراها في ذلك الوقت ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل .

(١) المعاش : الحياة الدنيا .

(٢) المعاد : الحياة الآخرة .

(٣) نَفَقْ سوق الوفاء : رَوَّجْها ورغَّب فيها .

(٤) الجفاء : الهجر ، والإعراض ، وفعل ما يسوء .

(٥) أشفى الرجاء : ذهب ، وغَرَبَ ، وبَعُدَ .

(٦) العجيج : الصَّياح ورفع الصوت .

(٧) مؤاتاة : موافقة .

(٨) لا يَرِثَان : لا يَبْلَيَان .

(٩) لا يُحْوَلَان : لا يُزَالَان .

(١٠) القهر : الغلبة .

(١١) الطالع : هو - في اصطلاح المنجمين أو الفلكيين - ما تُنبأ به المنجَّم من الحوادث

بطلوع كوكب معين .

(١٢) مُظَاهَرَةٌ : مُطَابَقَةٌ .

(١٣) قسائم : انصبه واشطُر مقسومة بينهما .

قال : ورأيتَه قد ملكه التعجب من هذا وشبهه ، فحدثته بما نتقاسمه من قوى
الْفَلَكَ^(١) ، وأن سهامنا واحدة ، وأنصابنا^(٢) منها متساوية أو قريبة من التساوى .
فعجب ، وازداد بصيرة فى إخلاص الصداقة وتوكيد العلاقة ، فقلت لأبى سليمان :
كيف يصح هذا وأنت مطالبك فى الفلسفة ، وصورك مأخوذة من الحكمة ،
وقتيبتك^(٣) مجموعة من الحقائق وخوضك فى الغوامض والدقائق ، وذاك رجل فى
عداد القضاة^(٤) وجلة الحكام وأصحاب القلائس^(٥) ، ومخاضه^(٦) الظاهر الذى عليه
الجمهور^(٧) ، ومأخذه مما عليه السواد^(٨) الأعظم ؟
فقال : هذا هو الذى انفردنا عنه بعد أن ازدوجنا^(٩) عليه ، والأصل أبداً مخالف
للفرع لا خلاف الضد للضد ، ولكن خلاف الشكل للشكل ، وكان مُشْتَرِيه^(١٠) خالياً
من قوة زُحَل^(١١) ، فبرز فى حلبة القضاة ، وكان المشتري لى مقتبساً من زحل ،
فظهرت بما ترى ، فجمعتنا المشاكلة على العلم ، وفرقنا الاختلاف بالفن .
قلت : هذا والله طريف^(١٢) ، ومما يزيد فى طرافته أنك من سجستان وهو من
الصيْمرَة .

(١) الْفَلَكَ : مدارالنجوم ، وعَلَّمَ الْفَلَكَ عَلَّمَ يُنَحِّثُ فيه عن الأجرام العلوية .

(٢) انصابنا : حظوظنا وانصببتنا .

(٣) قتيبتك : زُحَلك ، أى وعاءك ، وفى القرآن « جعلوا بضاعتهم فى رجالهم » أى فى أوعيتهم .

(٤) جلة الحكام : جمع جليل وهو العظيم .

(٥) القلائس : جمع قَلْنَسُوة ، وهى لباس للراس مختلف الأنواع والأشكال .

(٦) مَخَاضه : موضع الخوض فى الماء ، وما جاز فيه الناس مشاة وركبانا .

(٧) الجمهور : جُلُ الناس ، وأشرفهم .

(٨) السواد : العدد الكثير .

(٩) اَزْدَوْجْنَا : اقترننا .

(١٠) الْمُشْتَرَى : أكبر الكواكب السيارة ، وهو فى الأساطير كبير الآلهة .

(١١) زُحَل : أعظم الكواكب السيارة وأبعدها فى النظام الشمسى ، وفى الأساطير الإغريقية :
كبير الآلهة ، وهو مَثَلٌ فى العلو والبعد ويقال له : شيخ النجوم .

(١٢) الطريف : الغريب النادر .

فقال : الأمكنة في الفلك أشد تَضاماً من الخاتم في إصبعك ، وليس لها هناك هذا البعد الذي تجده بالمسافة الأرضية من بلد إلى بلد بفراسخ^(١) تُقَطع ، وجبال تُغَلَى ، وبحار تُخَرَق^(٢) .

فقلت : هل تجد^(٣) عليه في شيء ؟ ، أو يجد عليك في شيء ؟
فقال : وَجَدِي^(٤) به في الأول قد حجبني عن مَوْجِدَتِي^(٥) عليه في الثاني ، على أنه يكتفى مني فيما يخالف هواي باللمحة الضئيلة ، وأكتفى أنا أيضاً منه في مثل ذلك بالإشارة القليلة ، وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية^(٦) عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين ، ويكون لنا في ذاك مَقْنَع^(٧) ، وإليه مَفْرَع^(٨) . وقل ما نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميري إلى شفتي ، ولا نَدَّت^(٩) عن صدرى إلى لفظي ؛ وذلك للصفاء الذي نتساهمه^(١٠) ، والوفاء الذي نتقاسمه ، والباطن الذي نتفق عليه ، والظاهر الذي نرجع إليه ، والأصل الذي رسوخنا فيه ، والفرع الذي تَشَبُّهْنَا^(١١) به . والله ما يسرنى بصداقته حُمُر^(١٢) النعم ، ولا أجد بها بحياتي لى ، وإذا كنت أعشق الحياة لأنى بها أحيا ، كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة ، وجنى لى ثمراتها ، وجلب إلى روحها ، وخلط بى طيها وحلاوتها .

(١) فراسخ : جمع فرسخ ، وهو ثلاثة أميال هاشمية . وقيل اثنا عشر ألف ذراع .

(٢) تُخَرَق : خَرَقَ المَقَارَةَ - قطعها حتى بلغ اقصاها .

(٣) تَجِدُ عليه : تغضب عليه .

(٤) وَجَدِي به : وجد به - أحبه .

(٥) مَوْجِدَتِي عليه : غضبى عليه .

(٦) الكناية : كناية عن كذا يكنو (واوى) أى ذكره ليدل به على غيره ، وكنى به عن كذا يكنى .

(يائى) أى تكلم بما يستدل به عليه ، أو ان يتكلم بشيء وهو يريد غيره .

(٧) مَقْنَع : رضا نقنع به .

(٨) مَفْرَع : مَلْجأ .

(٩) نَدَّت : شَرَدَتْ وَنَفَرَتْ . ويريد بقوله « ما سافرت عن ضميرى إلى شفتى ، وبقوله كذلك

« ولا ندت عن صدرى إلى لفظى ، أن هذه الأسرار لم تجر على لسانه ، ولم يذكرها لأحد من

الناس ، بل ظلت حبيسة في ضميره وصدره .

(١٠) نتساهمه : نتقاسمه .

(١١) تَشَبُّهْنَا به : تعلّقنا به .

(١٢) حُمُر النعم : الجمال الحُمر . وهى عندهم اشرف الاموال .

وكان أبو سليمان يحدثني عن ابن سيار بعجائب ، وأما أنا فما عرفته إلا قاضياً جليلاً صاحب جد وتفخيم ، وتوقير وتعظيم ، وكان مع ذلك بسيط اللسان ، شريف اللفظ ، واسع التصرف ، لطيف المعاني^(١) ، بعيد المرامي ، يذهب مذهب أبي حنيفة .

ثم قال أبو سليمان : الصداقة التي تدور بين الرغبة والرغبة شديدة الاستحالة^(٢) ، وصاحبها من صاحبه في غرور^(٣) ، والزَّلَّة^(٤) فيها غير مأمونة ، وكسرها غير مجبور^(٥) .

قال : فأما الملوك فقد جَلُّوا^(٦) عن الصداقة ؛ لذلك لا تصح لهم أحكامها ، ولا توفي بعهودها . وإنما أمورهم جارية على القدرة والقهر^(٧) والهوى^(٨) والشائق^(٩) والاستحلاء^(١٠) والاستخفاف^(١١) . وأما خدمهم وأولياؤهم^(١٢) فعلى غاية الشبه بهم

(١) لطيف المعاني : غامضها وخفيها .

(٢) الاستحالة : استحال الشيء - تحوُّل من حال إلى أخرى .

(٣) غرور : أباطيل ، وتزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب .

(٤) الزَّلَّة : السَّقْطَة .

(٥) مجبور : جَبَرَ العَظَمَ - أصلحه من كسر .

(٦) جلوا عن الصداقة : عظمت أقدارهم عنها .

(٧) القهر : الغلبة .

(٨) الهوى : إرادة النفس ، والمهوى - محموداً كان أو مذموماً - وغلب على غير المحمود ،

يقال « فلان اتبع هواه » إذا أريد ذمُّه .

(٩) الشائق : المُحِبُّ إلى النفس .

(١٠) الاستحلاء : أن تجد الشيء حُلُوًّا .

(١١) الاستخفاف : الاستهانة .

(١٢) أولياؤهم : جمع وَلِيٍّ ، وهو المُحب والصديق والنصير .

ونهاية المشاكلة^(١) لهم ؛ لا انتسابهم^(٢) بهم ، وانتسابهم إليهم ، وولوع^(٣) طورهم^(٤) بما يصدر عنهم ويرد عليهم . وأما الثنا^(٥) وأصحاب الضياع^(٦) فليسوا من هذا الحديث في غير^(٧) ولا نفير^(٨) . وأما التجار فكسب الدوانق^(٩) سدٌ بينهم وبين كل مروءة ، وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة^(١٠) وأما أصحاب الدين والورع فعلى قلتهم ربما خلصت لهم الصداقة ؛ لبنائهم إياها على التقوى وتأسيسها على أحكام الحرج^(١١) وطلب سلامة العقبي^(١٢) . وأما الكتاب وأهل العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد والتبارى^(١٣) والتماحك^(١٤) فربما صحت لهم الصداقة وظهر منهم الوفاء . وذلك قليل ، وهذا القليل من الأصل القليل . وأما أصحاب المذاب^(١٥) والتطيف^(١٦) فإنهم رجرجة^(١٧) بين الناس لا محاسن لهم فتذكر ، ولا مساعي فتتشر^(١٨) ؛ ولذلك قيل لهم :

-
- (١) المشاكلة : المماثلة .
(٢) لانتسابهم : انتسب فيه - اعتلق به .
(٣) الولوع : شدة التعلق .
(٤) طورهم : يقصد المعاصرين لهم في زمانهم .
(٥) الثنا : ثنى فلان زيدا ، وأثنأه - كان ثانيه ، ومنه (وهذا واحد فائنه) أى كُنْ ثانيه .
(٦) الضياع : جمع ضيعة ، وهى الجِرْفَة والصناعة .
(٧) العير : الإبل التى تحمل الطعام .
(٨) النفير : الذهاب إلى القتال والمقصود بقوله « إنهم ليسوا من هذا الحديث فى عيروا ولا ونفير ، أنهم لا شأن لهم ولا ذكر لهم فيه .
(٩) الدوانيق : جمع دانق ، وهو سدس الدرهم .
(١٠) الفتوة : السخاء والكرم والمروءة .
(١١) الحرج : مجانبية الآثام .
(١٢) العقبي : آخر كل شيء ، والآخرة .
(١٣) التمارى : الشك .
(١٤) التماحك : التلاحى والخصومة .
(١٥) المذاب : جمع مذبة (بالكسر) وهى ما يُذَبُّ به كالمزوجة .
(١٦) التطفيف : نقص المكيال ، وهو ألا تملأه إلى رأسه .
(١٧) الرجرجة : الاضطراب .
(١٨) فتتشر : فتذاع .

هَمَجٌ (١) وَرَعَاعٌ (٢) وَأُوبَاشٌ (٣) وَأُونَاشٌ (٤) وَلَفِيفٌ (٥) وَرَعَائِفٌ (٦) وَدَاصَةٌ (٧) وَسُقَاطٌ (٨) وَأَنْذَالٌ (٩) وَغُوغَاءٌ (١٠) ؛ لأنهم من دقة الهمم ، وخساسة (١١) النفوس ، ولؤم الطبائع ، على حال لا يجوز أن يكونوا في حومة (١٢) المذكورين وعصابة المشهورين .

فلهذه الأمور الحائلة عن مقارها (١٣) ، الزائغة إلى غير جهاتها (١٤) ، علل وأسباب لو نَفَسَ الزمان (١٥) قليلا لكنا ننشط لشرحها ، وذكر ما قد أتى النسيان عليه ، وعفى أثره الإهمال ، وشغل عنه طلب القوت . ومن أين يظفر بالغداء من كل عاجزاً عن الحاجة ؟ وبالعشاء من كان قاصراً عن الكفاية ؟ وكيف يحتال في حصول طمّرين (١٦) للستر لا للتجمل ؟ وكيف يُهَرَّب من الشر المقبل ؟ وكيف يُهْرَوَّل (١٧) وراء الخير المدبر ؟ وكيف يستعان بمن لا يعين ، ويُشْتَكى إلى غير رحيم ؟

-
- (١) الهمج : الرّعاع من الناس ، الحمقى .
(٢) الرعاع (بالفتح) : سُقاط الناس وسفلتهم وغوغاؤهم .
(٣) أوباش : جمع وبش (بالفتح والتحرك) والأوباش الأخلاط والسفلة .
(٤) أوناش : ذوو بطش .
(٥) لفيف : اخلاط .
(٦) رعائف : صخور وأحجار .
(٧) داصة : لصوص ، جمع دائص .
(٨) سقاط : بضم السين وفتح القاف وتشديدها - جمع ساقط وهو لقيم الحسب والنفوس ، المتأخر عن الناس الذي لا يُعَدُّ في خيار الفتیان .
(٩) أنذال : جمع نذل ، وهو الخسيس من الناس ، والساقط في دين أو حسب ، والمحتقر في جميع أحواله .
(١٠) الغوغاء : الكثير المختلط من الناس ، والسفلة المتسرعون إلى الشر .
(١١) خساسة النفوس : رذالتها .
(١٢) الحومة : موضع القتال ، والمقصود هنا أنه لا يجوز أن يكونوا مع المذكورين في ميدان واحد وفي منزلة واحدة .
(١٣) الحائلة عن مقارها : المتحولة عن مواضعها التي استقرت فيها .
(١٤) الزائغة : المائلة .
(١٥) لو نَفَسَ الزمان : لو أمهل .
(١٦) طمّرين : مثنى طمّر ، وهو الثوب الخلق ، وقيل الكساء البالي من غير الصوف .
(١٧) يهزول : يسرع في المشي .

ولكن حال الجريض^(١) دون القريض^(٢) ، ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما فى النفس من الحرق والأسف والحسرة والغىظ والكمد^(٣) والومد^(٤) ، وكأنى بغيرك إذا قرأها تقبضت^(٥) نفسه عنها ، وأمر^(٦) نقد^(٦)ه عليها ، وأنكر على التطويل والتهويل بها . وإنما أشرت بهذا إلى غيرك ؛ لأنك تبسط من العذر ما لا وجود به سواك ، وذاك لعلمك بحالى ، وأطلعك على دخلتى^(٧) واستمرارى على هذا الإنفاض^(٨) والعوز اللذين قد نقضا^(٩) قوتى ، ونكثا^(١٠) مرتى^(١١) ، وأفسدا حياتى ، وقرنانى بالأسى^(١٢) ، وحجبانى عن الأسى^(١٣) ، لأنى فقدت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق ، والله لربما صليت فى الجامع فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ، فإن اتفق^(١٤) فبقال أو عصار أو نذاف^(١٥) أو قصاب ، ومن إذا وقف إلى

(١) الجريض : الغصة . والريق يُغصُّ به .

(٢) القريض : الشجر . وحال الجريض دون القريض ، مثل يضرب لأمر نفوق دونه عائق ، وورد فى معناه « حال الأجل دون الأمل » .

(٣) الكمد : (بفتح الكاف وفتح الميم وتسكينها) - الحزن الشديد المكتوم .

(٤) الومد : (محركة) - شدة حرّ الليل .

(٥) تقبضت نفسه عنها : اشمازت .

(٦) أمر نقد : أمر الشئ - صار مؤراً .

(٧) دخلت : دخلة الرجل (بالثلاث) - داخلته .

(٨) الإنفاض : أنفض القوم - أرفلوا ، وقيل هلكت أموالهم وفنى زادهم أو أفتوه .

(٩) نقضا قوتى : هزلاها .

(١٠) نكثا : نقضا وهزلا .

(١١) مرتى : قوتى وشدتى .

(١٢) قرنانى بالأسى : وصلانى بالأسى ، والاسى - الحزن .

(١٣) حجبانى عن الأسى : الأسى - جمع أسوة بكسر الهمزة وبضمها ، وهو ما يأتى به الحزين يتعزى به ، وجمعها أسى بكسر الهمزة وبضمها ، ثم سئى الصبر أسئى .

(١٤) اتفق : تصادف .

(١٥) النذاف : الذى يضرب القطن بالمندف .

جانبى أسدَرْنى (١) بَصْنَانَه (٢) ؛ وأَسْكِرْنى بَتَّتِنَه ، فقد أَمْسَيْتْ غَرِيبَ الْحَالِ ، غَرِيبَ الْفَلْظِ ، غَرِيبَ النِّحْلَةِ (٣) ، غَرِيبَ الْخَلْقِ ، مَسْتَأْنَساً بِالْوَحْشَةِ ، قَانِعاً بِالْوَحْدَةِ ، مَعْتَاداً لِلصَّمْتِ ، مَلَاذِماً لِلْحَيْرَةِ مُحْتَمِلاً لِلْأَذَى ، يَأْتِئاً مِنْ جَمِيعٍ مِنْ تَرَى ، مَتَوَقِعاً لِمَا لَا بَدَّ مِنْ حُلُولِهِ ؛ فَشَمْسُ الْعَمْرِ عَلَى شَفَا (٤) وَمَاءُ الْحَيَاةِ إِلَى نُضُوبٍ (٥) ، وَنَجْمُ الْعَيْشِ إِلَى أَفْوَلٍ (٦) ، وَظِلُّ التَّلْبُثِ (٧) إِلَى قُلُوصٍ (٨) .

وفى تمجيد الصمت مرّ بى كلام لبعض الحكماء القدماء ، أنا أرويه لك ههنا لا لأجدد عليك بما ليس عندك ، ولكن لأذكرك ؛ فإن الإذكار (٩) بالخير بعث على الاهتمام به ، والبعث عليه سلوك لطريقه .

قال هذا الحكيم : لو لم يكن للصامت فى صمته إلا الكفاية لأن يتكلم ، فيحكى عنه محرراً ، فيضطر إلى أن يقول : ليس هكذا قلت ، وإنما قلت كذا وكذا ، فيكون إنكاره إقراراً ، ويكون اعترافه بأصل ما حكى عنه شاهداً لمن وشى به ، وادّعاؤه التحريف غير مقبول منه بلا بيّنة يأتى بها ، لكان ذلك من أكبر فضائل الصمت ، وأدع هذا كله وأقول : كان سبب إنشاء هذا الرسالة فى (الصداقة والصدق) أنى ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعه أبى الخير ، فنمّاه (١٠) إلى ابن سعدان الوزير أبى عبدالله سنة

-
- (١) اسد رنى : خيّر نى .
(٢) صُنَانَه : الصنّان (بضم الصاد) - رائحة الإبط المنتن .
(٣) النِّحْلَةُ : المذهب والديانة .
(٤) على شفا : أى لم يبق منه إلا قليل ، ويقال للرجل عند موته ، وللقمر عند أمحاقه ، وللشمس عند غروبها : « ما بقى منها إلا شفا » ، أى قليل .
(٥) نضوب : يقال : « نضب عنه البحر » ، أى نزع ماؤه ونشف .
(٦) أفول : غياب .
(٧) التلبّث : التوقّف .
(٨) قُلُوص : ذهاب .
(٩) الإذكار : التذكّر الشئ - جعله يذكّره والمصدر إذكّار .
(١٠) فنمّاه : فبلغه .

إحدى وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة وتديره أمر الوزارة ، حين كانت الأشغال خفيفة ، والأحوال على أدلالها^(١) جارية .

فقال لى ابن سعدان : قد قال لى زيد عنك كذا وكذا .

قلت : قد كان ذاك .

قال : فدوّن هذا الكلام ، وصِلْهُ بِصِلَاتِهِ^(٢) مما يصح عندك لمن تقدم ، فإن حديث الصدق حلو ، ووصف الصاحب المساعد مطرب . فجمعت ما فى هذه الرسالة وشغل عن رد القول فيها ، وأبطأت أنا عن تحريرها إلى أن كان من أمره ما كان ، فلما مر على ذلك بعض سنين ، عثرت على المسودة ، وبَيَّضْتُهَا على نحيلها^(٣) ، فإن راقتك فذاك الذى عزمت بنيتى وَحَوَّلِي^(٤) واستخارتى^(٥) ، وإن ترحلقت^(٦) عن ذلك فللعذر الذى سحبت ذيله^(٧) ، وأرسلت سيّله^(٨) .

وقبل كل شيء ينبغى أن نثق بأنه لا صديق ولا من يتشبه بالصديق ، ولذلك قال جميل بن مرة فى الزمان الأول حين كان الذين عُرفوا بالإخلاص ، والمروءة تتهادى^(٩) بين الناس ، وقد لزم قعر البيت ، ورفض المجالس ، واعتزل الخاصة والعامة . وعُوتِبَ فى ذلك فقال : لقد صحبت الناس أربعين سنة ، فما رأيتهم غفروا لى ذنباً ، ولا ستروا لى عيباً ، ولا حفظوا لى غيباً ، ولا أقالوا بى عُثْرَةً ، ولا رحموا لى عُثْرَةً ، ولا قبلوا منى معذرة ، ولا فكّونى من أسرة ، ولا جبروا لى من كَسْرَةٍ ، ولا بذلوا لى نَصْرَةٍ .

(١) أدلالها : الدّل - الحالة التى يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار وحسن السيرة .

والجمع أدلال ، والمقصود أن الأمور تسير سيرها الطبيعى المألوف .

(٢) صِلْهُ بِصِلَاتِهِ : أى الحِقْهُ بما ترى أنه يتصل به مما قال الأقدمون .

(٣) نحيلها : أصلها الهزيل السقيم الذى كاد يذهب .

(٤) الحَوَّل : الحيلة ، وهو أيضاً القوة .

(٥) الاستخارة : طلب الخيرة ، يقال « استخّر الله يخرك لك » أى اطلب من الله أن يختار لك

ما يوافقك فيختار .

(٦) ترحلقت : تَدَخَّرَجْتَ .

(٧) سحبت ذيله : الذيل - آخر كل شيء ، وذيل الثوب والإزار - مأجَرٌ منه إذا أسبل ،

والمقصود ، فللعذر الذى أبديته عن آخره ولم اكتم منه شيئاً .

(٨) أرسلت سيّله : السيل - الماء الكثير ، وقد شَبَّه به العذر الذى اعتذر به .

(٩) تتهادى : تمشى وحدها مشياً غير قوى متمايلاً .

ورأيت الشغل بهم تضييعاً للحياة ، وتباعداً من الله تعالى ، وتجرعاً^(١) للغيب مع الساعات ، وتسليطاً للهوى فى الهنات^(٢) بعد الهنات .
ولذلك قال الثورى لرجل قال له أوصنى : أنكر من تعرفه . قال : زدنى . قال : لا مزيد .

وكان ابن كعب يقول : لا خير فى مخالطة الناس ، ولا فائدة فى القرب منهم والثقة بهم والاعتماد عليهم ؛ ولذلك قال الأول :

إخاء الناس مُمتَزَجٌ . وأكبر فعلهم سَمِجٌ^(٣)
فإن بَدَهَتْكَ مَقْطَعَةٌ فما لدنيئهم فَرَجٌ^(٤)
فقوّمهم بهجرهم فإن لم يُهَجِّروا اغتوجوا^(٥)
صروف الدهر دانيةٌ بَقَطُّعٍ بينها المُهَجُّ^(٦)
وأنشدنى أبو إسحق إبراهيم بن هلال الكاتب الصابى فى أحوال الزمان :
أياربّ : كلّ الناس أبناء علةٍ أما نعثر الدنيا لنا بصدق؟^(٧)

(١) تجرعاً للغيب : كظماً للغيب ، وحبساً له ، وإمساكاً على ما فى نفسه منه .

(٢) الهنات : خصلات الشر ، ولا يقال فى الخير .

(٣) ممتزج : مختلط غير صاف . سمج : قبيح .

ومعنى البيت : أن صداقة الناس ليست صافية ، وإنما يخالطها دائماً الهوى والحقد ، ولو تأملت اعظم اعمالهم لوجدته منكراً قبيحاً .

(٤) بدَهَتْكَ : بَغَتْكَ وفَجَّتَكَ .

مقطعة : قطيعة ، وهجر وعقوق . دنيئهم : الدنىء - الخسيس والدون .

فرج : فرج الله الغم - كشفه ، وانفرج الغم والكرب - انكشف ، وانفرج فلان من ضيقه - تخلص .

ومعنى البيت - أنهم إن قاطعوك وهجروك لغير سبب ، فتلك طبيعتهم التى تلازمهم دائماً ، ولا يستطيعون الفكك منها ، ولن تجد منهم يوماً غير ذلك .

(٥) قوّمهم : عدّلهم وأصلحهم . اغتوجوا : ساء خلقهم .

يقول الشاعر : أصلحهم بهجرهم وقطيعتهم ، فذلك علاج لسوء فعالهم : فإنك إن لم تهجرهم ، زاد اغوجاجهم وسوء خلقهم .

(٦) صروف الدهر : نوائبه وحوادثه .

دانية : قريبة . تَقَطُّعٌ : تتقطع .

المُهَجُّ : القلوب والانس ، جمع مُهْجَةٍ .

أى إن حوادث الدهر ونوائبه قريبة الوقوع ، وهى حوادث تتقطع منها القلوب .

(٧) علة : بنو العلات ، بفتح العين ، - بنو رجل واحد من امهات شتى ، والواحدة علة ، وهى الضرة .

والمعنى : أن كل الناس ليسوا أشقاء ، أى ليسوا من أب واحد وأم واحدة ، والمقصود أن

أخوتهم ليست كاملة ، ولن نعثر فى هذه الدنيا بصدق كامل الصداقة .

وجوه بها من مُضْمَر الغِلِّ شاهدٌ
إذا اعترضوا دون اللقاء فإنهم
وإن أظهروا بَرْد الوداد وظله
الا: ليتنى حيث أنتوت أفرخ القطا
أخو وَحْدَة قد آنستنى ، كأننى
فذلك خير للفتى من ثَوَائِهِ
ذوات أديمٍ فى النفاق صفيق^(١)
قَذَى لعيون ، أو شَجَى لِحُلُوق^(٢)
أسرُّوا من الشُّحْناء حَرَّ حريق^(٣)
بأقصى محل فى الفلاة سحيق^(٤)
بها نازل فى معشرى وفريقى^(٥)
بمَسْبِعة ، من صاحب ورفيق^(٦)

- (١) مُضْمَر: خفى . الغِل: الغش والحقد .
شاهد: دليل . أديم: جلد . صفيق: ضد رقيق .
والمعنى: أن قلوبهم ممثلة بالحقد والعداوة ، وذلك يبدو على وجوههم ، وإن حاولوا إخفاءه تحت جلودهم الصفيقة السمكة .
(٢) اعترضوا دون اللقاء: حالوا دونه .
قَذَى لعيون: القذى - ما يقع فى العين من تَبَنَةٍ أو غيرها ، تقول: صار الامر قَذَى فى عينيه ، أى اقلقه واجتهد فى إزالته .
= شَجَى لِحُلُوق: الشجى - ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه ، ثم استعير للهَمُّ والحزن: لأن الإنسان يَغْصُ بهما .
ومعنى البيت: أنهم إن حالوا دون اللقاء ، فما هم عند اللقاء إلا قذى للعين إذ تراهم وما هم إلا شجى للحلق كالعظم الذى يتوقف فيه فيؤذيه ويُضْنِيهِ .
(٣) أسرُّوا: اضمروا واخفوا .
الشُّحْناء: العداوة التى تمتلئ منها النفوس .
والمعنى: أن الناس قد يُظهرون لك المودة ، وما هو إلا مظهر كاذب: فإنهم يضمرون لك العداوة الملتهية كنار الحريق .
(٤) أنتوت: أقامت ، تقول: انتوى القوم بموضع كذا ، أى أقاموا .
أفرخ القطا: القطا نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء ، ويطير مسافات شاسعة .
الفلاة: الصحراء . سحيق: بعيد .
أى ليتنى أقيم بعيداً عن الناس حيث تُقيم أفرخ القطا فى الصحراء البعيدة ، فلا أرى منهم أحداً ، ولا أكابد من شرورهم ما أكابد .
(٥) أخو وَحْدَة: صاحب وحدة . آنستنى: أنستنى: أى الوحدة .
معشرى: أهلى . فريقى: طائفتى وجماعتى .
يقول الشاعر: إني أنس بالوحدة حتى لكانى - وأنا وحيد منفرد - أعيش بين أهلى وطائفتى ، فالوحدة تُؤنسنى ولا أستشعر فيها وحشة ، ولا أحس انفراداً .
(٦) ثَوَائِهِ: إقامته ، تقول: ثوى بالمكان ، أى أقام فيه .
المسبِعة: الأرض التى تكثر فيها السباع .
الرفيق: المرافق .
= والمعنى: أن الوحدة خير للإنسان من أن يقيم بين الناس الذين هم - فى حقيقتهم - كالسباع . وارضهم - فى حقيقتها - كالمسبِعة التى تكثر فيها السباع: فإن تلك السباع خير من صاحب الرفيق .

وكان العسجدى يقول كثيراً : الصداقة مرفوضة^(١) ، والحفاظ معدوم ، والوفاء اسم لا حقيقة له ، والرعاية موقوفة على البذل ، والكرم فقد مات ، والله يحيى الموتى .

استرسال الكلام فى هذا النمط شفاء للصدر ، وتخفيف من البرحاء^(٢) ، وأنجياب^(٣) للحرقة ، وإطراد للغيط ، وبرد للغليل^(٤) ، وتعليل للنفس^(٥) . ولا بأس بإيراد كل ملاءمة ودخل فى حوزته^(٦) وإن كان آخره لا يدرك ، وغايته لا تملك .

قال صالح بن عبدالقدوس :

بَنَى ، عليك بتقوى إلال هـ ؛ فإن العواقب للمتقى^(٧)
وإنك ماتت من وجهها تجد بابها غير مُستغلق^(٨)
عدوك ذو العقل أبقى عليك ك من الصاحب الجاهل الآخرق^(٩)
وذو العقل يأتى جميل الأمور وذى خلة الأرشد الأوفق^(١٠)

(١) مرفوضة : متروكة ، ورَفَضَ الشيء - تركه وزَمَاه وجائبة .

(٢) البرحاء : شدة الأذى والمشقة .

(٣) أنجيابُ الحرقة : انكشافها وانقطاعها ، والحرقة (بضم الحاء وفتحها وتسكين الراء) - الاحتراق ، والحرارة .

(٤) الغليل : حرارة العطش .

(٥) تعليل للنفس : تلهية لها ، كما يُعلِّل الصبى بشيء من الطعام يتجرأ به عن اللبن .

(٦) حوزته : ناحيته .

(٧) عليك بتقوى الإله : أى الرُّمها ، والتقوى - مخافة الله .

العواقب : جمع عاقبة - وهى الجزاء بالخير .

يأمر الشاعر ابنه بتقوى الله ومخافته ، وذلك باتِّباع أوامره واجتناب نواهيه ، مؤكداً له أن الجزاء بالخير والحسن إنما يكون للمتقين وحدهم .

(٨) وجهها : بابها . مستغلق : عسير الفتح .

يقول الشاعر : إن أبواب التقوى مفتوحة لمن يشاء ، وليس منها ما يغسر الدخول منه ، ومن أراد أن يلزم التقوى فليطرق إليها أى باب وسيجده مفتوحاً وسهلاً ميسراً .

(٩) أبقى عليك : أشدَّ حفظاً لك ، وإبقاءً على مودتك .

الآخرق : الأحمق قليل العقل .

يقول الشاعر : إن عدوك ذا العقل أشدَّ إبقاءً على صداقتك ومودتك من صديقك الأحمق قليل العقل ، ومثل ذلك قولهم : « عدوٌ عاقل ، خير من صديق جاهل » .

(١٠) يأتى : يفعل . جميل الأمور : طيبها وحسنها .

وذى : أى وهذه . خلة : (بفتح الخاء) - خصلة .

الأرشد : المهتدى الذى يُحسن التقدير فيما يُقدَّر .

الأوفق : من (التوفيق) - وهو جعل الأسباب موافقةً للمطلوب ، أو تسهيل طريق الخير وسد طريق الشر .

يقول الشاعر : إن العاقل لا يفعل إلا جميل الفعال ، وتلك خصلة المهتدى الذى يلازمه التوفيق والسداد .

فأما الذي قال في أصدقائه وجلسائه الخير ، وأثنى عليهم الجميل ، ووصف
جَدَّهُ^(١) بهم ، ودلَّ على محبته لهم ، فغريب .
أنتم سرورى وأنتم مَشْتَكِي حَزَنِي وأنتم - فى سواد الليل - سُمَّارِي^(٢)
أنتم - وإن بَعُدت عنا منازلكم - نوازلُ بين إسرارى وتذكارى^(٣)
فإن تكلمت لم أَلْفِظ بغيركم وإن سكتُ فأنتم عقد إضمارى^(٤)
الله جاركمُ مما أحاذره فيكم ، وحبى لكم من هجركم جارى^(٥)

(١) الجَدُّ : الحظ والنصيب . وزاد بعضهم فقال : الحظ من الفضل والخير .
(٢) سُمَّارِي : الذين يسمرون معي ، ويتحدثون إلى ليلا ، والمفرد - سامر .
يصف الشاعر أصدقاءه بأنهم مبعث سروره ، وبأنهم الذين يفرِّج بهم الغم عن نفسه
بالشكوى إليهم مما يلقي من أحزان ومواقع ، وبأنهم الذين يسمرون معه ويتحدثون إليه ليلا
حين ينصرف الناس إلى مضاجعهم ويخلو هو إلى همومه .
وقد قيل في مثل ذلك .

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة يُواسيك ، أو يُسليك ، أو يتوجَّع

(٣) إسرارى : أسر السِّر - كَنَمَه .
تذكارى : التذكار - الذِّكْر ، وهو أن تذكر الشيء بلسانك ، وتقول فيه شيئاً .
يقول الشاعر : إنكم وإن نأت دياركم وبعُدت منازلكم ، خالون فى قلبى ، مذكُورُونَ من
لسانى ، وفى ذلك قال أحد الشعراء :
فإن القُرْب بالروح وليس القُرْبُ بالجسم
وقال شاعر آخر :

خيالك فى عيني ، وذكرك فى فمى ومثواك فى قلبى ، فأين تغيبُ ؟
(٤) لم أَلْفِظ : لم أنطق لفظاً واحداً . عقد : عَقَدَ العهد - أحكمه .
إضمارى : اضممر الشيء - أخفاه فى ضميره ولم يُصرِّح به .
والمعنى : إنكم أنتم الذين لا ينطق لسانى إلا بذكركم إذا نطقت ، ولا ينطوى ضميرى على
غيركم إذا سكت .

(٥) الله جاركم : مُجِيركم .
أحاذره : أخشاه ، وإخاف حدوثه .
يقول الشاعر : الله مجيركم وحاميك مما أخشاه من بعاد وهجر ، وحبى لكم هو مُجِيرى ،
والشافع لى من أن تهجرونى .

وقال آخر :

أخ لُمْتُه ، أولاً منى ، ثم نرغوى إلى تائب من حلمنا غير مُخَدَج (١)
أهُونُ إذا عزَّ الجليل وربما أزمْتُ برأس الحية المُتمعج (٢)
أخبرنا أبو سعد السيرافى قال : أخبرنا ابن دريد قال ، قال أبو حاتم السجستاني :
إذا مات لى صديق سقط منى عضو .
كتب على بن عبيدة الريحانى البصرى إلى صديق له : كان خوفى من أن لا ألقاك
متمكناً ، ورجائى خاطراً (٣) ، فإذا تمكن الخوف طَئِيت (٤) ، وإذا خطر الرجاء
حَيَّيت .

(١) نَرغوى : تكفُ ونرجع . مُخَدَج : ناقص .

يقول الشاعر : إن لى اخأ أنجى عليه باللائمة . ويفعل بى هو مثل ذلك : لأعمال تصدر من
أحدنا تستوجب هذا اللوم . ثم تكف عنها ونرجع ونثوب إلى حلمنا ونتوب توبة كاملة لا خلل
فيها ولا نقص .

(٢) أهونُ : الينُ واسهلُ .

الجليل : الثمام ، وهو نبت ضعيف يُضربُ به المثل لما هو هينُ المُتناول

أزمْتُ : أزمَ بصاحبه وبالمكان - لَزِمَهُ .

التمعج : المتلوى المتثنى .

يقول الشاعر : إنه سهلُ لَينٍ مع إخوانه ، فلا يُصعِّرُ لهم خَدَه ، ولا يقف منهم مواقف العناد
والمكابرة ، بل إنه ليسهلُ ويتضاءل ، على حين يشتد ويقوى ويعزُّ الثمام ، وهو ذلك النبتُ
الذى يُضربُ به المثل فى الضعف والضالة .

ويزيد الشاعر فى وصف سهولته ولينه ، فيقرر أنه ربما لازم شيئاً ضئيلاً كراس الحية ،
واقام إلى جانبه ، وهو أحقر وأضال وأقل شىء .

(٣) الخاطر : ما يخطر بالقلب من تدبير أوامر ، والهاجس .

(٤) طَئِيتُ : مرضتُ .

وقال جعفر بن محمد رضى الله عنهما : صُحبة عشرين يوماً قرابة .
وقال رجل لضيغم العابد : أشتهى أن أشتري داراً فى جوارك حتى ألقاك كل
وقت . قال ضيغم : المودة التى يفسدها تراخى^(١) اللقاء مدخولة^(٢) .
وكتب آخر إلى صديق له : مثلى هفا ، ومثلك عفا . فأجابه : مثلك اعتذر ،
ومثلى اغتفر .

وقال أعرابى : الغريب ، من لم يكن له حبيب .
وقيل لأعرابى : مَنْ أكرم الناس عشرة ؟ قال : مَنْ إن قُرْبَ مَنْحَ ، وإن بَعْدَ مَدَحَ ،
وإن ظلم صفح ، وإن ضُويقَ سمح ، فمن ظفر به فقد أفلح ونجح .
وقال الفضل بن يحيى : الصبر على أخٍ تعتب عليه ، خير من آخر تستأنف^(٣)
مودته .

وقال عبدالله بن مسعود : ما الدُّخانُ على النار بأدلَّ من الصاحب على الصاحب .
كتب رجل إلى صديق له : أما بعد ، فإن كان إخوان الثقة كثيراً فأنت أولهم ، وإن
كانوا قليلاً فأنت أوثقهم^(٤) ، وإن كانوا واحداً فأنت هو .

وقال سيف الدولة بن حمدان :
تركتُ لك القصوى لتدرك فضلها وقلتُ : ترى بينى وبين أخى فرقٌ؟^(٥)
ولم يك بى عنها نُكولٌ ، وإنما تَوْنَيْتُ عن حقى فتمَّ لك الحقُّ^(٦)

(١) تراخى اللقاء : تباعدة .

(٢) مدخولة : معيبة .

(٣) تستأنف مودته : تأخذُ فيها وتبتدىء .

(٤) أوثقهم : أعظم من يُؤْتَمَنُ ويُوْتَقُّ به منهم .

(٥) القصوى : المنزل البعيدة الرفيعة .

ترى : أى يا ترى ، ويا هل ترى . ومعناها يارجل ، هل ترى ؟

يقول الشاعر لصاحبه : إني قد تركت لك المنزل السامية : لتستأثر بها دونى : إذ لا فرق

عندى بين أن تنالها أنت ، أو أن أنالها أنا .

(٦) نُكولٌ : نُكوصٌ ، وإحجامٌ ، وجُبْنٌ .

تَوْنَيْتُ عن حقى : فَتَرْتُ ، ولم أجد فى طلبه .

تم لك الحق : وافاك تماماً قد تكملت أجزاءه .

يتحدث الشاعر عن قدرته على بلوغ تلك المنزل القصوى ، وأنه لم يكن به ضعف عن

بلوغها ، أو عجز عن الوصول إليها ، ولكنه تراخى - عامداً - عن طلبها ، وتوانى - عن قصد -

فى السعى لنوالها : لينالها صاحبه دونه ، ويظهر بها كاملة تامة

مثالب الوزيرين

ويعرف أيضا بأخلاق الوزيرين ،
كتبه بعد أن ارتحل إلى بلاط
الصاحب ابن عباد ، وخابت آماله
فيه ، وخاب أمله أيضا في ابن العميد
الأب وابنه أيضا المعروف بأبي
الفتح ، ويعد الكتاب من أعنف
نصوص الهجاء التي كتبت بالعربية ،
اعتمدنا على الطبعة الصادرة عن
المجمع العلمي العربي بدمشق ،
بتحقيق العلامة محمد بن تاووت
الطنيجي ، وقد أعادت إصدارها
بالتصوير دار صادر للنشر - بيروت .

أركان الحياة

ولقد رأيت الجرجرائي^(١) - وكان في عداد الوزراء ورجلة الرؤساء ، وإنما قتله ابن بقية^(٢) لأنه نغم له بالوزارة - يقول للحاتمي أبي علي^(٣) ، وهو من أذهياء الناس :
إنما تحرم لأنك تشتم .
فقال الحاتمي إنما أشتم لأنى أحرم .
فأعاد الجرجرائي قوله .
فأعاد الحاتمي جوابه .
فقال ثم ماذا ؟

فقال الحاتمي : دَعِ الدُّسْتَ^(٤) قائمة ، وإن شئت عملناها على الواضحة .
قال : قُل !

قال الحاتمي : يقطع هذا أن لا يسمعوا مدائحهم ، ولا يكثرثوا بمراتبهم ؛ وأن يعترفوا لنا بمزية الأدب وفضل العلم وشرف الحكمة ، كما خذينا لهم بعظمة الولاية ، وفضل العمل ، وبسط اليد ، وعرض الجاه ، والاستبداد بالتنعم والطاق

(١) الجرجرائي : محمد بن أحمد البغدادي الكاتب ، مات سنة ٣٦٣ هـ ، وترجمته واحداً مع الوزير ابن بقية - في تجارب الأمم ٣١٠/٢ - ٣٢٣ : وفي المقابسات لأبي حيان ٨١ حديث لأبي سليمان المنطقي مع الجرجرائي حول « الوزارة » ، ثم حديث عنه بعد مقتله من أجلها . وانظر الامتاع ٣١٧/٣ .

(٢) ابن بقية : أبو طاهر محمد بن محمد بن علي الملقب نصير الدولة . وزير لعز الدولة بختيار في سنة ٣٦٢ هـ ، وبقي في الوزارة أربع سنين : وكان قبل الوزارة يتولى أمر المطبخ لمعز الدولة ، فلما ولي الوزارة قال الناس : « من الغضارة إلى الوزارة » يشيرون إلى وضاعة أصله ، ولكن كرمه غطى على عيبه . وفي سنة ٣٦٧ قتل عضد الدولة وصلبه ، وبقي مصلوباً إلى أيام صمصام الدولة حيث أنزل ودفن . ترجمته في عيون التواريخ لابن شاكراً سنة ٣٦٢ ، ٣٦٧ (ج - ١١ ورقة ١٤٦ ب - ٧٥ ب نسخة بشير آغا) ، تاريخ أبي الفداء ١١٩/٢ ، ١٣٢٥ . وانظر بعض أخباره في الامتاع ٤٣/٤٢/١ ، وفي ينمية الدهر ٣٤٤/٢ (طبع مصر) قصيدة لابن الأنباري في رثائه تعتبر من عيون الشعر العربي .

(٣) أبو علي الحاتمي : محمد بن الحسن بن المظفر البغدادي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ . لغوى كاتب ناقد شهير ، وله مؤلفات . وقد وصفه أبو حيان (الامتاع ١٢٦/٣ - ١٢٧) بثقل الروح والغرور والخيلاء . ترجمته في تاريخ الاسلام للذهبي ١٩٨/١٢ (نسخة أيا صوفيا) رقم (٣٠٠٨) ، عيون التواريخ سنة ٣٨٨ .

(٤) الدست ، يُستعمل ويراد به الديوان ، ومكان الوزارة ، كما يستعمل بمعنى الرياسة والوزارة نفسها استعارة من المعنى السابق . انظر تاج العروس (دست) شفاء الغليل للخفاجي ٩٧ . والمعنى : إما أن تدع هذه المسألة تسير على هذا النحو ، وإما أن نتكلم في إيضاحها بصورة صريحة واضحة .

والرَّواق ، والأمر والنهي ، والحجاب والبواب ؛ وأن يكتبوا على أبواب دورهم وقصورهم :

يَا بَنِي الرَّجَاءِ ! ابعِدُوا عَنَّا ، وَيَا أَصْحَابَ الْأَمَلِ ! اقْطَعُوا أَطْمَاعَكُمْ عَنْ خَيْرِنَا وَمَيْرِنَا^(٤) وَأَحْمِرْنَا وَأَصْفَرْنَا ، وَوَفُّرُوا عَلَيْنَا أَمْوَالَنَا .

قال أبو العتاهية : فَإِنَّ الْعَبْدَ يَقُولُ : لَوْ وَفَّقْتَنِي لِأَطْعَمْتُكَ ، أَيْكُونُ مَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ نَسِيئَةً ، وَمَا يُطَالِبُهُ اللَّهُ بِهِ نَقْدًا ؟

قال المأمون : فَمَا يَقْطَعُ هَذَا ؟

قال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، اضْرِبْ عَنْهُ ، فَإِنَّ الدُّسْتَ قَائِمَةٌ^(١) .
وَأَرْجِعْ فَأَقُولُ :

وما خلا النَّاسُ مِنْذُ قَامَتِ الدُّنْيَا مِنْ تَقْصِيرٍ وَاجْتِهَادٍ ، وَبُلُوغِ الْغَايَةِ ، وَقُصُورٍ عَنِ النَّهْيَةِ ، وَتَشَارُكِ فِي الْمَحَامِدِ وَالْمَذَامِ ، وَالْمَسَاوِي وَالْمَحَاسِنِ ، وَالْمَنَاقِبِ وَالْمَثَالِبِ ، وَالْفَضَائِلِ وَالرَّذَائِلِ ، وَالْمَكَارِمِ وَالْمَلَائِمِ ، وَالْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ ، وَالْمَكَارِهِ وَالْمَسَارِّ ؛ وَمِنْ بَعْضٍ مَا يَكُونُ لِلْقَائِلِ فِيهِ مَنُذُوحَةٌ ، وَلِلشَّائِبِ بِهِ اسْتِرَاحَةٌ ، وَلِلنَّازِلِ فِيهِ مُتَسَعٌ ، وَلِلسَّامِعِ فِيهِ مُسْتَمْتَعٌ ؛ وَأَحْسَنُهُمْ حَالًا ، وَأَسْعَدُهُمْ جَدًّا ، وَأَبْلَغُهُمْ يُمْنًا ، وَأَرْبَحُهُمْ بِضَاعَةً ، مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ غَامِرَةً لِمَسَاوِيهِ ، وَمَنَاقِبُهُ ظَاهِرَةً عَلَى مَثَالِبِهِ ، وَمَادِحُهُ أَكْثَرُ مِنْ هَاجِيهِ ، وَعَاذِرُهُ أَنْطَقُ مِنْ عَاذِلِهِ ، وَالْمَحْتَجُّ عَنْهُ أَنْبَهُ مِنَ الْمَحْتَجِّ عَلَيْهِ ، وَالنَّافِعُ عَنْهُ أَصْدَقُ مِنَ النَّافِعِ فِيهِ^(٢) ؛ وَلَيْسَ الْعَمَلُ عَلَى عَدَدِ هَذِهِ وَهَذِهِ ، وَلَكِنْ عَلَى أَنْ لَا يَكُونَ مَعَ صَاحِبِ الْمَحَاسِنِ مِنَ الْخِصَالِ اللَّئِيمَةِ مَا يَحْبِطُهَا وَيَجْتَاحُهَا ، وَيُخْتَلِعُهَا ، وَيَأْتِي عَلَيْهَا وَإِنْ صَغُرَ جَرَمُ تِلْكَ الْخَلَّةِ ، وَخَمِلَ اسْمُ تِلْكَ الْخِصْلَةِ : وَأَنْ يَكُونَ مَعَ صَاحِبِ الْمَسَاوِي مِنَ الْخِلَالِ الْكَرِيمَةِ مَا يُغَطِّيْهَا ، وَيُسَبِّلُ السُّتْرَ عَلَيْهَا ، وَيُعِينُ الذَّائِدَ عَنْهَا ، وَيُبَيِّضُ وَجْهَ النَّاصِرِ لَهَا ، وَيُمَدُّ بَاعَ الْمَتَطَاوِلِ إِلَيْهَا ؛ وَكَمَا وَجَدْنَا السَّيِّئَاتِ يَحْبِطُنَ الْحَسَنَاتِ ، كَذَلِكَ قَدْ وَجَدْنَا الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ .

(١) الدست قائمة : المشكلة مستمرة ، والقول فيها تقتصل أواخره بأوائله .

(٢) النفع : الضرب والرمي ، واشتد العذاب : يعني أن يكون المدافع عنه أصدق من الطاعن فيه .

والعمود الذى عليه المعول ، والغاية التى إليها المؤئل ، فى خصال ثلاث هُنَّ دَعَائِمُ العالم ، وأركانُ الحياة ، وأمّهاتُ الفضائل ، وأصولُ مصالح الخلق فى المعاش والمعاد ؛ وهُنَّ : الدينُ ، والخلقُ ، والعلمُ ، بهنَّ يعتدل الحال ، ويُنْتَهَى إلى الكمال ، وبهنَّ تُملِك الأزمّة ، ويُنالُ أعزُّ ما تَسْمُو إليه الهمة ؛ وبهنَّ تُؤمّن الغوائل ، وتُحمّد العواقب ؛ لأنَّ الدينَ جِماعُ المَراشد والمصالح ، والخلقُ نظامُ الخيرات والمنافع ، والعلمُ رِباطُ الجميع ؛ ولأنَّ الدينَ بالعلم يَصِحُّ ، والخلقُ بالعلم يَظْهَرُ ، والعلمُ بالعمل يَكْمُلُ ؛ فَمَنْ سَلِمَ دينُهُ من الشك واللَّحاء ، وسُوِيَ الظنِّ والمِرءاء ، وثَبَّتَ عَلَى قاعِدة التَّصديق بموادِّ اليقين الذى أَقَرَّ به البُرهان ، وَظَهَرَ خُلُقُهُ من دَنَس المَلال ، وَلَجَّاج الطَّمَع ، وَهُجْنَةِ البُخْلِ ، وكان له من البِشْرِ نُصيب ، ومن الطَّلَاقَةِ حِظٌّ ، ومن المُساهلة موضع ؛ وَحَظِيَ بالعلم الذى هو حياة المِيت ، وَحَلَى الحَيِّ ، وَكَمال الإنسان فَقَد بَرَزَ بِكلِّ فَضْلٍ ، وبان بِكلِّ شَرَفٍ ، وَخَلَا عن كلِّ غِباوة ، وَبَرىء من كلِّ مَعابَةِ ، وَبَلَغَ النِّجْدَ الأَشْرَفَ ، وَصار إلى الغاية القُصوى .

ولم أَذْكَرْ لك العقلَ فى هذا التَّفصيل ، وهو أولُهُنَّ ، وبه يَتِمُّ آخِرُهُنَّ ، وعليه مَجْرَى جميع ما افْتَنَّ القولُ به ؛ لأنَّه مَوْهبةُ الله العُظمى ، وَمِنْحَتُهُ الكُبْرى ، وباب السعادة فى الآخرة والأولى ، وكان ما عَداه فِرْعاً عليه ، ومضموماً إليه ؛ لأنَّه متى عَدِمَهُ الإنسانُ الحَيُّ الناطقُ فَقَد سَقَطَ عَنْهُ التَّكليف ، وبَطَلَ عَلَيْهِ الاختيار ، وَصار كَبَعْضِ البَهايمِ العامِلة ، وَكَبَعْضِ الشُّخُوصِ المائِلة ؛ وبه يُعرَفُ الدينُ ، وَيَقُومُ الخَلْقُ ، وَيُقْتَبَسُ العلمُ ، وَيُلْتَمَسُ العَمَلُ الذى هو الزُّبْدَةُ ؛ وَقَد يَعدِمُ العَمَلُ والعقلُ مَوْجُودٌ ، وَقَد يُفْقَدُ الخَلْقُ والدينُ ثابتٌ ؛ فليس الأصلُ كالفرع ، ولا الأولُ كالثانى ، ولا العِلَّةُ كَمَجْلُوبِ العِلَّةِ ، ولا ما هو قائمٌ^(١) كالجوهر ، كما هو دائر كالعرض ؛ فلهذا أَضْرَبْتُ عن ذِكره ، وَغَنَيْتُ عن الاستظهار به ؛ وَإِذا تَمَّتْ فائدة الكلام فما زادَ عَلَيْهِ لَعْوٌ ، وَإِذا اسْتَقَرَّ فِيهِ المَعْنى فما أَلَمَّ بِهِ فساد .

فقر

وصاحب الفقر إن مدح فرط ، وإن ذم أسقط ، وإن عمل صالحاً أحبط ، وإن ركب شيئاً خلط وخبط ؛ ولم أر شيئاً أكشف لغطاء الأديب ، ولا أنشف لماء وجهه ،

ولَا أَذْعُرُ^(١) لسرب حياته منه ، وإن الحرَّ الآتِفَ ، والكريم المتعَيِّف^(٢) من مُقاساته والتجلّد عليه ، لَفَى شغل شاغل وموتٍ مائت .

ولابدّ لمن ظَلِمَ من أن يتظَلَّم ، وكيف يكون المظلومُ إذا انتَصَرَ ظالماً^(٣) ، والله يقول : « وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ »^(٤) ، ولو كان المظلومُ إذا تظلم ظالماً ، لكان الظالمُ إذا ظلمَ معذوراً ؛ وكما هَجَّنَ الله لَوَمَ المحسِنِ ، فكذلك حَسَّنَ توبيخَ المُسيءِ ، وكما أَثَابَ عَلَى تَزَكِيَةٍ مَنْ كَانَ ظَاهِراً ، كذلك آجَرَ عَلَى جَرْحٍ مَنْ كَانَ مَدْخُولاً ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ بِعِدَاوَةِ أَبِي جَهْلٍ^(٥) ، وَذَمَّهُ وَلَعْنَهُ وَذَكَرَ لُؤْمِهِ وَخَسَاسَتَهُ ، كالتقرب إلى الله بولاية أبي بكرٍ^(٦) وَمَدْحِهِ والترحم عليه وذكر فضله وبلائه ونصْرته ؛ وهذا مُسْتَمِرٌّ فِي غَيْرِ أَبِي جَهْلٍ مِمَّنْ عَادَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كما أنه مُسْتَمِرٌّ فِي غَيْرِ أَبِي بَكْرٍ مِمَّنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؛ وَإِنَّمَا الْأُمُورُ بِعَوَاقِبِهَا ، وَالْمَذَابُ بِشَوَاهِدِهَا ، وَالنَّاتِجُ بِمُقَدِّمَاتِهَا ، كَمَا أَنَّ الْفُرُوعَ بِأَصُولِهَا ، وَالْأَوَاخِرَ بِأَوَائِلِهَا ، وَالسُّقُوفَ بِأَسَاسِهَا .

حقيقة

وَلَسْتُ أَدْعِي عَلَى ابْنِ عَبَّادٍ مَا لَا شَاهِدَ لِي فِيهِ ، وَلَا نَاصِرَ لِي عَلَيْهِ ، وَلَا أَذْكَرَ ابْنَ الْعَمِيلِ بِمَا لَا بَيِّنَةَ لِي مَعَهُ ، وَلَا بَرَهَانَ لِدَعْوَايَ عِنْدَهُ ، وَكَمَا أَتَوَخَّيَ الْحَقَّ عَنْ غَيْرِهِمَا إِنْ اعْتَرَضَ حَدِيثُهُ فِي فَضْلٍ أَوْ نَقْصٍ ، كَذَلِكَ أَعَامِلُهُمَا بِهِ فِيمَا عُرِفَا بَيْنَ أَهْلِ الْعَصْرِ بِاسْتِعْمَالِهِ ، وَشُهِرَا فِيهِمْ بِالتَّحَلُّيْ بِهِ ، لِأَنَّ غَايَتِي أَنْ أَقُولَ مَا أَحْطَتْ بِهِ خُبْرًا ، وَحَفِظْتَهُ سَمَاعًا .

(١) أذعر : اسم تفضيل من ذعر بمعنى نفر .

(٢) كذا بالأصل ، والمتعيف : الكاره ، وأخشى أن تكون : « المتغيف » ، من تغيف عن الأمر : بمعنى نكل عنه .

(٣) في الكشف ٧١/٣ : « وقالوا : العفو مندوب إليه ، ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه ، وذلك إذا احتيج إلى كفاية زيادة البغي وقطع مادة الأذى . وعن النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل عليه ، وهو أن زينب أسمعته عائشة بحضرته ، وكان ينهاها فلا تنتهي ، فقال لعائشة : دونك فانتصري » .

(٤) الآية ٤١ من سورة الشورى ، وفي الكشف ٣٩٣/١ - ٣٩٤ : « ... وقيل : ضاف رجل قوماً فلم يطعموه فأصبح شاكياً ، فعوتب على الشكاية فنزلت الآية : « ولَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » ، وقيل : هو أن يبدأ بالشتيمة فيردّ على الشاتم » .

(٥) هو عمرو بن هشام المخزومي ، كان يكنى في الجاهلية أبا الحكم فكناه النبي صلى الله عليه وسلم أبا جهل فلزمته . وتأتي ترجمته بعد .

(٦) أبو بكر بن أبي قحافة : عبدالله بن عثمان بن عامر التيمي الخليفة الأول المتوفى سنة ١٣ هـ - عين ٦٣ سنة . المعارف ٨٣ - ٨٦ .

وسهل على أن أقول : لم يكن في الأولين والآخرين مثلهما ، ولا يكون إلى يوم القيامة من يعشيهما اصطناعاً للناس ، وجلماً عن الجهال ، وقياماً بالثواب والعقاب ، وبذلاً لقنية المال ، ولكل دُخْرٍ من الجواهر والعقد ؛ وأنهما بلغا في المجد الذروة السماء ، وأحرزا في كل فضل وعلم قصب السبق ، وأن أهل الأرض داثوا لهما ، وأن النقص لم يشنهما بوجه من الوجوه ، وأن العجز لم يعتريهما في حال من بسبب ثوب لعله أخذه ، أو درهم ثنى عليه كفه ، أو حاجة خيسية قضيت له ؛ تبلغ به قلة الدين وسوء النظر فيما يتعقب بالتقبيح والتحسين أنه يمدح واحداً مقروفاً بالزندقة والكفر ، ويُقرظ آخر معروفاً بالإلحاد والسُحف ، ويصف بالجود من كان أبخل من كلب على عقى صبي ويدعى العقل لمن كان أحمق من دُغَة^(١) ؛ ومن أظلم ممن يصف السفية بالحصافة ، واللثيم بالكرم ، والمتعجرف بالأناة ، والعاجز بالكفاية ، والناقص بالزيادة ، والمتأخر بالسبق ، والعنيف بالرفق ، والبخل بالسخاء ، والوضيع بالعلاء ، والوقاح بالحياء ، والجبان بالغناء ؟

فلا يكون حينئذ لقولى قابلاً ، ولا لحكمي ملتزماً ، ولا لنصبي مرجوعاً ، ولا لسعبي نُجَح ، ولا لصوابي مُختار ، ولا لحداثي مستمع ؛ وفي الجملة لا يكون لدعواي مُصدّق .

ولعمري لو انقلبت عن ابن عباد - بعد قصدي له من مدينة السلام وإناختي بفنائه مع شدة العُدم والإنفاض^(٢) ، والحاجة المزعجة عن الوطن ، وصفر الكف عما يُصان به الوجه ؛ وبعد ترددي إلى يابه في غمار^(٣) الغادين والرائحين ، والطامعين الراجين ، وصبري على ما كلفني نسخته حتى نشبت به تسعة أشهر خدمةً وتقرباً ، وطلباً للجدوى منه ، والجاه عنده ، مع الضرع والتملق - ببعض ما فارقت من أجله الأعزة ، وهجرت بسببه الإخوان ، وطويت له المهامة والبلاد ، وعلى جزء مما كان الطمع يُدندن حوله ، والنفس تحلم به ، والأمل يطمئن إليه ، والناس يعذرونه ويحققونه^(٤) ، لكنت لأحسانه من الشاكرين وإساءته من الساترين ، وعند ذكره بالخير

(١) دُغَة : اسم رجل كان أحمق ، ولقب معاوية بنت مغنج (أو معنج) العجلية وكانت تحمق أيضاً ، فكان يقال : « أحمق من دُغَة » ، وللمثل قصة تجدها في أمثال الضبي ١٠٢ والمعارف ٣٠٤ والاقتضاب ١٥٠ ، واخبار الحمقى والمغفلين ٤١ ، ومجمع الأمثال ١٩٣/١ ، ١٤٧ وتاج العروس ١٢٨/١ ، واللسان (دغا) .

(٢) الإنفاض : ذهاب المال وفناء الزاد .

(٣) غمار ، بفتح الغين وبالضم : جماعة الناس ؛ يقال : دخلت في غمار الناس أي في جمعهم المتكاثف .

(٤) يحققونه : يصدقونه .

من المساعدين المصدقين ، وعند قرفه بالسوء من الذابين الممتعضين . والشاعر يقول :

« من يُعطِ أثمانَ المحامد يُحمد » .

والآخر يقول :

« والحمد لا يُشترى إلا بأثمان » .

سرعة التحول

وكان ابن عباد شديد السفه عجيب المناقضة ، سريع التحول من هيئة إلى هيئة ، مستقبلا للأحرار بكل فرية وفاحشة ؛ كان يقول للإنسان الذي قد قدم عليه من أهل العلم : تقدّم يا أخى ! وتكلّم ، واستأنس ، واقترح ، وانبسط ، ولا تُرع ، واحسبني فى جوف مرقعة ، ولا يهولك هذا الحشم والخدم ، وهذه الغاشية والحاشية ، وهذه المرتبة والمسطبة وهذا الطاق والرواق ، وهذه المجالس والطنافس ؛ فإن سلطان العلم فوق سلطان الولاية ، وشرف العلم أعلى من شرف المال ، فليفرخ روعك ولينعم باللك ، وقل ما شئت ، وانصر ما أردت ، فليست تجد عندنا إلا الإنصاف والإسعاف والإتحاف والإطراف ، والمقاربة والمواهة ، والموانسة والمقابلة ، وعلى هذا التنزيل ، ومن كان يحفظ ما يهذى به فى هذا وغيره ؟

حتى إذا استقى ما عند ذلك الإنسان بهذه الزخارف والجميل ، وسأل الرجل معه فى خدوره على مذهب الثقة ، وركب فى مناظرته ، وردعه وحاجه ، وراجة وضاجعه وشاكعة^(١) ووضع يده على النكتة الفاصلة ، والأمر القاطع تنمر له ، وتنغر^(٢) عليه ، واستحصد غضبا وتلظى لها ، وقال بعد وثبتين أو ثلاث : يا غلام ! خذ بيد هذا الكلب إلى الحبس ، وضعه فيه بعد أن تصب على كاهله وظهره وجنبه خمسمئة عصا ؛ فإنه معاند ضد ، يحتاج إلى أن يشد بالقيد^(٣) ، ساقط هابط ، كلب نباح ، متعجرف وقاح ؛ أعجبه صبرى ، وغره حلمى ، ولقد أخلف ظنى ، وعدت على

(١) شاكعه : غاضبه ، وفى الأصل : « ساكعه » : ضلله .

(٢) تنغر عليه : غلا عليه من الغضب .

(٣) القيد : السير الذى يقيد من الجلد .

نفسى من أجله بالتوبيخ ، وما خلق الله العصا باطلا ، ولا ترك خلقة هاملا .
فيقام ذلك البائس على هذه الحال التى تسمع ، على أن مسموعك دون مشاهدتك
لو شاهدت ، ومن لم يحضر ذلك المجلس لم ير منظراً رفيعاً ورجلاً رفيعاً ، قد عامل
بما وصفت الحريرى غلام ابن طرارة^(١) والجامدى^(٢) الشاهر الوارد عليه من البصرة ،
وأبا زيد الكلابى وغيرهم .

وكان أبو الفضل أعنى ابن العميد إذا رآه يقول : أحسب^(٣) أن عينيه ركبنا من زئبق
وعنقه عمل بلولب .

وصدق ، لأنه كان طريف التنى والتلوى شديد التفكك والتفتل كثير التعوج
والتعوج ، فى شكل المرأة المومسة والفاجرة الماجنة ، والمخنت الأشمط .
وسمعت أبا الفضل الهروى^(٤) يقول له يوماً : لو وُضِعَ فى خزانة الكتب للوقوف
شئ من الطب لكان ذلك باباً من المنافع الحاضرة والفوائد المجلة والخير العام .

احتقار !

وطلع على يوماً فى داره وأنا قاعد فى كسر^(٥) رواق أكتب له شيئاً قد كادنى به ،
فلما أبصرته قمت قائماً ، فصاح بحلق مشقوق : اقعد ! فالوراقون أحس من أن
يقوموا لنا ، فهممت بكلام ، فقال لى الزعفرانى الشاعر : احتمل فإن الرجل رقيق ،
فغلب على الضحك ، واستحال الغيظ تعجباً من خفته وسخفه ، لأنه قال هذا وقد
لوى شدقه وشمخ أنفه وأمال عنقه واعترض فى انتصابه وانتصب فى اعتراضه ، وخرج

(١) هو المعافى بن زكريا بن يحيى النهراونى الجيرى المعروف بابن طرارة - علامة شهير وله مؤلفات ، ولد
سنة ٣٠٥ أو ٣٠٣ وتوفى سنة ٣٩٠ . ترجمته فى الإرشاد ١٦٢/٧ - ١٦٤ والفهرست ٣٢٨ - ٣٢٩ والبداية
٣٢٨/١١ .

(٢) أبو عبدالله محمد بن حامد الجامدى (نسبة إلى جامدة من أعمال واسط) ذكره الثعالبى فى اليتيمة (الباب
٦ القسم ٢ الورقة ٧٣ نسخة أحمد الثالث) وهو من شعراء العراق ، وكان من جلاس صاحب وعنه نقل
الثعالبى (١٧٢/٣ ، ١٧٣ مصر) فقرأ وصف فيها مجلس صاحب وخُزوزه . وقد ذكره ابن شاعر فى عيون
التواريخ وقال لم تتحقق وفاته ، وكان فى حدود الأربعمئة ، وانظر « جامدة » فى معجم البلدان .

(٣) فى الأصل : « احسبوا » ، تصحيف . والضمير فى « رآه » لابن عباد .

(٤) كان أبو الفضل الهروى راصداً بحضور أبى جعفر الخازن فى المرصد الذى بناه أبو الفضل ابن العميد
بالرى ، وكان رصدهما سنة ٣٤٨ هـ . ذكره البيرونى فى « تحديد نهايات الأماكن » ٤٥ .
- وله تصانيف زادت على ١٥٠ مصنفاً . انظر شرح الاحياء ٥/٢ ، وأصول الدين للبغداد ٣١٠ ، إشارات المرام
٢٤ .

(٥) الكسر : جانب البيت .

فِي مَسْكَ^(١) مَجْنُونٍ قَدْ أَفْلَتَ مِنْ دَيْرِ حُنُونٍ^(٢) . وَالْوَصْفُ لَا يَأْتِي عَلَى كُنْهٍ هَذِهِ الْحَالِ
لَأَنَّ حَقَائِقَهَا لَا تَدْرِكُ إِلَّا بِاللَّحْظِ ، وَلَا يُوْتَى عَلَيْهَا بِاللَّفْظِ .
أَفْهَذَا كُلُّهُ مِنْ شِمَائِلِ الرُّؤُسَاءِ وَكَلَامِ الْكُبَرَاءِ وَسِيرَةِ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالرِّزَانَةِ ؟
لَا ، وَاللَّهِ ! وَتُرْبَاءً^(٣) لِمَنْ يَقُولُ غَيْرَ هَذَا .

لِقَاء

فَأَمَّا حَدِيثِي مَعَهُ ، فَإِنِّي وَصَلْتُ إِلَيْهِ قَالَ لِي : أَبُو مَنْ ؟
قُلْتُ : أَبُو حَيَّانَ .
قَالَ : بَلَّغْنِي أَنْكَ تَتَأَدَّبُ .
قُلْتُ : تَأَدَّبَ أَهْلُ الزَّمَانِ .
قَالَ : فَقُلْ لِي ، أَبُو حَيَّانَ يَنْصَرِفُ أَوْ لَا ؟
قُلْتُ : إِنْ قَبْلَهُ مَوْلَانَا لَا يَنْصَرِفُ . فَلَمَّا سَمِعَ هَذَا تَنَمَّرَ وَكَأَنَّهُ لَمْ يُعْجِبْهُ ، وَأَقْبَلَ
عَلَى وَاحِدٍ إِلَى جَانِبِهِ فَقَالَ لَهُ بِالْفَارِسِيَةِ سَفْهًا ، عَلَى مَا فُسِّرَ لِي .
ثُمَّ قَالَ لِي : الزَّمْ دَارَنَا ، وَانْسَخْ لَنَا هَذَا الْكِتَابَ .
فَقُلْتُ : أَنَا سَامِعٌ مُطِيعٌ .
ثُمَّ قُلْتُ فِي الدَّارِ لِبَعْضِ النَّاسِ مُسْتَرِيسًا : إِنَّمَا تَوَجَّهْتُ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى هَذَا
الْبَابِ ، وَزَاخَمْتُ مُتَتَجِّعِي هَذَا الرَّبْعِ ، لِأَتَخَلَّصَ مِنْ خَرَزَةِ الشُّؤْمِ ؛ فَإِنَّ الْوِرَاقَةَ لَمْ
تَكُنْ بِيَعْدَادِ كَاسِدَةٍ .
فَنُفِئَ إِلَيْهِ هَذَا أَوْ بَعْضُهُ ، أَوْ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ ، فَزَادَهُ تَنَكُّرًا ؛ وَكَانَ الرَّجُلُ خَفِيفَ
الدِّمَاغِ ، لَا يَعْرِفُ الْحِلْمَ إِلَّا بِالْأَسْمِ ؛ وَالسُّؤْدُدُ لَا يَكُونُ وَلَا يَكْمُلُ وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ
يُنْسَى جَمِيعُ مَا يُسْمَعُ ، وَيَتَأَوَّلَ مَا يُكْرَهُ ، وَيُوْخَذُ بِالْأَسَدِّ فَالْأَسَدِّ .
وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ السَّيرَافِيُّ : الْحِلْمُ مِشَارِكٌ لِمَعْنَى الْحُلْمِ ؛ فَصَاحِبُ الْحِلْمِ هُوَ الَّذِي
يَعْرُضُ عَمَّا يَرَى وَيَسْمَعُ كَالْحَالِمِ ، وَاللَّفْظُ إِذَا وَاحَى اللَّفْظَ كَانَ مَعْنَاهُ قَرِيبًا مِنْ مَعْنَاهُ ،
وَهَذَا الْخُلُقُ وَالْخُلُقُ ، وَالْعَدْلُ وَالْعَدْلُ ، وَسِتُّ الرَّجُلِ ، وَسِتُّ الْمَرْأَةِ .

(١) الْمَسْكُ . بِالْفَتْحِ : الْجِلْدُ .

(٢) لَمْ أَجِدْ لَهُ ذِكْرًا فِي الْمِظَانِ .

(٣) كَلِمَةٌ تَقَالُ فِي الدَّعَاءِ ، أَيْ لَا أَصَابُ مِنْ يَقُولُ هَذَا خَيْرًا .

وقال لى يوماً آخر ، أعنى ابنَ عبَّاد ؛ يا أبا حَيَّان ! من كَنَّاكَ أبا حَيَّان ؟
قلتُ : أَجَلُ النَّاسِ فى زَمَانِهِ ، وأَكْبَرُهُمْ فى وَقْتِهِ .

قال : من هو ويلك ؟

قلت : أنت .

قال : ومتى كان ذلك ؟

قلتُ : حين قلت لى : يا أبا حَيَّان .

فَأَضْرَبَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَأَخَذَ فى غَيْرِهِ عَلَى كَرَاهَةٍ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ .
وقال لى يوماً آخر ، وهو قائم فى صَحْنِ دَارِهِ ، وَالْجَمَاعَةُ قِيَامٌ ؛ مِنْهُمْ الزَّعْفَرَانِيُّ ،
وكان شيخاً كَثِيرَ الْفَضْلِ ، جَيِّدَ الشَّعْرِ ، مُتَمِّعَ الْحَدِيثِ ؛ وَالنَّمِيمَى الْمَعْرُوفَ بِسَطْلِ
وكان من مِصْرَ ؛ وَالْأَقْطَعَ ، وَصَالِحَ الْوَرَّاقِ ، وابنِ ثَابِتٍ ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْكُتَّابِ
وَالنُّدَمَاءِ : يا أبا حَيَّان ! هل تعرف فيمن تقدَّم مَنْ يُكْنَى بهذه الكُنية ؟
قلت : نعم ، مِنْ أَقْرَبِ ذَلِكَ أَبُو حَيَّانِ الدَّارِمَى .

حدثنا أبو بكر القاضى محمد بن محمد الدقاق ، قال : حدثنا ابن الأنبارى ،
قال : حدثنا ابن ناصح ، قال : دخل أبو الهذيل العلاف^(١) عَلَى الْوَاتِقِ^(٢) ، فقال
له الْوَاتِقُ : لمن تعرف هذا الشعر :

سَبَاكَ مِنْ هَاشِمٍ سَلِيلُ	ليسَ إِلَى وَضْلِهِ سَبِيلُ
مَنْ يَتَعَاطَى الصِّفَاتِ فِيهِ	فَالْقَوْلُ فى وَصْفِهِ فُضُولُ
لِلْحُسْنِ فى وَجْهِهِ هِلَالُ	لَأَعْيُنِ الْخَلْقِ مَا يَزُولُ
وَطُرَّةٌ لَا يَزَالُ فِيهَا	لِنُورِ بَذْرِ الدُّجَى مَقِيلُ
مَا اخْتَالَ فى صَحْنِ قَصْرِ أَوْسٍ	إِلَّا تَسْجَى لَهُ قَتِيلُ
فَإِنْ يَقِفْ فَالْعَيُونَ نُصَبُ	وَإِنْ تَوَلَّى فَهِنَّ حَوْلُ

(١) محمد بن الهذيل بن عبدالله بن مكحول العبدى البصرى المتكلم المعتزلى المتوفى سنة ٢٢٦ أو ٢٢٧ هـ .
تاريخ بغداد ٣/ ٣٣٦ ، الوفيات ١/ ٦٠٧ - ٦٠٨ .

(٢) أبو جعفر هارون بن المعتصم المتوفى سنة ٢٣٢ هـ . العقد الفريد ٥/ ١٢١ - ١٢٢ ، تاريخ الخلفاء
للسيوطى ١٣٥ ، حياة الحيوان ١/ ٧٢ - ٧٣ .

فقال أبو الهذيل : يا أمير المؤمنين ! هذا لرجلٍ من أهل البصرة يُعرف بأبي حيان
الدرامي ، وكان يقول بإمامة المفضّل^(١) . وله من كلمة يقول فيها :
أفضّله والله قدّمه على صحابته بعد النبي المكرم
بلا بغضة - والله - مني لغيره ولكنّه أولاهم بالتقدّم
وجماعة من أصحابنا قالوا : أنشدنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي^(٢)
لأبي حيان البصري :

يا صاحبي دَعَا الملامَةَ واقصُرا تَرَكُ الهوى يا صاحبي خساره
كم لمتُ قلبي كي يُفَيّقَ فقال لي : لَجْتُ يمينُ مالها كفاره
أنا لا أُفَيّقُ ولا أُفَتّر لحظةً إن أنت لم تعشق فأنت حجاره
الحبّ أوّل ما يكون بنظرةٍ وكذا الحريق بداؤه بِشَراره
يا من أحبّ ولا أُسمي باسمها إياك أعني واسمعي يا جاره^(٣)
فلما رويتُ الإسناد ، وأنشدت الشعر ، وريقى بَليل ، ولساني طلق ، ووجهي
متهلّل ، وقد تكلفت ذلك وأنا في بقيّة من غرر الشباب وبعض ريعانه ، فملأتُ الدار
صياحاً بالراوية والقافية ، فحين انتهيت أنكرتُ طرفه ، وعلمت سوء موقع ما رويت
عنده .

قال : ومن تعرف أيضاً ؟

قلت : روى الصّولي - فيما حدثنا عنه المرزباني : أن معاوية^(٤) لما حضر أنشد
يزيد عند رأسه متمثلاً :

لو أن حيّاً نجّا لفات أبو حيان لا عاجز ولا وكل
الحول القلب الأريب وهل تدفع صرف المنية الحيل

(١) يعني أنه يجيز خلافة أبي بكر ، مع اعتقاده أن علي بن أبي طالب أفضل من أبي بكر .
(٢) توفي سنة ٢٧٦ هـ . وترجمته في تاريخ بغداد ٤٢٥/١٠ - ٤٢٧ .
(٣) نسب الصفدي في الوافي (أحمد الثالث ٢٩٦٠ ج ٢٢ الورقة ١٤ ب ١٥) هذه الأبيات لأبي حيان
التوحيدي . وهو خطأ ضلل بعض المحدثين .

(١) توفي سنة ٦٠ هـ عن ٨٠ أو ٨٦ سنة ، ومدة خلافته ١٩ سنة . انظر الوافي ١٧١/٢٣ - ٧٤ ب (شهيد علي
١٩٧١) ، والحواليات (سنة ٦٠) .

قال الصولى : هذا من المعمرين المعقلين .

وانتهى الحديث من غير بشاشة منه عليه ، ولا هزة ولا أريحية ، بل على اكفهرار الوجه ، ونبو الطرف ، وقلة التقبل . وجرت أشياء آخر ، وكان عقبها أننى فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة راجعاً إلى مدينة السلام ، بغير زاد ولا راحلة ، ولم يعطنى فى مدة ثلاث سنين درهماً واحداً ، ولا ما قيمته درهم واحد . فاحمل هذا على ما أردت .

ولما نالنى منه هذا الجرمان الذى قصدنى به ، وأحفظنى عليه ، وجعلنى من بين جميع غاشية ورده فرداً ، أخذت أتلافى ذلك بصدق القول عنه ، فى سوء الشاء عليه ، والبادى أظلم ، وللأمور أسباب ، وللأسباب أسرار ، والغيب لا يُطلع عليه ، ولا قارع لبابه .

وسألت العمارى عنه فقال : الرجل ذو خلة^(١) ، ولقد سأله ليلة شيخ من خراسان فى الموسم عن قوله عز وجل : « وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَا فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ »^(٢) ما مرتبة الصلاح المذكور فى الثانى من النبوة الثابتة فى الدنيا ؛ فأضرب عن المسألة ودافع بصدرها ، ولم يُجر كلمة فيها .

خصال العماد

فقال : بأنه لله عدو ، وللأحرار مهين ، ولأهل الفضل حاسد ، وللعمامة مُحِب ، وللخاصة مُبغض .

فأما عداوته لله فلقلة دينه .

وأما إهانته للأحرار فهى شهيرة كهذا النهار .

وأما حسده لأهل الفضل فجرب ذلك بكلمة تبديها .

وأما حبه للعمامة فبمناظرته لهم وإقباله عليهم .

وأما بغضه للخاصة فلاذلاله لهم وإقصائه إياهم .

* * *

(١) الخلة ، بالفتح : الخلل والنقص فى الرأى .

(٢) سورة البقرة ١٣٠ .

ابن العميد

فأما ابن العميد أبو الفضل ، فإنه كان باباً آخر ، وطائفة أخرى ، وكان فضله من جنس ليس لابن عباد فيه نصيب ، ونقصه من ضرب لم يكن له فيه ضريب ، كان يظهر حليماً تحته سفة ، ويدعى علماً هو به جاهل ، ويرى أنه شجاع وهو « أجبن من المنزوف ضرطاً » ، وكان يدعى المنطق وهو لا يفى بشيء منه ، ولم يقرأ حرفاً على أحد ، ويتشبع بالهندسة وهو منها بعيد ، ولم يكن معه من صناعة الكتابة الأصل وهو الحساب ، وكان أجهل الناس بالدخل والخرج ، ولقد بقي مابقى في أيامه فما قعد يوماً في الديوان ناظراً في عمل ، أو فاصلاً لحكم .

شاعر يتملق

ولقد شاهدت في مجلسه شاعراً من الكرخ يعرف بممويه ، وكان جيد اللسان ، يقول له :

أيها الرئيس ! قد لزمْتُ فناءك لزوم الظل ، وذلت لك ذل النعل ، وخدمت أُملى
فيك خدمة ناصح لنفسى فيما التمسْت من الصلة والجائزة ، ولك فيما أوفدت عليك
من الثناء والمدحة ، وما بى - والله - أَلَم الحرمان ، ولكن شماتة قوم صدقونى
فاتهمتهم ، ونصّحونى فاغتَشِشتهم ؛ بأى وجه ألقاهم ، وبأية حُجّة أدافعهم ؟ وهل
حصلت من مديح بعد مديح ، ومن نظم بعد نثر ، ومن رواح بعد بكور ، ومن
غسل أطمار وإخلاق سربال ، ومن تأفف لازم ، وضجر دائم إلا على ندم مؤلم
ويأس مُسقم ؟ فإن كان للنجاح علامة فما هى ، وأين هى ؟ قد - والله - طالت غيبتى
عن أهلى ، وعن السائلين عن حالى ، فى هذه المعاملة التى عاقبتها الخيبة
بعد المظل ، والحرمان بعد الإطماع ، والتحسر بعد الوعد ؛ وقد بسط الله كفك ،
وجعل الخير والجود والكرم جارية فى أسرارها ونابغة من جوانبها . ففيض أيها الرئيس
فإنما أنت بحر ، واسكُب فإنما أنت سحاب ، واطلُع فإنما أنت شمس ، واتقِد فإنما
أنت نجم ، ومُر فإنما أنت مطاع ، وهب فإنما أنت واجد ، واهتز فإنما أنت ماجد ،
وصِل فإنك جواد .

والله ما يَقْعُد بك خورٌ في الطَّبَاع ، ولا نَغْلٌ^(١) في العِرْق ، ولا قَذَح في الأصل .
 المَخُّ قَصِيد^(٢) ، والحَبْلُ حَصِيد^(٣) ، والزُّنْدُ وارٍ ، والفَرَوَةُ خَضِرَاءُ^(٤) ، والْعُودُ مُورِق ،
 والمال جُم ، والأمر أجم ، والسلك دقيق ، والنسيج صَفِيق ، والطراز أُنِيق ؛ وما هو
 إلا أن تقول حتى تُسَمِع ، وما هو إلا أن تأمر حتى يُمَثَّل ، لأن أمرَكَ على الفور ،
 وحكمك ماضٍ بالعدل والجور ؛ فما الذي يثني عَزمَكَ عن الكرم ؟ ويفلُّ حَدَّكَ في
 الجود ؟ ويُقَصِّرُ باعَكَ عن المَجْد ؟ ويسُدُّ أذُنَكَ عن أحاديث غد ؟ إن الذين تَكْرَهُ لهم
 ما هُجُوا به كانوا مثلك ، وإن الذين تحسُدُهم على ما مَدَحُوا به كانوا من طينتِكَ ؛
 فزاحم بِمِنْكَبِكَ أَضْحَمَهُم سَناماً وزِدْ عَلَى مَنْ كان أكبرهم كاهِلاً ، وأَعْلَاهم
 يَفَاعاً^(٥) ، وأَسْطَعَهُم شُعاعاً ، وأَزْهَرَهُم ناراً ، وأكثرهم زواراً !

فلما بَهَرَهُ هذا الكلام الشَّهِيّ في ذلك المجلس البهّي شَدِيدَهُ وَعَلِيهِ^(٦) ولم يَدِرْ
 ما يقول ، وأَطْرَقَ هُنيهةً ، ثم قال :

هذا وقتٌ يَضِيقُ عن الإطالة منك في الاستِزادة^(٧) ، وعن الإطالة مني في
 المَعْدِرة ؛ فإذا تَوَاهَبْنَا في الحالِ ما قَدْ دُفَعْنَا إِلَيْهِ ، اسْتَأْنَفْنَا في الثَّانِي ما نَتَحامدُ
 عَلَيْهِ .

فقال الشاعر : أيها الرئيس ! هذه نُفَاةٌ صَدِرَ قد جَوَى منذُ سنة ، وَفَضْلَةٌ لسانٍ قد
 قَدَّمَ منذُ زمان ؛ وقد تَقَدَّمَ العمل ، والجزاء موقوف ، والرَّجاء عَليْل ، والأمل غادِر ،
 والحالُ بعرضِ سَوء ، والشامِت قد شَمَّرَ للتأنيب ، ولا صَبْرَ لِمَقِلٍ عَلَى مُدِلٍّ إلا على
 وجهٍ يُحْتَمَل ؛ فإن رأيتَ قَدِّمْتَ المتأخِّر ، وقربتَ الشَّاسِع ، وجعلتَ إجزاء العطية
 في تعجيلها ، وإكرام طالِبِها في تَسْهِيلِها ، فلا مانعَ إن لم يكن ذلك من سُدَّةِ جد ، أو
 تقاعُسِ جَد .

(١) النغل : الفساد في النسب .

(٢) مخ قصيد : سمين ، وهم يستعيرون السمن للجودة .

(٣) الحصيد : المحكم القوى .

(٤) الفروة : الجلدة ، واخضرار الفروة كناية عن الخصب وسعة العيش .

(٥) اليفاع : المرتفع .

(٦) شده : دهش . وعلة : تبرد وتحير .

(٧) الاستزادة : العتب .

فقال : يا هذا قد كرّرت العتب ، واجتررت الملام ، وما أستوجب هذا من أحد من خلق الله ؛ ولقد نافرت العميد بدون هذا حتى ثار من ذلك عجاج قاتم ، وانتهينا منه إلى قرى عاتم ؛ ولست ولي نعمتي فأحتملك ، ولا صنيعتي فأغضى عليك ؛ وإن بعض ما قرّرت في أذني لَمَّا ينقض مرة^(١) الحلم ، ويبدد شمل الصبر ؛ ولست ممن يطيش لأدنى سائح ، ويتطير لأول بارح ؛ والله ما دعوتك إليّ ، ولا أغريتك بي ، ولا سألتك تقريظي ، ولا أتعبتك في قصدي ؛ وإن الظلم منك ، وكذاك العتب منك ؛ وأنا على كلّ حال مالي ؟ فلا تجمع بين الظلم والتظلم . والجنابة والتجنى ، وخذ نفسك بالنزاهة والعفاف فإنهما لا يقفانك هذا الموقف ، ولا يعرضانك على هذا المجلس ، ورزق الله مُنتاب وغاد ، واطلب الغنى منك فإنه عندك أكثر منه عند من تظلمه وهو لم يظلم ، وتعاقبه وهو لم يُجرم .

فقال الرجل : ما كرّرت العتب حتى أكلت النوى المحرق في انتظار صلتك ، ولا اجتررت الملام حتى خائني صبري في توقع جائزتك ؛ والغنى إذا مَطَلَ ظلم ، والواجد إذا لوى أثم ، والجواد إذا منع ليم .

ولعمري ما دعوتني إليك ، ولا أغريتك بك بكتاب خصصتني ورببتني فيه ، ولا سألتني تقريظك ، ولا أبغيتني في قصدك برسول أرسلته إليّ ؛ ولكن لما جلست في صدر هذا الإيوان بأبهتك وعظمتك وكبريائك وجبروتك ؛ وقلت : لا يخاطبني أحد إلا بالرياسة .

لا فضل في

وقد زجرت ووعظت ، وقلت وراسلت ، وكاتببت وشافهت ، وعاتببت وخاطبت ، وشددت وهولت ، ورغبت وأوجعت ؛ وضربت الأمثال ، وذكر السير ، وخوفت وحذرت ، فما انتفعت ؛ وجرائمه تكثر ، وجرائره تغلظ ؛ ولا فضل فيّ ، ولا احتمال معي ، ولا بقية للإغضاء عندي .

وغرضي في هذه المخاطبة ، ومغزاي من هذه الشكوى والمباينة ، أن يشهد القاضي أنني بريء منه ، قاطع له ، عادل عنه ، غير راض بقوله ولا فعله ، نازع

(١) المرة بالكسر : شدة الفتل ، ومرة الحبل طاقته ، ونقضه : فسخه ؛ والكلام على التجوز .

ما أَلْبَسْتُهُ مِنْ بُنُوءٍ ، مُطَرِّحٌ لَهُ دِينٌ وَدُنْيَا ؛ لَيْسَ مِنِّي وَلَا إِلَيَّ ، قَدْ تَبَرَّأْتُ مِنْهُ وَصَرَمْتُهُ ،
وَوَكَّلْتُهُ إِلَى اخْتِيَارِهِ ، وَرَفَعْتُ عَنْهُ يَدَيَّ ، وَأَسَلَمْتُهُ إِلَى اللَّهِ لِيَأْخُذَهُ بِحَقِّي ، وَيَقْبَلَ بِهِ
دُعَائِي ، وَلَا يَحْفَظْ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَيَّ .

اللَّهُمَّ اسْمِعْ وَاشْهَدْ ، وَكُنْ حَسِيبَ الظَّالِمِ ، وَاحْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، يَا خَيْرَ حَاكِمٍ .
وَهَذِهِ شَهَادَةٌ لِي عِنْدَ الْقَاضِي يَحْفَظُهَا كَمَا يَحْفَظُ إِلَيْهِ مِنْ حُقُوقِ عَمَلِهِ ، فَإِنِّي مُطَالِبُهُ
بِهَا « يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » وَكَفَى بِاللَّهِ الْعَلِيِّ شَهِيداً .

وهذه - أبقاك الله - رسالة تدلّ على قُرحة دامية ، وعين باكية هامية ، ونفس قد
ولّيت عمّا حلّ بها ؛ وإن غلاماً يُحَوِّجُ أباه إلى مثل هذه البراءة والشكوى منه
والتألم ، لغلام سوء ، والله أكرم من أن يجبره في الدنيا ، وأن يسعده في الآخرة .

العالم والجاهل

لِلطَّالِبِ الْمُنْجِحِ لَذَّةُ الْإِدْرَاكِ ، وَلِلطَّالِبِ الْمَحْرُومِ لَذَّةُ الْيَأْسِ .
وَمَنْ صَحِبَ السُّلْطَانَ فَلْيَصْبِرْ عَلَى قَسْوَتِهِ كَصَبْرِ الْغَوَّاصِ عَلَى مَلُوحَةِ مَاءِ الْبَحْرِ .
وَالْعَالِمُ يَعْرِفُ الْجَاهِلَ لِأَنَّهُ كَانَ مَرَّةً جَاهِلاً ، وَالْجَاهِلُ لَا يَعْرِفُ الْعَالِمَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ
مَرَّةً عَالِماً .

وَمَنْ جَعَلَ الْحَمْدَ خَاتِماً لِلنِّعْمَةِ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحاً لِلْمَزِيدِ .
لَوْ تَمَيَّزَتِ الْأَشْيَاءُ لَكَانَ الْكَذِبُ مَعَ الْجُبْنِ ، وَالصُّدُقُ مَعَ الشُّجَاعَةِ ، وَالرَّاحَةُ مَعَ
الْيَأْسِ ، وَالتَّعَبُ مَعَ الطَّمَعِ ، وَالْحَرَمَانُ مَعَ الْحَرَصِ ، وَالذُّلُّ مَعَ الدِّينِ .
وَمَالُ الْمَيِّتِ يُغْزَى وَرِثَتُهُ عَنْهُ .

كَيْفَ تُرِيدُ مِنْ صَدِيقِكَ خُلُقاً وَاحِداً وَهُوَ ذُو أَرْبَعِ طِبَائِعٍ .
تُرْقِعُ خَرَقَ الدُّنْيَا وَيَتَّسِعُ ، وَتَشْعِبُهَا وَتَنْصَدِّعُ ، وَتَجْمَعُ مِنْهَا مَا لَا يَجْتَمِعُ .
وَكَانَ مَلِياً بِهَذَا النَّمَطِ وَيُفْرِغُ فِي قَالِبِهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ إِلَّا لَقْعَةٌ^(١) اللِّسَانِ ،
وَصَدَى الصَّوْتِ ، وَتَقْطِيعُ اللَّفْظِ . فَأَمَّا التَّحَلُّي وَالْعَمَلُ فَكَانَ مِنْهُمَا عَلَى بُعْدٍ ؛
وَالْعَقْلُ مَتَى لَمْ يُثْمَرَ كَرَمًا فَهُوَ وَبَالٌ ، وَالْحِكْمَةُ مَتَى لَمْ تُورِثْ عَمَلاً فَهِيَ خَبَالٌ ؛
وَالْكَرَمُ مَا قَالَهُ الْأَعْرَابِيُّ حِينَ سُئِلَ عَنْهُ فَإِنَّهُ قَالَ :

(١) لقع : رمى ؛ ويقال للرجل الذي يرمى بالكلام ولا شيء عنده وراء الكلام . لقعة . وفي الأصل « لعقة » .

أما الكرم في اللقاء فالبشاشة ، وأما في العشرة فالهشاشة ، وأما في الأخلاق فالسماحة ، وأما في الأفعال فالنصاحة ، وأما في الغنى فالمشاركة ، وأما في الفقر فالمواساة .

قلت لأبي السلم نجبة بن علي :
أأبن عباد أحب إليك أم ابن العميد ؟

قال : ما فيهما حبيب ، علي أني برقاعة هذا أشد انتفاعاً مني بعقل ذاك ؛ هذا يغضب إذا ترفعت عن عطائه ، وقبضت يدك عن قبول بره ، ومشيت ناكباً عن بابه وقصده ؛ وذلك كان يحقد إذا رجوته وتعرضت له ، ويغضب إذا أثبت عليه وطمعت فيه ؛ وهذا يكذب متماجناً ، وذاك يصدق مع الدمثة ويغيظ ؛ وهذا يفعل الخير وإن قاله وأفشاه وتبجح به وسحب ذيله عليه .

الأهوج

وحديث ابن عباد أنتن من الصنان ، وأثقل من الصدام^(١) ، وأبغض من القوض في الطعام^(٢) ، وأوحش من أضغاث الأحلام . يتشاحي^(٣) كأنه صبي مترعرع ، يظن أن الأرض لم تقل غيره ، وأن السماء لم تظل سواه ، أما سمعته يشتم في هذه الأيام إنساناً فقال :

لعن الله هذا الأهوج الأعوج الأفجج الحفلج^(٤) ، الذي إذا قفام لجلج^(٥) وإذا مشى تفحج^(٦) ، وإن تكلم تلجلج ، وإن تنعم تمجمج^(٧) ، وإن مشى تدحرج ، وإن عدا تفجفج^(٨) .

(١) الصدام : ثقل يأخذ الإنسان في رأسه .

(٢) القوض : الحصى والتراب يقع في الطعام ، ثم بين اضرار الأكل .

(٣) يتشاحي : يفتح فاه .

(٤) الأفجج : المعوج الرجلين ، والحفلج كذلك : وفي الأصل : « الخفلج » بالخاء المعجمة .

(٥) لجلج : تردد .

(٦) تفحج : تفرقت رجلاه وساقاه عند المشي .

(٧) تمجمج : استرخى وترهل .

(٨) تفجفج : باعد بين رجليه عند المشي .

قال : فهل سمعت بكلام أنبي عن القلب وأسمج من هذا ؟ نعوذ بالله من العُجمة المخلوطة بالتعريب ، ومن العربية المخلوطة بالتعجيم .

ولو أن هذا النقص لم يَدُلْ إلا على اللَّفْظ الذي معدُّه اللسان لكان العُذر أقرب ، لكنه كاشفٌ لِعَوْرَةِ العقل ، هاتكُ لِسَرِ المعرفة ، وَمَنْ اسْتَدْرَجَهُ اللهُ إلى هذه الحال فقد خذله وإن ظنَّ أنه منصور ، وأفقره وإن حسبَ أنه مُثَرِّ .

وسمعتَه يقول لِكاتبٍ بينَ يديه ، وقد كُتِبَ : « مِنْ إِسْمَاعِيلِ بْنِ عَبَادٍ » ، وكانت العين من إِسْمَاعِيلِ قد تطلَّست ، ولم يكن لها بياض المشقين تتعجرف للكاتب والقلم .

فقال : يا هذا : عيني هكذا ينبغي أن تُكتب بالله ؟ أنت أعمى ؟ أما ترى عيني ؟ انظر إليها حسناً ! أهي محلوسة ، أهي مملوسة ، أهي مطلوسة ، أهي ممروسة ؟ أهي ممسوحة ، أهي منزوحة ، أهي مسطوحة ؟ وما كاد يسكت .

وهل هذا إلا رقاعةٌ وجهلٌ وكلام رُقعاء المعلمين والمخشئين ؟!

وقال يوماً :

ها هنا أشياء لا حقيقة لها .

منها : إمام الرافضة ، والاستطاعة مع الفعل ، وفيما كفى فيه كذا وكذا ، وفيما تكلف من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا ، ووصل أبا سعيد السيرافي بكذا وكذا ، وهب لأبي سليمان المنطقي كذا وكذا ؛ فيزوي وجهه ويتكره حديثه ، وينجذب إلى شيء آخر ليس مما شرع فيه ، ولا مما حُرِّك له . ثم يقول : أعلم أنك إنما انتجعتَه من العراق ، فاقراً على رسالتك التي توسلت إليه بها ، وأسهبتم مقرظاً له فيها ، فأتمانع فيأمر ويشدد ، فأقرؤها فيتقد ويدهل .

وأنا أكتبها لك ها هناك لتكون زيادةً في الفائدة .

بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم هنيء لي من أمري رشداً ، ووفّقني لمرضاتك أبداً ، ولا تجعل الحرمان عليّ رصداً .

أقول وخيرُ القول ما انعقد بالصواب ، وخيرُ الصواب ما تضمّن الصدق ، وخيرُ الصدق ما جلب النفع ، وخيرُ النفع ما تعلق بالمزيد ، وخيرُ المزيد ما بدأ عن شكر ، وخيرُ الشكر ما بدأ عن إخلاص ، وخيرُ الإخلاص ما نشأ عن إيقان ، وخيرُ الإيقان ما صدر عن توفيق .

لما رأيت شبابي هَرَمًا بالفقر ، وفقرى غِنًى بالقناعة ، وقناعتي عجزاً عند
التحصيل ، عدلتُ إلى الزَّمان أطلب إليه مكانى فيه ، وموضعى منه ، يريى طرفه
عنى نابياً ، وعنانه عن رضاي مثنياً ، وجانيه فى مُرادى خشناً ، وإنفاقى فى أسبابه
سئناً ، والشامت بي على الحدَثان متمادياً ؛ طمعت فى السكوت تجلداً ، وانتحلتُ
القناعة رياضة ، وتألَّفت شاردَ حرصى متوقفاً ، وطويت منشورَ أمرى متزهاً ،
وجمعتُ شتيت رجائى سالياً ، وأدرعت الصبر مُستمرّاً ، ولبست العفاف محموداً ،
واتخذت الانقباض صناعة ، وقمت بالعلاء مجتهداً .

هذا بعد أن تصفحت الناس فوجدتهم أحد رجلين : رجلاً إن نطق نطق عن غيظ
ودمئة ، وإن سكت سكت على ضغن وإحنة . ورجلاً إن بذل كدراً بامتنانه بذله ،
وإن منع حصن باحتياله بخله ؛ فلم يطل دهرى فى أثنائه متبرماً بطول الغربة وشظف
العيش ، وكلب الزمان وعَجَف^(١) المال ، وجفاء الأهل وسوء الحال ، وعادية العدو
وكسوف البال ؛ متحرقاً^(٢) من الحنق على لئيم لا أجد مُنصرفاً عنه ، متقطعاً من
الشوق إلى كريم لا أجد سبيلاً إليه - حتى لاحت لى غرة الأستاذ فقلت : حل بي
الويل ، وسال بي السيل !

(١) العجف : الهزال وذهاب السمن .

(٢) متحرقاً : ملتهباً من الحنق .

الامتناع والمؤانسة

أربعون ليلة زمن هذا الكتاب ،
في كل ليلة تطرح مسائل فلسفية ،
وأدبية ، وعلمية ، وفنية ، ولغوية ،
الوزير ابن سعدان يسأل والتوحيدي
يجيب ، اخترنا المقدمة ، وما عبر
عن ذات التوحيدي ، خاصة
الرسالتين اللتين ختم بهما الكتاب ،
الأولى للوزير ، والثانية لأبي الوفاء
المهندس ، وفي كليهما يشكو
معاناته الرهيبة ، ويطلب العون . .
اعتمدنا على الطبعة الصادرة في
القاهرة عن لجنة التأليف والترجمة
والنشر بتحقيق المرحوم أحمد أمين
والمرحوم أحمد الزين .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو حيان التوحيدى : نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين ووصل إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين ، وظفر بالفوز والنعيم من قطع طمعة من الخلق أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبيه وعلى آله الطاهرين .
أما بعد ، فإننى أقول منبهاً لنفسى ، ولمن كان من أبناء جنسى : من لم يطع ناصحه بقبول ما يسمع منه ، ولم يملك صديقه كله^(١) فيما يمثله له ، ولم ينقذ لبيانه فيما يريغه إليه ويطلعه عليه ؛ ولم ير أن عقل العالم الرشيد ، فوق عقل المتعلم البليد ؛ وأن رأى المجرب البصير ، مقدّم على رأى الغمر^(٢) الغرير فقد خسر حظه فى العاجل ، ولعله أيضا يخسر حظه فى الآجل ؛ فإن مصالح الدنيا معقودة بمرشد الآخرة ، وكلّيات الحس فى هذا العالم ، فى مقابلة موجودات العقل فى ذلك العالم ؛ وظاهر ما يرى بالعيان مفضى إلى باطن ما يصدق عنه الخبر ؛ وبالجملّة ، الداران متفقتان فى الخير المغتبط به ، والشر المندوم عليه ؛ وإنما يختلفان بالعمل المتقدم فى إحداهما ، والجزاء المتأخر فى الأخرى ؛ وأنا أعوذ بالله المليك الحقّ الجبار العزيز الكريم الماجد أن أجهل حظى ، وأعمى عن رشدى ، وألقى بى إلى التهلكة ، وأتجأنف^(٣) إلى ما يسوءنى أولاً ولا يسرنى آخراً ؛ هذا وأنا فى ذيل الكهولة وبادئة الشيخوخة ، وفى حال من إن لم تهده التجارب فيما سلف من أيامه ، فى حالى سفره ومقامه ؛ وفقره وغناؤه ، وشدته ورخائه ، وسرّائه وضرّائه ، وخيفته ورجائه ؛ فقد انقطع الطمع من فلاحه ووقع اليأس من تداركه واستصلاحه ؛ فإلى الله أفرغ من كل ريث وعجل وعليه أتوكل فى كل سؤال وأمل ، وإياه أستعين فى كل قول وعمل .

قد فهمت أيها الشيخ^(٤) - حفظ الله روحك ، ووكل السلامة بك ، وأفرغ الكرامة عليك ، وعصب كل خير بحالك ، وحشد كل نعمة فى رجاك ورحم هذه الجماعة

(١) كله : مفعول - يملك ، يريد بهذه العبارة تمام الطاعة لصديقه حتى كان صديقه مالك له كله يتصرف فيه كيف يشاء .

(٢) الغمر بالفتح والضم : من لم يجرب الأمور : والجاهل الأبله .

(٣) «أتجأنف» ، وهو تحريف . والتجأنف إلى الشيء : الميل إليه .

(٤) يريد بالشيخ أبا الوفاء المهندس ، وهو الذى وصل أبا حيان بالوزير أبى عبد الله العارض كما يفهم مما يأتى .

الهائلة - من أبناء الرجاء والأمل - بعنايتك ، ولا قطعك من عادة الإحسان إليهم ، ولائني طرفك عن الرقة لهم ، ولا زهدك في اصطناع حالهم وعاطلهم ، ولا رغب بك عن قبول حقهم لبعض باطلهم ، ولا ثقل عليك إدناء قريبهم وبعيدهم ، وإنالة مستحقهم وغير مستحقهم أكثر مما في نفوسهم وأقصى ما تقدر عليه من مواساتهم ، من بشر تبديه ، وجاه تبذله ، ووعد تقدمه ، وضمان تؤكده ، وهشاشة تمزجها ببشاشة ، وتبسم تخلطه بفكاهة فإن هذه كلها زكاة المروعة ، ورباط النعمة ، وشهادة بالمحند^(١) الزكي والعرق الطيب والمنشأ المحمود ، والعادة المرضية ؛ وهي مؤذنة بأن المنحة راهنة^(٢) ، والموهبة قاطنة ، والشكر مكسوب ، والأجر مذخور ، ورضوان الله واقع ؛ وأسأل الله بعد هذا كله ألا يسهم^(٣) وجهي عندك ، ولا يزل قدمي في خدمتك ، ولا يزيعني^(٤) إلى ما يقطع مادة إحسانك وعائدة رأيك ونافع^(٥) نيتك وجميل معتقدك ، بمنه ولطفه .

فهمت جميع ما قلته لي بالأمس فهما بليغا ، ووعيته وعيا تاما ؛ وبان لي الرشد في جملته وتفصيله ، والصالح في طرفيه ووسطه ، والغنيمة في ظاهره وباطنه ، والشفقة من أوله إلى آخره . وأنا أعيده ههنا بالقلم ، وأرسمه بالخط وأقيده باللفظ ، حتى يكون اعترافي به أرسى وأثبت ، وشهادتي على نفسي أقوى وأؤكد ، ونكولي عنه أبعد وأضعب ، وحكمك به لي وعلى أمضي وأنفذ .

قلت لي - أدام الله تعالى توفيقك في كل قول وفعل ، وفي كل رأي ونظر - : إنك تعلم يا أبا حيان أنك أنكفأت من الرى^(٦) إلى بغداد في آخر سنة سبعين^(٧) بعد

(١) « بالمجد » .

(٢) راهنة : دائمة .

(٣) السهم : تغير الوجه وعبوسه من الهم ؛ وكنى به عن تغير الحال .

(٤) يزيعني : يميلني .

(٥) « ويافع » .

(٦) الرى : مدينة فارسية قديمة كانت قسبة بلاد الجبال ، وكان اسمها الفارسي راغة ومنه أخذ اسمها العربي .

وهي الآن أطلال على مسافة خمسة كيلومترات من طهران .

(٧) أى وثلاثمائة .

فوت مأمورك من ذي الكفایتین^(١) - نصر الله وجهه - عابسا على ابن عباد^(٢) مغيظا منه ، مقزوح الكبد ، لما نالك به من الجرمان المر ، والصد^(٣) القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقذع^(٤) المؤلم والمعاملة السيئة ، والتغافل عن الثواب على الخدمة ، وحبس الأجرة على النسخ والوراقة ، والتجهّم المتوالى عند كل لحظة ولفظة .

وذكرت في الجملة شقاء اتصل بك في سفرك ذلك ، وعناء نال منك في عرض^(٥) أحوالك ؛ ولعمري إن السفر فعول لهذا كله ولأكثر منه ؛ فأرعتك بصرى ، وأعرتك سمعى ، وساهمتك في جميع ما وقرته في أذنى بالجزع والتوجع والاستقطاع^(٦) والتفجع ؛ ^(٨)جنت لك تلافى ذلك كله بحاق^(٧) الشفقة وخالص الضمير ، ووعدتك صلاح الحال عن ثبات النية ، وصحة العقيدة ، وقلت : أنا أرعى حقك القديم حين التقينا (بأرجان^(٦)) ، وأنا على باب (ابن شاهويه^(٩)) الفقيه ، وعهدك الحديث حين اجتمعنا بمدينة السلام سنة ثمان وخمسين ؛ وأوصلك إلى الأستاذ أبى عبدالله العارض^(١٠) - أدام الله تأييده - وأخطب لك قبولا منه ، وتخفيف الإذن عليك ، وامتلاء

(١) ذو الكفایتین : لقب لأبى الفتح على بن أبى الفضل محمد المعروف بابن العميد . ويعنون بالكفایتین كفاية السيف وكفاية القلم ، وقد قام مقام أبيه ابن العميد ، واستوزر لركن الدولة البويهى ، ثم لما تولى عضد الدولة نكبه وقتله سنة ٣٦٦هـ .

(٢) ابن عباد ، هو صاحب أبو القاسم إسماعيل بن أبى الحسن عباد ، ولد سنة ست وعشرين وثلاثمائة ، وتوفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة بالرى ، وكان وزيرا لمؤيد الدولة أبى منصور بويه الديلمى ، ثم وزر لأخيه فخر الدولة أبى الحسن على ، وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء ، لأنه صاحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا .

(٣) « والقصد » .

(٤) القذع بالمهمله : المنع والزجر . وبالذال المعجمة : الشتم . والمعنى يستقيم على كلا الوجهين .

(٥) « فى عرض أحوالك ، أى فى أكثرها . وعرض الشيء أكثره ومعظمه .

(٦) « والاستقطاع » .

(٧) حاق الشفقة : أى صادقها وكاملها .

(٨) أرجان : مدينة بين فارس وخوزستان ، وهى من كور الأهواز ، وتعرف الآن باسم « بابهان » .

(٩) ابن شاهويه هو أبو بكر محمد بن أحمد بن على بن شاهويه الفارسى الفقيه الشافعى تولى القضاء ببلاد فارس ، وتوفي سنة ثنتين وستين وثلاثمائة بنيسابور .

(١٠) أبو عبدالله العارض ، هو - فى رأينا - أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان كان وزيرا لصمصام الدولة بن عضد الدولة من سنة ٣٧٢ إلى سنة ٣٧٥ والعارض لقب له وهو كما فى الأنساب للسمعانى « من يعرف العسكر ويحفظ أرزاقهم ويوصلها إليهم ، ويعرض العسكر على الملك إذا احتيج إلى ذلك » ، والظاهر أنه لقب بهذا إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة ، أو كان هذا لقباً لأسرته .

الطَّرْف بك ، وَنَيْلَ الحِظْوَةِ بِخِدْمَتِكَ وَمِلَازِمَتِكَ ؛ وَفَعَلْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ حَتَّى اسْتَكْتَبَكَ
(كِتَابَ الحَيَوَانِ) لِأَبِي عَثْمَانَ الجَاحِظِ ، لِعَنَانِيَّتِكَ بِهِ ، وَتَوَفُّرِكَ عَلَى تَصْحِيحِهِ ، ثُمَّ
حَضَنْتُ^(١) لَكَ هَذِهِ الحَالِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ؛ وَهُوَ الوَزِيرُ العَظِيمُ الَّذِي افْتَقَرَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى
نَظَرِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَإِلَى أَنْ يَكُونَ هُوَ المُبْرِمُ وَالنَّاقِضُ ، وَالرَّافِعُ وَالوَاضِعُ ، وَالكَافِي
وَالوَافِي وَالْمُقَرَّبُ لَخَدَمِهَا وَنَصَائِحِهَا ، وَالْمُزَحْزَحُ لِحَسَدَتِهَا وَأَعْدَائِهَا ؛ وَالرَّاعِي
لِرَعِيَّتِهَا وَدَهْمَانِهَا ، وَالنَّاهِضُ بِأَثْقَالِهَا وَأَعْبَائِهَا ، أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى مَا تَوَلَّاهُ ، وَكَفَاهُ المِهْمَ
فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ ، بِمَنِّهِ وَقُدْرَتِهِ .

نَعَمْ وَرَبَّتْ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَلَمْ أَقْطَعْ عَنْكَ عَادَتِي مَعَكَ فِي الأَسْتِرْسَالِ وَالْأَنْبِسَاطِ ،
وَالْبَرِّ وَالْمَوَاسَاةِ ، وَالْمُسَاعَدَةِ وَالْمَوَاتَاةِ^(٢) ، وَالتَّعَصُّبِ وَالْمَحَامَاةِ .

أَفْكَانَ مِنْ حَقِّي عَلَيْكَ فِي هَذِهِ الأَسْبَابِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا ، وَفِي أَخَوَاتِهَا الَّتِي تَرَكْتُهَا
كَرَاهَةً لِإِطَالَةِ بِهَا أَنَّكَ تَخْلُو بِالْوَزِيرِ - أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ - لِيَالِيَّ مُتَتَابِعَةً وَمُخْتَلِفَةً ، فَتَحَدِّثُهُ
بِمَا تَحِبُّ وَتُرِيدُ ، وَتُلْقِي إِلَيْهِ مَا تَشَاءُ وَتَخْتَارُ ، وَتَكْتُبُ إِلَيْهِ الرُّقْعَةَ بَعْدَ الرُّقْعَةِ ؛ وَلَعَلَّكَ
فِي عُرْضِ ذَلِكَ تَعْدُو طَوْرَكَ بِالتَّشْدُّقِ^(٣) وَتَجُوزُ حَدَّكَ بِالأَسْتَحْقَارِ ، وَتَتَطَاوَلُ إِلَى
مَا لَيْسَ لَكَ ، وَتَغْلُطُ فِي نَفْسِكَ ، وَتَنْسَى زَلَّةَ الْعَالِمِ ، وَسَقَطَةَ الْمُتَحَرِّى ، وَخَجَلَةَ
الْوَائِقِ ؛ هَذَا وَأَنْتِ غَيْرُ لَا هَيْئَةَ لَكَ فِي لِقَاءِ الكُبَرَاءِ ، وَمُحَاورَةِ الوُزَرَاءِ ؛ وَهَذِهِ حَالُ
تَحْتَاجِ فِيهَا إِلَى عَادَةٍ غَيْرِ عَادَتِكَ ، وَإِلَى مِرَانٍ سِوَى مِرَانِكَ ، وَلِبْسَةٍ لَا تُشَبِّهُ لِبْسَتَكَ ؛
وَقَلٌّ مِنْ قُرْبٍ مِنْ وَزِيرٍ خَدَمَ فَاجِدًا ، وَتَكَلَّمَ فَاغَادًا ، وَبُسِطَ فَزَادٌ ؛ إِلَّا سَكِرَ ، وَقَلَّ مِنْ
سَكِرٍ إِلَّا عَثَرَ وَقَلَّ مِنْ عَثَرٍ فَانْتَعَشَ ، وَمَا زَهْدٌ فِي هَذِهِ الحَالِ كَثِيرٌ مِنَ الحُكَمَاءِ الأَوَّلِينَ
وَالْعُبَادِ الرَّبَّانِيِّينَ ؛ إِلَّا لَغَلْظَهَا وَصَعُوبَتَهَا ، وَمَكْرُوهَ عَاقِبَتِهَا ، وَشِدَّةَ الصَّبْرِ عَلَى
فَوَارِضِهَا وَرَوَاتِبِهَا^(٤) ، وَتَفْسُخِ^(٥) الْمَتْنِ بَيْنَ حَوَادِثِهَا وَنَوَائِبِهَا .

وَالْعَجَبُ أَنَّكَ مَعَ هَذِهِ الخِلَّةِ^(٦) تَظُنُّ أَنَّهَا مَطْوِيَّةٌ عَنِّي وَخَافِيَةٌ دُونِي ، وَأَنَّكَ قَدْ

(١) « حَضَنْتُ لَكَ هَذِهِ الحَالِ » ، أَي كَفَلْتُهَا لَكَ وَحَفَظْتُهَا عَلَيْكَ .

(٢) المَوَاتَاةُ : المَوَافَقَةُ .

(٣) التَّشْدُّقُ ، هُوَ التَّوَسُّعُ فِي الكَلَامِ مِنْ غَيْرِ احتِيَاظٍ وَاحْتِرَازٍ ، وَهُوَ أَيْضًا اسْتِهْزَاءُ الرَّجُلِ بِالنَّاسِ يُلَوِّى شِدْقَهُ
بِهِمْ وَعَلَيْهِمْ .

(٤) « وَرَوَاتِبِهَا » .

(٥) التَّفْسُخُ : الضَّعْفُ وَالْعَجْزُ عَنِ النُّهُوضِ ، وَالْمَتْنُ : الظَّهْرُ .

(٦) « الخِلَّةُ » ، وَالخِلَّةُ بِالكُسْرِ : الخِلْمَةُ . يُرِيدُ مَا فِيهِ مِنَ العُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ .

بلغت الغاية وادع القلب ، وملكك المكانة ثانی العنان ؛ وقد انقطعت حاجتك عني
وعمن هو دوني ، ووقع الغنى عن جاهي وكلامي ولطفي وتوصيلي ؛ وجهلت أن من
قَدَر على وُصولك ، يقدر على فصولك^(١) ، وأن عن صَعد بك حين أراد ، ينزل بك
إذا شاء ، وأن من يُحسِن فلا يُشكر ، يجتهد في الاقتصاد حتى يُعذر .

وبعد ، فما أطيل ، ولعلَّ لَهَبَ المَوْجِدَةِ يزداد ، ولسان الغيظ يغلو ، وطباع
الإنسان تحتد ، والندم على ما أسلفت من الجميل يتضاعف ؛ ولست أنت أول من
بُرفَعَتْ ، ولا أنا أول من جُفِيَ فَتَقَّ^(٢) . وهذا فراق بيني وبينك وآخر كلامي معك ،
وفاتحة يأسي منك ؛ قد غسلت يدي من عهدك بالأشنان^(٣) البارقي ، وسلوت عن
قربك بقلب معرض وعزمٍ حيٍّ ؛ إلا أن تُطِيعني طَلَع^(٤) جميع ما تحاورتما وتجادبتما
هُدْبَ الحديث عليه ، وتصرفتما في هزله وجده ، وخيره وشره ، وطيبه وخبيثه ،
وباديه ومكتومه ؛ حتى كأني كنت شاهدا معكما ورقيا عليكما ، أو متوسطا بينكما ،
ومتى لم تفعل هذا ، فانتظر عُقبى استيحاشي منك ، وتوقع قلة غفولي عنك ، وكأني
بك وقد أصبحت حَرَّانَ حيرانَ يا أباحيان ، تأكل أصبعك أسفا ، وتزدرد ريقك لهفا ،
على ما فاتك من الحَوَطة لنفسك ، والنظر في يومك لغدك ، والأخذ بالوثيقة في
أمرك ، أتظن بغرارتك^(٥) وغمارتك^(٦) ، وذهابك في فُسُولتك^(٧) التي اكتسبتها
بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدين الأدنياء الأردياء ؛ أنك تقدر على مثل هذه
الحال ، وأنامُ مفك على حسن الظن بك ، والثقة بصدرِكَ ووردك ، وأطمئن إلى
حَكِّكَ وجَرْدِكَ وأتعامى عن حرِّكَ وبردك ؛ هيهات ؛ رَقَدْتَ فَحَلَمْتَ ، فخيرأ رأيت
وخيرا يكون .

على هذا الحدِّ كان مَقْطَعُ كلامك في مَوْجِدَتِكَ ، وإلى ههنا بلغ فَيَضُ عَتَبِكَ

(١) فصولك ، أي خروجك من عند الوزير ، يقال : « فصل القوم من البلد فصولا » ، إذا خرجوا منها .

(٢) نَقَّ : من النقيق ، وهو في الأصل صياح الضفدع ؛ والمراد هنا التحدث بما أسداه من النعم وما يلقاه من الكفران .

(٣) الأشنان : غاسول كانت تغسل به الثياب والأيدي ؛ وهو نبات لا ورق له ، وله اغصان دقاق فيها ما يشبه العقد ، وهي رخصة كثيرة المياه .

(٤) يقال : « اطلعت طلع أمرى » بكسر الطاء ، أي أثثته سرى .

(٥) الغرارة : الغفلة .

(٦) الغمارة : الجهل والبلاهة .

(٧) الفسولة : الضعيف والخسة وقلة المروءة .

ولائمتك ؛ وفي دون ذلك تنبيه للنائم ، وإيقاظٌ للساهي ، وتقويمٌ لمن يقبل التقويم ؛
وقد قال الأول :

ألا إنما^(١) يكفي الفتى عند زيغهِ من الأود^(٢) البادي ثقافُ المقومِ
فقلت لك : أنا سامع مطيع ، وخادمٌ شكور ، لا أشتري سخطك بكل صفراء^(٣)
وبيضاء في الدنيا ؛ ولا أنفِر من التزام^(٤) الذنب والاعتراف بالتقصير ؛ ومثلي يهفو
ويجَمَح ، ومثلك يعفو ويصفح ؛ وأنت مولى وأنا عبد ، وأنت أمرٌ وأنا مؤتمِر ، وأنت
ممثلٌ وأنا ممثِل ، وأنت مصطنعٌ وأنا صنيعةٌ ، وأنت منشئٌ وأنا مُنشَأ ، وأنت أول
وأنا آخر ، وأنت مأمولٌ وأنا آمِلٌ ، ومتى لم تغفر لي الذنب البكر ، والجنابة
العذراء ، والباردة النادرة ؛ فقد أعنتني على ما كان مني ، وذللّت على مالك لي ؛
وأنت كنت مترصداً لهذه الهفوة ومعتقداً في مقابلتها هذه الجفوة ؛ وكرمك يأبى عليك
هذا ، ومثولي بين يديك خدمةٌ لك يحظره عليك .

هذا وأنا أفعل ما طالبتني به مِنْ سرِّ جميع ذلك ، إلا أن الخوض فيه على البديهة
في هذه الساعة يُشَقُّ ويصعبُ بعقب ما جرى من التفاوض ، فإن أذنت جمعته كله في
رسالة تشتمل على الدقيق والجليل ، والحلو والمُر ، والطري والعاسي^(٥) ،
والمحبوب والمكروه ؛ فكان مِنْ جوابك لي : افعل . ونعم ما قلت وهو أحبُّ إليّ
وأقربُ إليّ إرادتي ، وأحصرُ لما أريغ^(٦) منه ، وأدخلُ في الحجة عليك ولك ؛
وأغسلُ للوسخ الذي بيني وبينك ، وأزهرُ للسراج الذي طفيء عني وعنك ، ويجذبُ
لعنان الحجة إن كانت لك ، وأنطقُ عن العذر إن أتضح بقولك ؛ وإذا عزمت فتوكل
على الله ؛ وليكن الحديثُ على تباعد أطرافه ، واختلاف فنونه مشروحا ، والإسناد
عالياً متصلاً ، والمتنُ تاماً بينا ، واللفظُ خفيفاً لطيفاً ، والتصريحُ غالباً^(٧)

(١) « أيما ، بالياء .

(٢) الأود : العوج . والثقاف : ما تسوى به الرماح .

(٣) يريد بالصفراء الذهب ، وبالبيضاء الفضة .

(٤) « أكرام » .

(٥) العاسي : اليايس .

(٦) أريغ : اطلب وأريد .

(٧) « غالباً » .

متصدراً^(١) ، والتعريض قليلا يسيرا وتوخَّ الحقَّ في تضاعيفه وأثنائه ، والصدق في إيضاحه وإثباته ؛ وآتق الحذف المُخل بالمعنى ، والإلحاق الممتصل بالهذر ، وأحذر تزيينه بما يشينه ، وتكثيره بما يقلله ، وتقليله عما لا يُستغنى عنه ؛ وأعمد إلى الحسن فزد في حسنه ، وإلى القبيح فأنقص من قبحه ؛ وأقصد إمتاعى بجمعة^(٢) نظمه ونثره ، وإفادتى من أوله إلى آخره ؛ فعل هذه المثاقفة^(٣) تبقى وتروى ، ويكون فى ذلك حسنُ الذكرى ؛ ولا تؤمىء إلى ما يكون الإفصاحُ عنه أحلى فى السمع ، وأعذب فى النفس ، وأعلق بالأدب ؛ ولا تُفصح عما تكون الكنايةُ عنه أستر للعب ، وأنفى للريب ؛ فإن الكلام صليفاً تياه لا يستجيب لكل إنسان ، ولا يصحب كل لسان ؛ وخطئه كثير ، ومتعاطيه مغرور ، وله أرُن^(٤) كَارِن المهر وإبَاء كإباء الحرون ، وزهو كزهو الملك ، ونخفُّ كخفِّ البرق ؛ وهو يتسهل مرة ويتعسر مرارا ، ويذل طورا ويعز أطوارا ؛ ومادته من العقل [والعقل] سريع الحوول^(٥) خفى الخداع ؛ وطريقه على الوهم ، والوهم شديد السيلان ومجراه على اللسان ، واللسان كثير الطغيان ؛ وهو مركب من اللفظ اللغوى والصَّوغ^(٦) الطباعى ، والتأليف الصناعى ، والاستعمال الاصطلاحي ، ومُستملاهُ من الحجا ، ودَرْيئة^(٧) بالتمييز ؛ ونسجُه بالرقّة ، والحجا فى غاية النشاط^(٨) وبهذا البون يقع التباين ويتسع التأويل ، ويجول الذهن ، وتتمطى^(٩) الدعوى ، ويُفرغ إلى البرهان ، ويُرأ من الشبهة ، ويُعثر بما أشبه الحجة وليس بحجة ؛ فأحذر هذا النعت وروادفه ، وآتق هذا الحكم وقوائفه^(١٠) ؛ ولا تعشق اللفظ دون المعنى ولا تهو المعنى دون اللفظ ؛ وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء فى جانب ، فإن صناعتهم يُفتقر فيها أشياء يؤاخذ بها غيرهم ، ولست منهم ، فلا تشبه

(١) « متصورا » .

(٢) الجمعة : المجموعة .

(٣) يريد بالمثاقفة المطارحة فى العلم والأدب ومذاكرتهما .

(٤) الأرُن بالتحريك : النشاط .

(٥) الحوول : التحول .

(٦) « والصرع » .

(٧) دريه ، أى دريانه وعلمه .

(٨) الظاهر أن هنا كلاما سقط من الناسخ .

(٩) تمتطى : تتناول .

(١٠) قوائفه ، أى توابعه . يقال : قاف اثره إذا تبعه .

بهم ، ولا تجر على مثالهم ، ولا تنسج على منوالهم ، ولا تدخل في غمارهم ، ولا تكثر ببياضك سوادهم ، ولا تقابل بفكاهتك براعتهم ، ولا تجذب بيدك رشاءهم ، ولا تحاول بيعك مطاولتهم^(١) ، وأعرف قدرك تسلم ، وألزم حدك تأمن ؛ فليس الكودن^(٢) من العتيق في شيء ، ولا الفقير من الغنى على شيء ؛ أما سمعت قول الناس : ليس الشامى للعراقي^(٣) بصاحب ، ولا الكردي من الجندي بساخر ، فإن طال^(٤) فلا تبلى ، وإن تشعب فلا تكثر ، فإن الإشباع في الرواية أشفى للغليل ، والشرح^(٥) للحال أبلغ إلى الغاية ، وأظفر بالمراد ، وأجرى على العادة . فكتبت : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، أقول أيها الشيخ - عطف الله قلبك على ، وألهمك الإحسان إلى - في جواب جميع ما قلته واجداً على وعاتبا ، وفابضا ، وباسطا ، ومرشدا ، وناصحا ؛ ما يعرف الحق فيه ، ويستبين الصواب منه ، غير خائن لك ، ولا جانح إلى مخالفتك ، ولا مريب^(٦) للباطل معك ، ولا جاحد لأيديك القديمة والحديثة ، ولا منكِر لنعمتك الكافية الشافية ، ولا غاط^(٧) على فواضلك المجتمعة والمتفرقة ، ولا تارك لشيء هو على من أجل شيء هو لى ، ولا معرض عن شيء هو لى بسبب شيء هو على ؛ بل أجهز دقه وجله إليك حتى تراه بسيدته^(٨) وغباره ، وأجلوه عليك حتى تلحظه بردائه وإزاره . كأنى لم أسمع قول الأول :

« والكفر^(٩) مخبئة لنفس المنعم » « والشكر مبعثة لنفس المفضل »
أنا أدعك واجداً على ، وأرقد وأنت ما قت لى ، وأجد حسن نعمة أنت وهبتها لى ، وألذ عيشاً أنت أذقتنى حلاوته . أنسى أياديك وهى طوق رقبتى ، وتجاه

(١) « مطاولتهم » .

(٢) الكودن : الفرس الهجين والبردون . والعتيق من الأفراس : الكريم الرائع منها .

(٣) يشير بهذه الجملة إلى ما وقع بين الشام والعراق من العداوة أيام على ومعاوية وما تبع ذلك .

(٤) طال ، أى الكلام .

(٥) « والشرح » .

(٦) المريب : المريد .

(٧) غطى على الشيء يتخفيف الطاء : كغطى عليه بتشديدها .

(٨) السد : الصحيح من الكلام وكنى بالغبار عما يثور حول الكلام من اعتراض ونحوه ، ومنه قولهم : . كلام لا غبار عليه .

(٩) هذا الشطر عجز بيت لعنترة العبسى وصدده :

نبئت عمرا غير شاكر نعمتى

عيني ، وحشوت نفسي ، وراحة حلمي ، وزاد حياتي ، ومادة روحى ؟ هيهات ، هذا بعيد من القياس ، وغير معهود بين أحرار الناس ؛ الذين لهم اهتمام بصون أغراضهم ، وحرث على إكرام أنفسهم ؛ قد عبقوا^(١) بفوائح الفتوة ، وعلقوا بحبائل المروءة ، وشدوا^(٢) من الحكمة أشرف الأبواب ؛ واعتزوا من الأدب إلى أعز حرم^(٣) ؛ وحازوا شرفا بعد شرف ، وانحازوا عن نظف بعد نظف^(٤) ونظروا إلى الدنيا بعين بصيرة ، وعزفوا^(٥) أنفسهم عن زهراتها بتجربة صادقة .

فأول ما أبدؤك به أننى ظننت ظنا لا كيقين أن شيئا مما كنت فيه مع الوزير - أدام الله أيامه ، وقصم أعداءه - ليس مما يهملك ، ولا هو مما يقرع سمعك سماعك له ؛ وحسبت أيضا أننى إن بدأت بشيء منه رذلتنى عليه وتنقصتنى به ، وزريت على فيه ؛ وأنتك ربما قلت : لم بدأت بما لم أسئلك عنه ولم أرخص لك فيه ، هلا كظمت على جريتك^(٦) ، وطويت ما بين جنبيك وما على مما يدور بين صاحب وخادمه والرؤساء ، والناظرين فى أمور الدهماء^(٧) والمتصفحين لأحوال العامة والخاصة ، ولهم أسرار وعيوب لا يقف عليها أقرب الناس إليهم ، وأعز الناس عليهم ، وأنت أيضا فلم تسألنى عنه ، فكان فى تقديرى أنك قد عرفت وصولى فى وقت دون وقت ، وأنتك قد حملت أمرى على الخدمة التى ليس للعلم بها فائدة ، ولا فى الإعراض عنها فائدة .

وإذ جرى الأمر على غير ما كان فى حسابى وتلبس^(٨) بظنى ، فإننى أهدي ذلك كله بغثائه وسمانته ، وحلاوته ومرارته ، ورقته وخثارته فى هذا المكان ؛ ثم أنت أبصر بعد ذلك فى كتمانته وإفشائه ، وحفظه وإضاعته وستره^(٩) وإشاعته ؛ ووالله ما أرى هذا أمرا صعبا إذا وصل إلى مرادك ولا كلفة شاقة إذا أكسبنى مرضاتك ؛ وإن كان ذلك

(١) « عتقوا بفرائح » .

(٢) شدوا : أجدوا . يقال : شدا من العلم شيئا إذا أخذه كأنه ساقه أو جمعه ، وفى الأصل « شذوا » بالمعجمة .

(٣) « خدم » .

(٤) النطف بالتحريك : العيب والفساد .

(٥) « عرفوا » وعزف عن الشيء : أعرض عنه وزهد فيه .

(٦) « جريك » ، وجرة البعير معروفة ، شبه بها الحديث المختزن يفضيه صاحبه .

(٧) « الذبهما » والدهماء : جماعة الناس .

(٨) « ولكيس » .

(٩) « ونشره واشكر عته » .

يمر بأشياء كثيرة ومختلفة ، متعصية غريبة ، منها ما يَشِيْطُ^(١) به الدم المحقون ،
وَيُنَزَّع من أجله الرُّوح العزيز ، وَيُسْتَصْغَر معه الصُّلْب ، ولا يُقْنَع فيه بالعذاب الأدنى
دون العذاب الأكبر ؛ وإن كان فيها أيضا غير ذلك مما يُضْحِك السِّنَّ ، وَيُفَكِّه
النفس ، ويدعو إلى الرشاد ، ويدل على النصيح ، ويؤكد الحرمة ، ويعقد الذمام ،
ويُنشُر الحكمة ، ويشرف الهمة ، ويلقح العقل ، ويزيد في الفهم والأدب ويفتح باب
اليمن والبركة ، ويُنفق بضاعة أهل العلم في السوق الكاسدة ، ويوقظ العيون
الناعسة ، وَيَبْلُ السِّنَّ^(٢) المتغضف ، وَيُنْدِي الطين المترشّف ؛ ويكون سببا قويا على
حسن الحال وطلب العيش ، فإن هذه العاجلة محبوبة ، والرّفاية مطلوبة ، والمكانة
عند الوزراء بكل حول وقوة مخطوبة ، والدنيا حلوة خضرة وعذبة نضرة ، ومن
شَفَّ^(٣) أمله شقّ عمله ؛ ومن اشتدّ إلحاحه ، توالى غدوه ورواحه ، ومن أسره
رجاؤه ، طال عناؤه ، وعظم بلاؤه ؛ ومن ألهب طمعه وحرصه ، ظهر عجزه ونقصه .
وفي الجملة :

من لم يكن لله متّهماً لم يُمس محتاجاً إلى أحد
ولا بد من فتى يعين على الدهر ، ويُغنى عن كرام الناس فضلا عن لثامهم ، ويدل
قعود الصبر ، ويُجَمّ راحلة الأمل ، ويُحلى مرّ اليأس ؛ والعزلة محمودة إلا أنها
محتاجة إلى الكفاية ، والقناعة مَرّة^(٤) فكهة ولكنها فقيرة إلى البلغة وصيانة النفس
حسنة إلا أنها كلفة محرّجة إن لم تكن لها أداة تجدها^(٥) وفاشية^(٦) تمدها ، وترك
خدمة السلطان غير الممكن ولا استطاع إلا بدين متين ، ورغبة في الآخرة شديدة ،
وفطام عن دار الدنيا صعب ، ولسانٍ بالحلو والحامض يلغ .

(١) يشيط : يذهب هدرا .

(٢) « السن بالسين المهملة » . والسن بالمعجمة : القرية الخلق . والمتغضف ، أى المتكسر المتغضن من
اليبوسة .

(٣) شف أمله : زاد ، ويجوز أن يفسر بمعنى أسقمه الأمل واضناه لعلوه وبعد مناله .

(٤) « مرة » والمرّة : الخمرة اللذيذة الطعم .

(٥) تجدها ، أى تجدها .

(٦) الفاشية : ما انتشر من المال . وفى الأصل « غاشية » .

قال ابن السَّمَاك^(١) : لولا ثلاثٌ لم يقع حَيْفٌ ، ولم يُسَلَّ سيفٌ ، لقمةٌ أسوَّغ من لقمة ، ووجه أصبح من وجه ، وسِلْك^(٢) « أَنْعَمُ مِنْ سِلْكٍ » ، وليس كلُّ أحد له هذه القوة ، ولا فيه هذه المُنَّة^(٣) والإنسان بَشَرٌ ، وبِنِيَّتِهِ متهافِتةٌ وطِينَتُهُ منتشرةٌ ، وله عادةٌ طالبةٌ ، وحاجةٌ هاتكةٌ ، ونفسٌ جَموحٌ ، وعَيْنٌ طموحٌ ؛ وعقلٌ طفيف^(٤) ، ورأى ضعيفٌ ، يهفو لأول رِيحٍ ، ويستخيل^(٥) لأول بارقٍ ؛ هذا إذا تخلص من قُرْءاءِ السوء ، وسلم من سوارق^(٦) العقل ، وكان له سلطان على نفسه ، وقَهْرُ^(٧) لشهواته . وقَمَعَ لهوائجه^(٨) وقبولٌ من ناصحه ، وتهيؤٌ في سعيه ، وتَبَوُّؤٌ في مَعَانِ^(٩) حَظِّهِ ، وأَتَمَّامٌ بسعادته ، وأَسْتَبْصَارٌ في طلب ما عند ربِّه ، وأَسْتَنْصَافٌ من هواه المُضِلِّ لعقله المرشِد ، هذا قليلٌ وصعبٌ ولو قلتُ : معدومٌ أو مُحالٌ في هذا الزمن العسير والدهر الفاسد ، لما خفتُ عائقاً يعوقني ، ولا حسوداً يرد قولي . قال ابن السَّمَاك : الله المستعان على ألسنِ تَصِفِ وقلوبِ تَعْتَرِفِ ، وأعمالٍ تَخْتَلِفِ . وقال معاوية لأبي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث - ورآه لايلي له عملاً ، ولم يقبل منه نائلاً - : يا ابن أخى ، هى الدنيا ، فإما أن تَرْضَعَ معنا ؛ وإما أن تَرْتَدِعَ عَنَّا . وربما قال بعض المتكلفين قد قال بعض السلف : ليس خيركم مَنْ تَرَكَ الدنيا للآخرة ، ولا مَنْ تَرَكَ الآخرة للدنيا ولكنَّ خيركم مَنْ أَخَذَ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ . وهذا كلام مقبول الظاهر موقوف الباطن . وربما قال آخَرُ من المتقدمين : (أَعْمَلْ لآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غداً ، وَأَعْمَلْ لَدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أبداً) . وهذا أيضاً كلامٌ مَنْمُقٌ ، لا يَرْجِعُ

(١) « ابن السَّمَاك » ، وهو تحريف وابن السَّمَاك هو أبو العباس محمد بن صبيح الكوفى الزاهد الواعظ المشهور لقى جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم وقدم من بغداد زمن هرون الرشيد وتوفى سنة ثلاث وثمانين ومائة بالكوفة .

(٢) السلك : الخيط . وكنى به عن الثوب لأنه من الخيوط .

(٣) « المنة » . والمنة بضم الميم : القوة .

(٤) الطفيف الناقص والقليل .

(٥) فى الأصل : « ويستحيل » ، بالحاء . وهو تصحيف . ويستحيل لأول بارق : أى يخال المطر عند أول بارق .

(٦) يريد بسوارق العقل : الشهوات التى تذهب به وتجعله فى حكم غير الموجود كأنها تسرقه . والذى فى الأصل : « سراق » ، وهو تصحيف .

(٧) « وفهم » .

(٨) لهوائجه ، أى لما يهيج به من النزعات والمطامع .

(٩) المعان : المباءة والمنزل .

إلى معنى محقق ؛ أين هو من قول المسيح - عليه السلام - حين قال : الدنيا والآخرة
 كالشرق والمغرب متى بُعد أحدكم من أحدهما قُرب من الآخر ؛ ومتى قُرب من
 أحدهما بُعد من الآخر . وأين هو من قول الآخر : الدنيا والآخرة ضرتان ، متى
 أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، ومتى أسخطت إحداهما أرضيت الأخرى .
 وهذا لأن الإنسان صغير الحجم ، ضعيف الحول ، لا يستطيع أن يجمع بين
 شهواته وأخذ حظوظ بدنه وإدراك إرادته ، وبين السعى في طلب المنزلة عند ربّه بأداء
 فرائضه ، والقيام بوظائفه ، والثبات على حدود أمره ونهيه ، فإن صَفُق وجهه وقال :
 نعمل تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار ، فهذا المذبذب الذي لا هو من هذه ولا من
 هذه ؛ ومن تَخَنَّث^(١) وتَلَيَّث لم يكن رجلاً ولا امرأة ، ولا هو يكون أبا ولا أما ؛ وهذا
 كما نرى .

ونرجع فنقول : ونعوذ بالله من الفقر خاصة إذا لم يكن لصاحبه عياد من التقوى ،
 ولا عِمَاد من الصبر ، ولا دِعَامَة^(٢) من الأنفة ولا أَصْطِبَار على المرارة .
 وقد بُلينا بهذا الدهر الخالي من الدِّيانين الذين يُصْلِحون^(٣) أنفسهم ويُصْلِحون
 غيرهم بفضل صلاحهم ، الخاوي من الكرام الذين كانوا يتسعون في أحوالهم ،
 ويوسعون على غيرهم من سَعَتِهِمْ ، وكانوا يهتمون بذخائر الشكر المعجل في الدنيا ،
 يحْرِصون^(٤) على ودائع الأجر المؤجل في الآخرة ؛ ويتلذذون بالثناء ، ويهتزون
 للدعاء ؛ وتملكهم الأريحية عند مسألة المحتاج ، وتعترهم الهزة معها والابتهاج ؛
 وذلك لعشقهم الثناء الباقي ؛ والصنيع الواقى ؛ ويرون الغنيمة في الغرامة ، والربح
 في البذل ، والحظ في الإيثار ، والزيادة في النقص ؛ أعنى بالزيادة . الخلف المتظّر
 من الله ؛ وبالنقص : العطاء ؛ ورأيت الناس يعيرون ابن العميد حين قال : أنا أعجب
 من جهل الشاعر الذي قال :

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك

قال : ولو كان هذا صحيحاً كان لا ينبغي أن يُكْتَسَبَ المال ، لأنه ليس في ترك

(١) في الأصل : « تحنّث » ؛ وهو تصحيف . ويريد بالتحنّث والتليث : اللين والتشدد تشبهاً بالمخنثين والليوث .

(٢) « دِعامَة » . والدِعامَة : العماد .

(٣) « لا يصلحون » : وقوله « لا » زيادة من الناسخ .

(٤) « يخوضون » .

كسبه أكثر من إخراجِه بالإِنفاق . هذا لقولهم^(١) بحكمته وعقله وتحصيله وصوابُ
الجاهل لا يُستحسن كما يُستقبح خطأ العاقل ؛ نعم ، وكانوا إذا ولّوا عدلوا ، وإذا
ملَكوا أفضَلوا^(٢) ، وإذا أعطوا أجزَلوا ، وإذا سُئلوا أجابوا وإذا جادوا أطابوا ، وإذا
عالوا^(٣) صبروا ، وإذا نالوا^(٤) شكروا ؛ وإذا أنفقوا وأسوا ، وإذا امتَحَنوا تأسوا ؛
وكانوا يرجعون إلى نقائب ميمونة ، وإلى ضرائب^(٥) مأمونة ؛ وإلى دِيانات قويّة ،
وأماناتٍ ثخينة^(٦) ؛ وكان لهم مع الله أسرار طاهرة ، وعَلانيّة مقبولة ؛ ومع عباد الله
معاملّة جميلة ، ورحمةٌ واسعة ومعدّلة فاشية ؛ وكانت تجارتهم في العلم والحكمة ،
وعادتهم جارية على الضيافة والتّكرمة ؛ وكانت شيمتهم الصّفح والمغفرة وربّحهم^(٧)
من هذه الأحوال النّجاة والكرامة في الأولى والعاقبة ؛ وكانوا إذا تلاقوا تواصوا
بالخير ، وتناهّوا عن الشرّ ؛ وتنافسوا في اتّخاذ الصّنائع ، وأدخار البضائع (أعنى
صنائع الشّكر ، وبضائع الأجر) فذهب هذا كلّهُ ، وتاه^(٨) أهله ؛ وأصبح الدّين وقد
أُخِلِقَ لبُوسُهُ ، وأُوجِشَ مأنوسُهُ ، وأقْتُلِعَ مغروسُهُ ؛ وصار المنكر معروفًا ، والمعروفُ
منكرًا ، وعاد كلّ شيءٍ إلى كديره وخائره ، وفاسده وضائره ؛ وحصل الأمرُ على أن
يقال : فلانٌ خفيف الرّوح ، وفلانٌ حسنُ الوجه ، وفلانٌ ظريفُ الجملة ، حلُو
الشّمائل ، ظاهرُ الكَيْس ، قويُّ الدّست^(٩) في الشّطرنج ، حسنُ اللّعب في النّرد ،
جَيِّدٌ في الاستخراج ، مدبّر^(١٠) للأموال ، بذولٌ للجهْد ، معروفٌ بالاستقصاء
لا يُغْضِي عن دائق ، ولا يتغافل عن قيراط ؛ إلى غير ذلك مما يأنفُ العالم من
تكريره ، والكاتبُ من تسطيره .

وهذه كلّها كُنَايات عن الظلم والتّجديف^(١١) ، والخساسة والجهل وقلة الدّين وحبّ

(١) هذا لقولهم ، أي عيب الناس لابن العميد في كلامه السابق ، لما يصفونه به من الحكمة والعقل الخ .

(٢) افضلوا : انعموا .

(٣) في الأصل « اعتزلوا » . وعالوا ، افتقروا ، من العيلة بفتح اوله .

(٤) قالوا ، .

(٥) الضرائب : الطبائع والسجاياء ، الواحدة ضريبة .

(٦) ثخينة : قوية كما يقال في عكس ذلك : هو رقيق الدين ، أي ضعيفه .

(٧) « وزكح » .

(٨) تاه أهله : هلكوا . وفي الأصل « وباه » .

(٩) الدست : الحيلة ، وهو أيضًا ما يكون فيه الغلب في الشطرنج ؛ نقول : « الدست لي والدست على » .

(١٠) « مثير » .

(١١) التجديف : الكفر بنعمة الله . وفي الأصل : والتخويف .

الفساد ، وليس فيها شيء مما قدمنا وصفه عن القوم الذين اجتهدوا أن يكونوا خلفاء الله على عباد الله بالرأفة والرقة والرحمة والاصطناع والعدل والمعروف .
وأرجع عن هذه الشكوى الطويلة اللاذعة والبليّة العامة الشاملة ؛ إلى عين ما رسمت لي ذكره ، وكلفتني إعادته ؛ عائذا بالله في صرف الأذى عني وسوق الخير إلي ؛ ولائذا بكرمك الذي رشتني^(١) به إلى الساعة ، وكفيتني به مؤونة الخدمة لغيرك من هذه الجماعة ؛ والأعمال بخواتيمها ، والصُّدُورُ بأعجازها ؛ وأنت أولى الناس بالصُّفْح والتجاوز عني إذا عرفت براءتي في كل ما يتعلق بي من ذمامك ؛ ويجب عليّ من الحق في مودتك ، والاعتصام بحبلك والانتجاع^(٢) من عُشْبِكَ ، والارتغاء^(٣) من لبنك .

الليلة الأولى

وصلتُ أيها الشيخ - أطال الله حياتك - أول ليلة إلى مجلس الوزير - أعز الله نصره ، وشدّ بالعصمة والتوفيق أزره - فأمرني بالجلوس ، وبسط لي وجهه الذي ما أعتراه منذ خلق العُبُوس ؛ ولطّف كلامه الذي ما تبدل منذ كان لا في الهزل ولا في الجد ، ولا في الرضا .

ثم قال بلسانه الذليق^(٤) ، ، ولفظه الأنيق : قد سألتُ عنك مرّاتٍ شيخنا أبا الوفاء ، فذكر أنك مراعى لأمر اليمارستان من جهته ، وأنا أربأ بك عن ذلك ، ولعلّي أعرضك لشيء أنبأ من هذا وأجدي ، ولذلك فقد تآقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتأنيس ، ولأتعرّف^(٥) منك أشياء كثيرة مختلفة تردّد في نفسي على مرّ الزمان ، لا أحصيها لك في هذا الوقت ، لكنني أنثرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يسنح ويعرض ، فأجبنى عن ذلك كلّه باسترسال وسكونٍ بال ؛ بملء فيك ، وجَمَّ خاطرك ، وحاضر علمك ؛ ودّع عنك تفنّن البغداديين^(٦) (٧) مع

(١) راسه يرشه : جعل له ريشا . شبه ما بذله له من المعروف بالريش للطائر .

(٢) الانتجاع : طلب المعروف .

(٣) في الأصل « الارتقاء » ، بالقاف ؛ وهو تصحيف . والارتغاء : اخذ رغبة اللبن واحتساؤها .

(٤) اللسان الذليق : الحاد البليغ .

(٥) « ولا تفرق » .

(٦) يريد بتفنّن البغداديين : استطرادهم في الكلام وخروجهم فيه من فن إلى فن .

(٧) هنا كلمة مطموسة بالأصل لا يمكن قراءتها .

عفو لفظك ، وزائد رأيك ، وربح^(١) ذهنيك ؛ ولا تجبن جبن الضعفاء ، ولا تتأطر^(٢) تأطر الأغبياء ؛ وأجزم إذا قلت ، وبالع إذا وصفت ؛ وأصدق إذا أسندت ، وأفصل إذا حكمت .

الليلة الرابعة

قال لي بعد ذلك في ليلة أخرى : كيف رضاك عن أبي الوفاء^(٣) ؟ قلت : أرضى رضا بآتم شكر وأحمد ثناء ؛ أخذ بيدي ، ونظر في معاشي ، ونشطني وبشرني ، ورعى عهدي ، ثم ختم هذا كله بالنعمة الكبرى ، وقلدني بها القلادة الحسنى ، وشملني بهذه الخدمة ، وأذاقني حلاوة هذه المزية ، وأوجهني عند نظرائي . قال : هات شيئاً من الغزل . فأنشدته :

كلانا سواء في الهوى غير أنها تجلّد أحياناً وما بي تجلّد
تخاف وعيد الكاشحين وإنما جنوني عليها حين أنهي وأبعد
ثم قال : غالب ظني أن نصراً غلاماً خواشاه^(٤) ما هرب من فيائي إلا برأيك
وتجسّيرك ؛ فإن ذلك عبد ، ولا جرأة له على مثل هذا الندود والشذوذ ، فقد قال لي
القاتل : إنك من خلصائه .

فقلت : والله الذي لا إله إلا هو ما كان بيني وبينه ما يقتضي هذا الأنس وهذا
الاسترسال ، إنما كنا نلتقي على زنبرية^(٥) باب الجسر بالعشايا وعند البيمارستان
وعلى باب أبي الوفاء ؛ وإنما ركنت إليه لمرقعة^(٦) وتاسومته عندما كنت رأيته عند

(١) ربح ذهنيك ، أي فضلتك .

(٢) القاطر : التحبس والتثنى ، شبه به وقوف الغبي وتردده في جواب ما يسأل عنه .

(٣) يريد أبا الوفاء المهندس ، وهو محمود بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس ، مولده ببوزجان من بلاد نيسابور سنة ٣٢٨ ، وانتقل إلى العراق سنة ٣٤٨ ، وكان إماماً في الحساب والهندسة والجبر والفلك ؛ توفي سنة ٣٨٧ كما في ابن الأثير أو سنة ٣٨٨ كما في تاريخ الحكماء . وهو الذي ألف أبو حيان له هذا الكتاب .

(٤) خواشاه هو أبو نصر خواشاه كان فارسياً من كبار رجال شرف الدولة البويهى وكان سفيراً في الاتفاق وعقد الصلح بين شرف الدولة وصمصام الدولة .

(٥) انظر تفسير هذا اللفظ في الحاشية رقم ٢ صفحة ٤١ .

(٦) المرقعة : من لبس الصوفية ، لما فيها من الرقع . والتاسومة : كلمة شائعة الاستعمال عند العامة في نوع من النعال البالية يلبسه الفقراء ؛ ولم نجدها فيما راجعناه من كتب اللغة ، كما أنها لم ترد فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة في الألفاظ العامة والدخيلة .

صاحبه بالرّىّ سنة تسع وستين وهو متوجه إلى قابوس وجرجان ، فى المذلة الدائمة والحال المربوطة^(١) ؛ ولو نَبَس لى بحرف من هذا^(٢) ، أو كنت أشعر بأقل شىء منه ، لكنت أقوله لأبى الوفاء قضاءً لحقه ، ووفاءً بما له فى عنقى من مننه وخوفاً من هذا الظن بى ، وقصوراً عن اللائمة لى .

قال : أفما تعرف أحدا تسأله عنه ممن كان يخالطه ويباسطه ؟ قلت : ما رأيته إلا وحده ؛ وكم كان زمان التلاقى ؟ كان أقل من شهر ، أفى هذا القدر يتوكد الأنس وترتفع الحشمة وتستحكم الثقة ويقع الاسترسال والتشاور ؟ هذا بعيد . قال : هذا المتخلف^(٣) كنتُ قد قرَّبته ورتَّبته ، ووعدته ومنَّيته ؛ وتقدمت إلى أبى الوفاء بالإقبال عليه ، والإحسان إليه ، وإذكارى بأمره فى الوقت بعد الوقت ، حتى أزيده نباهة وتقدماً ، فترك هذا كله وطوى الأرض كأنه هارب من حبس ، أو خائف من عذاب . ويقال فى الأثر : إن بعض الصِّفيحيين^(٤) قال : لله قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ، ما أكثر من يفر من هذه الكرامة ، ويقوى - على ترفٍ جمٍ - على الهوان ، ويصبر على البلاء ، ويقلق فى العافية ! إن السجايا لمختلفة ، وإن الطباع لمتعادية ؛ قلماً يرى شخصان يتشاكلان فى الظاهر إلا يتباينان فى الباطن . قلتُ : كذلك هو .

قال : حدَّثنى لِمَ امتنعت من النفوذ مع ابن موسى إلى الجبل فيما رَسَمنا له أن يتوجّه فيه ؟ ولقد أطلتُ التعجب من هذا وكرَّرته على أبى الوفاء . فقلتُ : معنى من ذلك ثلاثة أشياء : أحدها أن ابن موسى لم يكن من شكلي « ولا أشدَّ للصدِّ »^(٥) هُونا^(٦) من مضاحبة الضد^(٧) ، لأنه سوداوى وجعد . والآخر أنه قيل : ينبغى أن تكون عينا عليه ، وأنا لو قررت لك الحديث لما رأيته [لائقاً^(٨)]

(١) لعله يريد بالمربوطة فى هذا الموضع ، الواقعة عند حد من الفاقة لا تنتقل عنه .

(٢) من هذا ، أى من أمر هربه .

(٣) يريد بالمتخلف : هذا الغلام الأبق ، لتخلفه عن متابعة مولاه .

(٤) الصفيحيون : نسبه إلى الصفيح ، وهو من أسماء السماء ، يريد المتعبدىين المتعلقة قلوبهم بالعالم العلوى .

(٥) وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى الأصل محرفة لا معنى لها وما أثبتناه هو أقرب الحروف إلى الرسم الوارد فى الأصل ، كما أن سياق الكلام يقتضيه .

(٦) الهون : الذل والهوان .

(٧) « الصك » .

(٨) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها ساقطة من الأصل ، ولعله يريد أنه لو اكتفى بنقل حقيقة الحديث لما كان ذلك لائقاً بحاله لما فى هذا العمل من وصفه بالشعاعية والوشاية .

بحالى ، فكيف إذا قُرنتُ برجلٍ باطلٍ^(١) لو مرُّ بوهمه أمرى لذهَّهْنِي^(٢) من أعلى جبل فى الطريق . والآخِر أنى كنت أفدٍ مع هذا كله على ابن عباد - وهو رجل أساء إلىَّ وأوحشنى ، وحاول على لسان صاحبه ابن شاهويه أن أنقلب إليه ثانياً ؛ وكنت أكره ذلك ، وما كنتُ^(٣) آمِنُ ما يكون منه ومنى ، والمجنون^(٤) المطاع ، مهروب منه بالطباع .

وبعد ، فليس لى [حَاجَةٌ]^(٥) فى مثل هذه الخدمة ، لأن صدر العمر خلا منى عارياً من هذه الأحوال ، وكان وسطه أضعفَ حملاً ، وأبعدَ من القيام به والقيام عليه .

فقال : ما كان عندى هذا كله .

قال : إنى أريد أن أسألك عن ابن عباد فقد أنتجته وخبرته وحضرت مجلسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته ، وعن علمه وبلاغته ، وغالب ما هو عليه ، ومغلوب ما لديه ؛ فما أظن أنى أجد مثلك فى الخبر عنه ، والوصف له ، على أنى قد شاهدته بهَمَذانَ لَمَّا وافى ، ولكنى لم أعْجُمه ، لأن اللَّبث كان قليلاً ، والشغل كان عظيماً ، والعائق كان واقعا .

فقلت : إنى رجل مظلوم من^(٦) جهته ، وعاتبٌ عليه فى معاملتى ، وشديدُ الغيظ لحرمانى ، وإن وصفته أُرَبِّيتُ^(٧) متصيفاً^(٨) ، وانتصفتُ منه مسرفاً^(٩) ، فلو كنتُ معتدل الحال بين الرضا والغضب ، أو عارياً منهما جملة ، كان الوصف أصدق ، والصدق به أخلق ؛ على أنى عملت رسالة فى أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نفسى الغزير ، ولفظى الطويل والقصير ، وهى فى المسوِّدة ولا جسارة لى على

(١) يريد بالباطلى أنه يأخذ بالشبهات والظنون الباطلة .

(٢) دهنه : دحرجة .

(٣) « وما أكتب » .

(٤) « والمجكوت » .

(٥) موضع هذا اللفظ فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا أو ما يفيد معناه .

(٦) « أمر » .

(٧) أربيت : زدت .

(٨) ورد فى الأصل بعد هذه الكلمة لام وميم : ولعلهما من زيادات النساخ ، لاستقامة الكلام بدونهما .

(٩) « مشتركاً » . وقد ورد بعد هذه الكلمة فى الأصل حاء وياء : ولعلهما من زيادات النساخ .

تحريرها ، فإن جانبه مهيب ، ولمكره ديب ، وقد قال الشاعر :
إلى أن يغيب^(١) المرء يُرجى ويُتقى ولا يعلم الإنسان ما فى المغيب
قال : دع هذا كله ، وأنسخ لى الرسالة من المسودة ، ولا يمنعك ذاك فإن العين
لا ترمقها والأذن لا تسمعها واليد لا تنسخها .

وبعد ، فما سألتك إلا وصفه بما جُبِلَ عليه ، أو بما كسب^(٢) هو بيديه من خير
وشر : وهذا غير منكر ولا مكروه ، لأمر الله تعالى ، فإنه مع علمه الواسع ، وكرمه
السابع ، يصف المحسن والمسيء ، ويثنى على هذا ويثن^(٣) على ذاك ؛ فأذكر لى
من أمره ما خف اللفظ به وسبق الخاطر إليه وحضر السبب له .

قلت : إن الرجل كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان ؛ قد نتف من كل
أدب خفيف أشياء ، وأخذ من كل فن أطرافا ؛ والغالب عليه كلام المتكلمين
المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة^(٤) بعبارة الكتاب ؛ وهو شديد
التعصب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم
والموسيقى والمنطق والعدد ؛ وليس [عنده]^(٥) بالجزء الإلهى خبر ، ولا له فيه
عين^(٦) ولا أثر ؛ وهو حسن القيام بالعروض والقوافى ؛ ويقول الشعر ، وليس بذاك ؛
وفى بديهته غزارة . وأما رويته^(٧) فخوارة ؛ وطالعه الجوزاء ، والشعرى قريبة منه ؛
ويتشيع لمذهب أبى حنيفة ومقالة الزيدية ، ولا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة ،
والناس كلهم محجمون عنه ، لجرأته وسلطته واقتداره وبسطته ؛ شديد العقاب
طفيف الثواب ، طويل العتاب ؛ بذىء اللسان ؛ يعطى كثيرا قليلا (أعنى يعطى
الكثير القليل) ، مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، بعيد الفيئة^(٨) قريب
الطيرة ، حسود حقود حديد ، وحسده وقف على أهل الفضل ، وحققه سار إلى أهل

(١) يغيب ، أى يموت . وفى الأصل « يعيش » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٢) كتب ، بالتاء .

(٣) « ينثو على ذلك » ، أى يخبر عنه بذنوبه ، يقال : « ثنا على فلان ذنوبه » ، إذا أخبر بها عنه وأشاعها .

(٤) كذا فى معجم الأدباء . والذى فى الأصل « مسترقة » .

(٥) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل ؛ ومكانها كلمة مطموسة تتعذر قراءتها .

(٦) « جبن ولا إبر » .

(٧) كذا فى معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٧٦ الطبعة الأولى . والذى فى الأصل : « بديهته » ، ولا يستقيم مع العبارة السابقة .

(٨) « النية » . والتصحيح عن معجم ياقوت . والفيئة : الرجعة .

الكفاية ؛ أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ، وأما المنتجعون^(١) فيخافون جفوته ؛ وقد قتل خلقا ، وأهلك ناسا ، ونفى أمة ، نخوة وتعتا وتجبرا وزهوا ؛ وهو مع هذا يخدعه الصبي ، ويخلبه الغبي ؛ لأن المدخل عليه واسع ، والمأوى إليه سهل ؛ وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أعار شيئا من كلامه ، ورسائل منشوره ومنظومه ؛ فما جُبْتُ الأرض إليه^(٢) من فرغانة ومصر وتفليس إلا لأستفيد كلامه وأفصح به ، وأتعلم البلاغة منه ؛ لكأنما رسائل مولانا سور قرآن ، وفقره فيها آيات فرقان ؛ واحتجاجه من ابتدائها إلى انتهائها برهان فوق برهان ؛ فسبحان من جمع العالم في واحد ، وأبرز جميع قدرته في شخص .

رسالتان كتب بهما المؤلف الى الوزير

أما الرسالة الأولى :

بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم خلّني بالتوفيق ، وأيّدني بالنصرة ، وأقرن منطقي بالسداد ، واجعل لي من الوزير وزير الممالك عقيب فارجة^(٣) من الغم ، وخاتمة موصولة بالنجاح ، فإنك على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير .
كنت وصلت إلى مجلس الوزير ، وفُزْتُ بالشرف منه ، وخدمت دولته ، وعلاه من صدرى بخبيثته ، ومن فؤادى بمحيضته ، وتصرفت من الحديث بإذنه في شجونه وفنونه ، كل ذلك آملا في جدوى أخذها ، وحظوة أحظى بها ، وزُلْفَى أَمِيسُ معها ، ومثالة أحسد عليها ؛ فتقبل ذلك كله ، ووعد عليه خيرا ولم يزل أهله ، وانقلبت إلى أهلى مسرورا بوجه مسفر ، ومُحيا طلق ، وطرف عازم^(٤) ، وأمل قد سد ما بين أفق العراق إلى صنعاء اليمن ، حتى إذا قلت للنفس : هذا معان الوزير ومعمره ، وجنابه ومحضره ، [فانشرحى مستفتح ، وتيمنى مقترحة ، وأطمئنى راضية مرضية ،

(١) « المنكفون » .

(٢) « إلا من فرغانة » وقوله « إلا » زيادة من الناسخ .

(٣) فى (١) : « نازحة » ؛ وهو تحريف .

(٤) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصول ولعلها تحريف إذ لم نقبين معنى وصف الطرف بهذا الوصف .

لا كدرة الشرب ، ولا مذعورة السرب [، حصلت من ذلك الوعد والضمان ، على بعض فعلات الزمان ؛ ولا عجب في ذلك من الزمان فهو بمثله ملئ ، وله فَعُول . وبقيت محمولاً بيني وبين إذكره - قرَن الله ساعاته بساعاته ، ووصل عز^(١) يومه بسعادة غده ؛ وغده بامتداد يده - حيران لا أريش ولا أبرى ، ثم رفعت ناظري ، وسدّدت خاطري ، وفصلت الحساب لي وعلى ؛ فوضّح العذر المبين ، المانع من استزادة المستزيدين ، وذلك أني رأيت أعباء الوزارة تؤود^(٢) سره ، وتتعب^(٣) باله ، والمملكة تفرغ ولهي عليه ، وتلقى بجرانها^(٤) له بين يديه ، والدولة تستمدّه التدبير الثاقب ، والرأي الصائب ، سوى أمور في خلاف ذلك لا يحررها رسم راسم ، ولا يقررها قسم قاسم ، ولا يحويها وهم واهم ، ولا يفوز بها سهم مساهم ، وهو يخطر في حواشي هذه الأحوال ، متأبطاً بواهظ الأثقال ، مفتيحاً غويص الأقفال^(٥) ، فسيح الصدر ، بساماً على العلات ، غير مكترث بهاك وهات ، يتلقى ما أعيا من ذلك باللي^(٦) ، وما أشكل بالإيضاح ، وما عسر بالتدبير ، وما فسّد بالإصلاح ، وما أرق بالعق ، وما خرق بالرتق ، وما خفي بالتكشيف ، وما بدا بالتصريف ، وما أودّ بالتثقيف ، وما لبس بالتعريف ، حتى أجمع على هواه قاصيها ودانيها ، وجرى على مراده خافيها وباديها ، واستجاب لأمره أبيها ومُنقادها ، وأتلف بلفظه نادرها ومُعْتادها ؛ فلما تيقنت^(٧) ذلك كله وقتلته خبراً ، أمسكت عن إذكره - نفس الله مدته - سالف عهده ، ومتقدّم وعده ، عالماً بأن أسرهما^(٨) مرعى عنده في صدر الكرم ، ومكتوب لديه في صحيفة المجد ، وثابت قبله في ديوان الحسنى . ولكن كان ذلك الامتنان^(٩) على رغم مني^(١٠) ، لأنى قتلت في أثنائه بين جنبى قلباً

(١) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « عن » مكان « عز » : وهو تحريف .

(٢) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « تؤد » : وهو تحريف .

(٣) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « وتتعبين » مكان « وتتعب » : وهو تحريف .

(٤) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « بجرانها » وهو تصحيف .

(٥) في الأصول « الأفعال » : وهو تصحيف .

(٦) في كلتا النسختين : « بالكي » بالكاف : وهو تحريف لا معنى له هنا . ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٧) في الأصل « نفثت » : وهو تحريف .

(٨) في كلتا النسختين : « ايسرهما » : والياء زيادة من الناسخ .

(٩) كذا وردت هذه الكلمة في الأصول : ولا معنى للامتنان هنا ، ولعل صوابه الكتمان أو « الإمساك » أو ما يفيد

ذلك أخذاً من قوله قبل : فأمسكت عن إذكره .

(١٠) في (١) على زعم من أبى فلبث إلى انيابه . مكان قوله على رغم مني لأنى قتلت في أثنائه .

مَغْرُورَ الرَّجَاءِ ، وَمَنْزُورَ الْعَزَاءِ ، عَلَى عَوَارِضَ لَمْ تَسْنَحْ فِي خَلْدِي ، وَلَمْ أَعْقِدْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا يَدِي .

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ مَعَاذِي إِلَى الْوَزِيرِ الْكَرِيمِ ، الْبَرِّ الرَّحِيمِ ، وَالْمَنَّةَ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي مِنْ عُفَاةِ جُودِهِ ، وَنَاشِئَةِ عُرْفِهِ ، وَوَارِدِ عِدَّةٍ ، وَقَادِحِي زُنْدِهِ ، وَمُقْتَبِسِي نُورِهِ ، وَمُضْطَلِّي نَارِهِ ، وَحَامِلِي نِعَمَتِهِ ، وَطَالِبِي خِدْمَتِهِ ، وَجَعَلَ خَاصَّتِي وَخَالِصَتِي مِنْ بَيْنِهِمْ رَوَايَةَ مَنَاقِبِهِ بِاللِّسَانِ الْإِتِّينِ ، وَنَشَرَ فُضَائِلِهِ بِالثَّنَاءِ الْأَحْسَنِ ، وَذَكَرَ آيَاتِهِ بِاللَّفْظِ الْأَفْصَحِ ، وَالاحتِجَاجَ لِسَدَادِ آرَائِهِ بِالْمَعْنَى الْأَوْضَحِ ؛ فَلَا زَالَ الْوَزِيرُ - وَزِيرُ الْمَمَالِكِ - مَمْدُوحًا فِي أَطْوَارِ الْأَرْضِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَدْبَاءِ وَالْحُكَمَاءِ ، وَفِي نَوَادِي الرُّؤَسَاءِ وَالْعُظَمَاءِ ، مَا أَبَ آثَبٌ^(١) ، وَغَابَ غَائِبٌ ، بِمَنَّةٍ وَلُطْفِهِ .

قَدْ نَادَيْتُ الْوَزِيرَ حَيًّا سَامِعًا ، وَخَيْرًا جَامِعًا ، وَهَزَزْتُ مِنْهُ صَارِمًا قَاطِعًا ، وَشِهَابًا سَاطِعًا ، وَاسْتَسْقَيْتُ مِنْ كَرَمِهِ سَحَابًا هَاطِلًا ، وَنُقَاخًا^(٢) سَائِلًا ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُجَنِّبَنِي مَرَارَةَ الْخَيْبَةِ ، وَخَسْرَةَ الْإِخْفَاقِ ، وَعَذَابَ التَّسْوِيفِ ، فَقَدْ تَلَطَّفْتُ بِالسُّحْرِ الْحَلَالِ ، وَالْعَذْبِ الزُّلَالِ ، وَجُهِدَ الْمُقِلُّ الْمُحْتَالَ ، وَهُوَ أَوْلَى بِمَجْدِهِ ، فِي تَدْبِيرِ عَبْدِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

هَذَا آخِرُ الرُّسَالَةِ الْأُولَى .

وَحَضَرَ وُضُوعَهَا إِلَيْهِ بِهَرَامٍ - لَعَنَهُ اللَّهُ - وَتَكَلَّمَ بِمَا يَشْبَهُ نَذَالَتَهُ وَخِسَّتَهُ وَتَنَنِيَّتَهُ ، فَمَا كُنْتُ أَمَنُهُ^(٣) ؛ وَمَا أَشَدَّ إِشْفَاقِي عَلَى هَذَا الْوَزِيرِ الْخَطِيرِ مِنْ شَوْمِ نَاصِيَةِ بُهْرَامٍ ، وَغِلِّ صَدْرِهِ ، وَقَلَّةِ نَصِيحَتِهِ ، وَلَوْمِ طَبْعِهِ ، وَخُبْثِ أَصْلِهِ ، وَسُقُوطِ فَرْعِهِ ، وَدَمَامَةِ مَنْظَرِهِ ، وَلَآمَةِ مَخْبَرِهِ ؛ حَرَسَ اللَّهُ الْعِبَادَ مِنْ شَرِّهِ ، وَطَهَّرَ الْبِلَادَ مِنْ عُرِّهِ وَضُرِّهِ .

(١) فِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ : « وَغَلَبَ غَالِبٌ » : وَهُوَ تَحْرِيفٌ فِي كِلْتَا الْكَلِمَتَيْنِ .

(٢) وَرَدَ هَذَا اللَّفْظُ بِالْيَاءِ وَالْفَاءِ ؛ وَلَعَلَّ صَوَابَهُ مَا اثْبَتْنَا .

(٣) فِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ : « أَمَلُهُ » بِالْأَمِ : وَهُوَ تَحْرِيفٌ . وَالسِّيَاقُ يَقْتَضِي مَا اثْبَتْنَا .

الرسالة الثانية

وأما الرسالة الثانية فهي التي كانت في هذه الأيام بعد استئذاني إياه في المخاطبة بالكاف ، حتى يَجْرَى الكلام على سَنَنِ الاسترسال ، ولا يُعْثَر في طريق الكتابة بما يَزَاحِمُ عليه من اللَّفْظِ وَاللَّفْظِ ، وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم . أيها الوزير ، جَعَلَ الله أَقْدَارَ دَهْرِكَ جَارِيَةً على تَحْكُمِ أَمَالِكَ ، وَوَصَلَ تَوْفِيقَهُ بِمَبَالِغِ مُرَادِكَ في أقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ ، وَمَكَّنَكَ مِنْ نَوَاصِي أَعْدَائِكَ ، وَثَبَّتَ أَوَاخِي دَوْلَتِكَ على ما في نُفُوسِ أَوْلِيَائِكَ .

يَجِبُ على كُلِّ مَنْ آتَاهُ الله رَأْيًا ثاقِبًا ، وَنُصْحًا حَاضِرًا ، وَتَنْبُهَا نَافِعًا ، أَنْ يَخْدُمَكَ مُتَحَرِّيًا لِرُسُوخِ دَعَائِمِ الْمَمْلَكَةِ بِسِيَاسَتِكَ وَرِيَادَتِكَ^(١) ، قَاضِيًا بِذَلِكَ حَقَّ الله عَلَيْهِ في تَقْوِيَتِكَ وَحَيَاطَتِكَ . وَإِنِّي أَرَى عَلَى بَابِكَ جَمَاعَةً لَيْسَتْ بِالكَثِيرِ - وَلَعَلَّهَا دُونَ الْعَشْرَةِ - يُؤَثِّرُونَ لِقَاءَكَ وَالْوُصُولَ إِلَيْكَ لَمَّا تُجِنُّ صُدُورُهُمْ مِنَ النَّصَائِحِ النَّافِعَةِ ، وَالبَلَاغَاتِ الْمُجْدِيَةِ ، وَالدَّلَالَاتِ الْمُفِيدَةِ ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِذَا أَهْلُوا لَذَلِكَ فَقَدْ قَضَوْا حَقَّكَ ، وَأَدَّوْا مَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ حُرْمَتِكَ ، وَبَلَّغُوا بِذَلِكَ مُرَادَهُمْ مِنْ تَفْضِيلِكَ وَأَصْطِنَاعِكَ ، وَتَقْدِيمِكَ وَتَكْرِيمِكَ ؛ وَالْحِجَابُ قَدْ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَكَ ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ وَسِيلَةٌ شَافِعَةٌ ، وَخِدْمَةٌ لِلْخَيْرَاتِ جَامِعَةٌ ؛ مِنْهُمْ - وَهُوَ أَهْلُ الْوَفَاءِ - ذُووُ كَفَايَةٍ وَأَمَانَةٍ ، وَنَبَاهَةٍ وَلَبَاقَةٍ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْلُحُ لِلْعَمَلِ الْجَلِيلِ ، وَلِرَتَقِ الْفَتْحِ الْعَظِيمِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يُمْتِعُ إِذَا نَادَمَ ، وَيَشْكُرُ إِذَا أَصْطَنَعَ ، وَيَبْذُلُ الْمَجْهُودَ إِذَا رُفِعَ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُمُ الدُّرَّ إِذَا مَدَحَ ، وَيُضْحِكُ الشَّغَرَ إِذَا مَزَحَ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ قَعَدَ بِهِ الدَّهْرُ لِسِنِّهِ الْعَالِيَةِ ، وَجَلَابِيْبِهِ الْبَالِيَةِ ، فَهُوَ مَوْضِعُ الْأَجْرِ الْمَذْخُورِ ، وَنَاطِقُ الشُّكْرِ الْمَنْظُومِ وَالْمُنْثُورِ ؛ وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى قَدْ عَكَفُوا فِي بُيُوتِهِمْ عَلَى مَا يَعْنِيهِمْ مِنْ أَحْوَالِ أَنْفُسِهِمْ ، فِي تَرْجِيَةِ عَيْشِهِمْ ، وَعِمَارَةِ آخِرَتِهِمْ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ خَصَاصَةٍ مُرَّةٍ ، وَمُؤْنٍ غَلِيظَةٍ ، وَحَاجَاتٍ مُتَوَالِيَةٍ ؛ وَلَهُمُ الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ وَالْبَيَانُ وَالتَّجَرُّبَةُ ، وَلَوْ وَثِقُوا بِأَنَّهُمْ إِذَا عَرَضُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْكَ ، وَجَهَّزُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الْأَدَبِ وَالْفَضْلِ إِلَيْكَ حَظُّوا مِنْكَ ، وَاعْتَرَّوْا بِكَ ، لَحَضَرُوا بِابِكَ ، وَجَشِمُوا الْمَشَقَّةَ إِلَيْكَ ؛ لَكِنَّ الْيَأْسَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ ، وَضَعُفَتْ مُنْتَهُمُ ،

(١) في كلتا النسختين : « وزيادتك » بالزاي المعجمة : وهو تصحيف .

وَعَكْسَ أَمْلَهُمْ ، وَرَأَوْا أَنْ سَفَّ التَّرَابِ ، أَخْفَتْ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَى الْأَبْوَابِ ، إِذَا دَنَوْا مِنْهَا دَفَعُوا عَنْهَا ؛ فَلَوْ لَحِظْتَ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ بِفَضْلِكَ ، وَأَدْنَيْتَهُمْ بِسَعَةِ ذَرْعِكَ وَكَرَمِ خِيَمِكَ ، وَأَصْغَيْتَ إِلَى مَقَالَتِهِمْ بِسَمْعِكَ ، وَقَابَلْتَهُمْ بِمِلْءِ عَيْنِكَ ، كَانَ فِي ذَلِكَ بَقَاءٌ لِلنَّعْمَةِ عَلَيْكَ ، وَصِيَّتُ فَاشٍ بِذِكْرِكَ ، وَثَوَابٌ مُؤَجَّلٌ^(١) فِي صَحِيفَتِكَ ، وَثَنَاءٌ مُعْجَلٌ عِنْدَ قَرِيبِكَ وَبَعِيدِكَ ؛ وَالْأَيَّامُ مَعْرُوفَةٌ بِالتَّقَلُّبِ ، وَاللَّيَالِي مَا خِضَّةٌ بِمَا يَتَعَجَّبُ مِنْهُ ذُو اللَّبِّ ، وَالْمَجْدُودُ مَنْ جُدَّ فِي جَدِّهِ ، أَعْنَى مَنْ كَانَ جَدُّهُ فِي الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِحِظِّهِ مِنَ الْآخِرَةِ ، وَلَآنَ يُوَكَّلُ الْعَاقِلُ بِالْإِعْتِبَارِ بغيرِهِ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُوَكَّلَ غَيْرُهُ بِالْإِعْتِبَارِ بِهِ .

أَيُّهَا الْوَزِيرُ ، اصْطِنَاعُ الرِّجَالِ صِنَاعَةٌ قَائِمَةٌ بِرَأْسِهَا ، قَلٌّ مَنْ يَفِي بِرَبِّهَا^(٢) ، أَوْ يَتَأَتَّى لَهَا ، أَوْ يَعْرِفُ خِلَافَهَا ، وَهِيَ غَيْرُ الْكِتَابَةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْبَلَاغَةِ وَالْحِسَابِ .

وَسَمِعْتُ ابْنَ سُورِينَ يَقُولُ : آخِرُ مَنْ شَاهَدْنَا مَمَّنْ عَرَفَ الْإِصْطِنَاعَ ، وَاسْتَحْلَى الصَّنَائِعَ ، وَارْتَاخَ لِلذِّكْرِ الطَّيِّبِ ، وَاهْتَزَّ لِلْمَدِيحِ ، وَطَرِبَ عَلَى نَعْمَةِ السَّائِلِ ، وَآغْتَنَمَ خَلَّةَ الْمُحْتَاجِ ، وَأَنْتَهَبَ الْكَرَمَ انْتِهَابًا ، وَأَلْتَهَبَ فِي عِشْقِ الثَّنَاءِ آلْتِهَابًا ، أَبُو مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيُّ ، فَإِنَّهُ قَدَّمَ قَوْمًا وَنَوَّهَ بِهِمْ ، وَنَبَّهَ عَلَى فَضْلِهِمْ وَأُخَوِّجَ النَّاضِرِينَ فِي أَمْرِ الْمُلْكِ إِلَيْهِمْ ، وَإِلَى كِفَايَتِهِمْ ، مِنْهُمْ أَبُو الْفَضْلِ الْعَبَّاسُ بْنُ الْحُسَيْنِ ، وَمِنْهُمْ ابْنُ مَعْرُوفٍ الْقَاضِي ، [وَمِنْهُمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْيَفْرَنْجِيُّ] ، وَمِنْهُمْ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِيُّ ، وَأَبُو الْخَطَّابِ الصَّابِيُّ ، [وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الطَّوِيلُ ، وَمِنْهُمْ أَبُو الْعَلَاءِ صَاعِدُ ، وَمِنْهُمْ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ الْيُثَيْمِ ، وَابْنُ حَفْصٍ صَاحِبُ الدِّيْوَانِ] ، وَفُلَانُ وَفُلَانُ ، هَؤُلَاءِ إِلَى غَيْرِ هَؤُلَاءِ^(٣) ، [كَأَبِي تَمَّامِ الزَّيْنَبِيِّ ، وَأَبِي بَكْرٍ الزَّهْرِيِّ] ، وَابْنُ قَرِيعَةَ ، وَأَبِي حَامِدٍ الْمَرْوَرُودِيِّ ، [وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَصْرِيِّ] ، وَأَبِي سَعِيدِ السَّيْرَافِيِّ ، [وَأَبِي مُحَمَّدٍ الْفَارَسِيِّ] ، وَابْنُ دُرُسْتُوهِ ، [وَابْنُ الْبِقَالِ] ، وَالسَّرِيُّ ، وَمَنْ لَا يُخْصَى كَثْرَةُ مِنَ التَّجَارِ وَالْعُدُولِ .

وَقَالَ لِي [ابْنُ سُورِينَ] : كَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَطْرَبُ عَلَى إِصْطِنَاعِ الرِّجَالِ كَمَا يَطْرَبُ

(١) فِي الْأَصُولِ « بَوَجْد » : وَهُوَ تَحْرِيفٌ صَوَابُهُ مَا اثْبَتْنَا كَمَا يَقْتَضِيهِ قَوْلُهُ بَعْدَ « مُعْجَل » .
 (٢) فِي (أ) : « يَسْقَى تَرْبَهَا » مَكَانَ « يَفِي بِرَبِّهَا » . وَفِي (ب) : « بِرَبِّهَا » بِالْيَاءِ الْمُثَنَّاةِ : وَهُوَ تَصْحِيفٌ فِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ . يَقَالُ : رَبُّ الصَّنِيعَةِ يَرْبِيهَا - بِضَمِّ الرَّاءِ - إِذَا نَمَاهَا وَتَعَاهَدَهَا .

(٣) فِي (ب) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ : « هَذَا إِلَى غَيْرِ هَذَا » .

سامِعُ الغِناءِ على الشَّبَابِيرِ^(١) ، وَيَرْتَاحُ كما يَرْتَاحُ مُدِيرُ الكَأْسِ على العشائر . وقال عنه : [إِنَّه] قال : والله لأكونَنَّ في دولة الدَّيْلَمِ ، أولَ مَنْ يُذَكَّرُ ، إنْ فاتني أنْ كنتُ في دَوْلَةِ بنى العَبَّاسِ آخِرَ مَنْ يُذَكَّرُ .

فلولا أنكَ - أدامَ اللهُ دَوْلَتَكَ - أَذِنْتَ لِي أنْ أَكْتُبَ إِلَيْكَ كُلَّ ما هَجَسَ في النُّفْسِ ، وَطَلَعَ به الرَأْيُ ممَّا فيه مَرَدٌّ على ما أَنْتَ فيه من هذا الثَّقَلِ البَاهِظِ ، وَتَنْبِيهِ على ما تُبَاشِرُهُ بِكاهِلِكَ البَضْحَمِ ، لم يَكُنْ خَطَرِي يَبْلُغُ مُوَاجَهَتَكَ بَلْفِظٍ يَثْقُلُ ، وإِشَارَةٍ تَغْلُظُ ، وَكِنَايَةٍ تَخْدِشُ^(٢) ، لَكِنَّكَ وَاللهُ يَأْخُذُ يَدَكَ ، وَيَقْرِنُ الصَّنْعَ الجميلَ بظَاهِرِكَ وباطنِكَ قد رَخَّصْتَ لِي في ذلك ، وَخَصَّصْتَنِي به من بين غَاشِيَةِ بابِكَ ، وَخَدَمَ دَوْلَتِكَ ، فَلذلك أَقولُ ما أَقولُ معتمداً على حُسْنِ تَقَبُّلِكَ^(٣) ، وَجميلِ تَكْفِيلِكَ^(٤) ، وَمُنْتَظَرِ تَفْضِيلِكَ ؛ وليس في أَبْوابِ السِّيَاسَةِ شَيْءٌ أَجْدَى وَأَنْفَعُ ، وَأَنْفَى لِلْفَسَادِ وَأَقْمَعُ ، من الاعتبارِ المَوْقِظِ للنفسِ ، الباعِثِ على اخْتِذِ الحَزْمِ ، وَتَجْرِيدِ العَزْمِ ؛ فَإِنَّ الوِكَالَ^(٥) وَالهُوَيْنَا قَلَمًا يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إلى دَرْكِ مَأْمُولٍ ، وَنَيْلِ مرادٍ ، وإِصابةِ مُتَمَنَّى . وقد قال رَجُلٌ كَبِيرُ الحِكْمَةِ ، مَعْرُوفُ الحُنْكَةِ : المَعْتَبَرُ كَثِيرٌ ، والمَعْتَبَرُ قَلِيلٌ . وَصَدَقَ هذا الرَّجُلُ الصَّالِحُ ، وَهو الحَسَنُ البَصْرِيُّ :

لو أَعْتَبَرَ من تَأَخَّرَ بمن تَقَدَّمَ ، لم يَكُنْ من يَتَحَسَّرُ في الناسِ^(٦) وَيَنْدَمُ ، وَلَكِنَّ اللهَ بَنَى هذه الدَّارَ على أن يَكُونَ أَهْلُهَا بين يَقْظَةٍ وَنَوْمٍ ، وَبين فَرَحٍ وَتَرْحٍ ، وَبين حَيْطَةٍ^(٧) وَوَرْطَةٍ ، وَبين حَزْمٍ وَغَفْلَةٍ ، وَبين نِزَاعٍ وَسَلْوٍ ، لَكِنَّ الأخِذَ بالحَزْمِ - وإن جَرَى عليه مَكْرُوهٌ - أَعْذَرُ عند نَفْسِهِ وعند كُلِّ مَنْ كَانَ في مَسْكِهِ ، مِنَ المُلْقَى بِيَدِهِ ، وَالمُتَدَلَّى بِغُرُورِهِ ، وَالسَّاعِي في ثُبُورِهِ ؛ وَمَا وَهَبَ اللهُ العَقْلَ لِأَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ عَرَّضَهُ لِلنَّجَاةِ ، وَلَا حَلَّاهُ بِالْعِلْمِ إِلَّا وَقَدْ دَعَاهُ إلى العَمَلِ بِشَرَائِطِهِ ، وَلَا هَدْيَاهُ الطَّرِيقَيْنِ (أَعْنَى الغَىَّ والرُّشْدَ) إِلَّا لِيُزَحِفَ إلى أَحَدِهِمَا بِحُسْنِ الاختِيَارِ .

(١) في كلتا النسختين : « الستائر » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام . والشبابير : جمع شبور ، وهو من آلات الموسيقى .

(٢) في كلتا النسختين : « تخرس » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق ما قبله .

(٣) في كلتا النسختين : « تقلابك » ؛ وهو تحريف .

(٤) في (ب) : « تكلفك » ؛ وهو تحريف .

(٥) ف (أ) : « الوكان » بالنون . وفي (ب) : « الوكاك » بالكاف ؛ وهو تحريف في كلتا النسختين .

(٦) في (ب) : « في الدنيا » .

في كلتا النسختين : « غبطة » ؛ ولعله تحريف ، إذ الغبطة لا تقابل الورطة ، والذي يقابلها الحبطة كما أثبتنا .

هذا بالأمس أبو الفضل العباس بن الحسين الوزير - وهو في وزارته وبسطة أمره ونهيه - قيل له ذات يوم : هذا التركي ساسنكر^(١) تفيًا بظله ، واعتصم بحبله ، واستسقى بسجله ، وارتو من سوره ، ولا يبلغه عنك ، ما يوحشه منك ، ويؤجفيه^(٢) عليك . وقد قيل :

★ أسجد لقرَد السوء في زمانه ★

وإذا لم تقدر على قطع يد جائرة ، فقبلها متهمة^(٣) منجدة غائرة . فلم يفعل ، حتى وجد أعداؤه طريقاً إليه ، فسلكوه وأوقعوه .
ثم قيل له في الوزارة الثانية : قد دقت مرارة النكبة ، وتحرقت بنار الشماتة ، وتأرقت على فرطات^(٤) العجز والفسالة ، وقد كان من ذلك كله ما كان ، ودار لك بما تمنيت^(٥) الزمان ؛ فأنظر أين تضع الآن قدمك ، وبأي شيء تدير لسانك وقلمك ، فإن مخلصك من ورطتك بالمرصاد ، وقد وعدت من نفسك إن أعاد الله يدك^(٦) إلى البسطة ، وردَّ حالك إلى السرور والغبطة ، أنك تجمل المعاملة ، وتنسى^(٧) المقابلة ، وتلقى وليك وعدوك بالإحسان إلى هذا ، والكف عن هذا ، حتى يتساوياً بنظرك ، ويتعبداً لك بتفضلك .

فكان من جوابه ما دلَّ على عتوه وثباته^(٨) ، لأنه قال ؛ أما سمعتم الله تعالى حيث يقول : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ؟
وقال لي القومسي^(٩) - ولم يعلم ما في فحوى هذا الكلام - : ماذا ؟ قلت :

(١) لم نجد هذا الاسم فيما راجعناه من معجمات الاعلام التركية : والذي وجدناه « سنجر » بالسين والجيم وبلاسين وألف في أوله .

(٢) في (أ) : « ويخيفه » : وهو تحريف .

(٣) في كلتا النسختين : « بهمه » : وهو تحريف .

(٤) في كلتا النسختين : « فطرات » : والظاهر أن في حروفه قلباً وقع من الناسخ . كما أن في كلتا النسختين : « وأرقت » مكان « وتأرقت » : وما اثبتناه أولى للملاءمة بينه وبين قوله قبل : « وتحرقت » .

(٥) في (ب) : « ظننت » : والمعنى يستقيم عليه أيضاً .

(٦) في (ب) : « أعاد الله بك إياك البسيطة » : وفي بعض كلماتها تحريف لا يخفى .

(٧) كذا في (أ) . والذي في (ب) : « وتنسى » : وهو تحريف . وتنسى المقابلة ، أي لا تقابل الذنب بما يستحقه من عقوبة بل تعفو .

(٨) وثباته ، أي ثباته على ما كان عليه من سوء السياسة .

(٩) في كلتا النسختين : « المسىء » : وهو تحريف ما ترى ، صوابه ما اثبتنا .

فحواه ولو عادوا إلى ما نُهوا عنه لَعُدْنَا [إلى مُقابَلَتِهِمْ بما اسْتَحَقُّوا عليه .
 وصدق ما قال الله عزَّ وجلَّ ، مَالَبَتْ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى
 أَوْرَدَهُ (١) وَلَمْ يُصْدِرْهُ وَأَعَثَّرَهُ وَلَمْ يُنْعِشْهُ ، وَسَلَّمْ إِلَى عَدُوِّهِ حَتَّى اسْتَلَّ رُوحَهُ مِنْ بَيْنِ
 جَنَّتَيْهِ ، شَافِيًا بِهِ وَمُشْتَفِيًا مِنْهُ ، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ خُسْرًا ، وَلَوْ اتَّقَى اللَّهُ لَكَانَ آخِرُ أَمْرِهِ
 يُسْرًا . وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

وَهَذَا بَعْدَهُ مُحَمَّدُ بْنُ بَقِيَّةَ طَغَى وَبَغَى ، وَاقْتَحَمَ ظِلْمَاتِ الظُّلْمِ وَالْعُسْفِ ،
 وَطَارَ بِجَنَاحِ اللَّهْوِ وَالْعَزْفِ ، وَالشُّرْبِ الْقَصْفِ ، وَمَلَّ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَضَلَّ بَيْنَ
 إِمْهَالِ اللَّهِ وَإِمْلَائِهِ ، فَحَاقَ بِهِ مَا ذَهَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَمَالُهُ ، وَخُرِبَ بَيْتُهُ ، وَافْتَضَحَ
 أَهْلُهُ ، وَكَيْفَ كَانَ يَسْلَمُ ؟ أَمْ كَيْفَ كَانَ يَنْجُو وَقَدْ قَتَلَ ابْنَ السَّرَّاجِ بِلا ذَنْبٍ ،
 وَالْجَرَجَرَاثِيَّ (٢) بِلا حِجَّةٍ ، وَضَرَبَ ابْنَ مَعْرُوفٍ بِالسَّيَاطِ وَأَبَا الْقَاسِمِ - أَخَا لِأَبِي مُحَمَّدٍ
 الْقَاضِي - وَشَهَرَهُ عَلَى جَمَلٍ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ ؟ !
 وَالتَّشَفَّى حُلُوَ الْعَلَانِيَةِ ، وَلَكِنَّهُ مَرُّ الْعَاقِبَةِ ، وَكَأَنَّ الْحَفِيزَةَ إِنَّمَا خُلِقَتْ لِتُعْتَقَدَ (٣) ،
 وَالْحَقْدَ إِنَّمَا وُجِدَ لِيُبْلَغَ بِهِ مَا يُسِرُّ الشَّيْطَانُ .

وَكَأَنَّ الْعَفْوَ حَرَامًا ، وَالْكُظْمَ (٤) مُحْظُورًا ، وَالْمُكَافَأَةَ مَأْمُورًا بِهَا .
 وَهَذَا بِالْأَمْسِ عَلَى بْنِ مُحَمَّدٍ ذَوِ الْكِفَايَتَيْنِ ، اغْتَرَّ بِشَبَابِهِ ، وَلَهَا عَنْ الْحَزْمِ وَالْأَخْذِ
 بِهِ فِيمَا كَانَ أَوَّلَى بِهِ ، وَظَنَّ أَنَّ كِفَايَتَهُ تَحْفَظُهُ ، وَنَسَبَهُ مِنْ أَبِيهِ يَكْنُفُهُ ، وَبِرَاءَتَهُ تَحْتَجُّ
 لَهُ ، وَذُنُوبَهُ الصَّغِيرَةَ تُغْتَفَرُ ؛ لِيَلَائِهِ الْمَذْكُورُ ، وَغَنَائِهِ الْمَشْهُورُ ؛ وَمَشَى فَعَثَرَ ،
 وَرَابَ (٥) فَخْثَرَ ، وَالْأَوَّلُ يَقُولُ :

مَنْ سَابَقَ الدَّهْرَ كَبَا كَبُوءَةً لَمْ يَسْتَقِلْهَا آخِرَ الدَّهْرِ
 فَأَخْطُ مَعَ الدَّهْرِ إِذَا مَا خَطَا وَأَجِرَ مَعَ الدَّهْرِ كَمَا يَجْرَى
 وَقَالَ لِي الْخَلِيلُ - وَكَانَ لَطِيفَ الْمَحَلِّ عِنْدَهُ ، لِمَا كَانَ يَرَى مِنْ اخْتِصَاصِ أَبِيهِ
 لَهُ ، وَلِمَا يَظْهَرُ مِنْ فَضْلِهِ عِنْدَهُ - : قُلْتُ لَهُ يَوْمًا : يَا هَذَا ، فِي أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ ؟ ! وَيَأَى

(١) أوردته ولم يصدره فاعل الفعلين ضمير يعود على الكلام السابق ذكره . أى وردته كلامه الخ .

(٢) فى (١) : « الجزجاني » .

(٣) فى (١) : « لتعتد » . وفى (ب) : « لتنفذ » : وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

(٤) فى كلتا النسختين : « والطم » : وهو تحريف .

(٥) فى (١) : « وداب فخر » . وفى (ب) : « وداب فخر » : ولعل الضواب ما أثبتنا .

شَيْءٌ تَعَلَّلُ؟! وقد شُجِدَتْ المَوَاسِي ، وَحُدِّدَتِ الأَنْيَابُ ، وَفُتِلَتِ المَرَاثِرُ ^(١) ،
وُنَصِبَتِ الفِخَاخُ ، وَالْعِيُونُ مِحْدَقَةٌ نَحْوَ القَطِيعَةِ ، وَالْأَعْنَاقُ صُورٌ ^(٢) إِلَى الفَظِيعَةِ ،
وَأَنْتَ لَاهٍ سَاهٍ عَمَّا يُرَادُ بِكَ بَعْدُ؟ يَسِيْبُكَ ^(٣) هَذَا المَزْرَفُ ^(٤) وَهَذَا المُرْجِي ^(٥) وَهَذَا
المُعْرَضُ ^(٦) ، وَهَذَا الحَلِيقُ ، وَهَذَا التَّيْفُ ، وَهَذَا المَعْقَرُ الصُّدْغُ ، وَهَذَا
المَصْفُوفُ الطَّرَةُ ، وَبِالْكَاسِ ^(٧) وَالطَّاسُ ، وَالْغِنَاءُ وَالْقَصْفُ ، وَالنَّايُ وَالْعُودُ ،
وَالصُّبُوحُ وَالْغُبُوقُ ، وَالشَّرَابُ المُرُوقُ العَتِيقُ ؛ وَاللَّهُ مَا أَدْرِي مَا أَصْنَعُ ، إِنْ نَسَكْتُ
عَنْكَ كَمِدْتُ ، وَإِنْ نَصَحْتُكَ خِفْتُ مِنْكَ ؛ وَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَشْتِبَاهِ الرَّأْيِ ، وَاشْتِبَاكِ
الْأَمْرِ ، وَقِلَّةِ الْأَحْتِرَاسِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَمَّا يَجْرِي مِنْ أَفْوَاهِ النَّاسِ .

يَاهَذَا ، سُوءُ الاسْتِمْسَاكِ خَيْرٌ مِنْ حُسْنِ الصَّرْعَةِ ، وَتَلَقَّى الْأَمْرَ بِالْحَزْمِ وَالشَّهَامَةِ
أَوَّلَى مِنْ اسْتِدْبَارِهِ بِالْحَسَرَةِ وَالنَّدَامَةِ ، وَمَنْ لَا تَجْرِبَةَ لَهُ يَقْتَبِسُ مِنْ مَنْ لَهُ تَجْرِبَةٌ ، فَإِذَا
نَقِبَ الْخُفُّ دَمِيَ الْأَظْلَى . فَقَالَ : قَدْ فَرَّغَ اللَّهُ مِمَّا هُوَ كَاثِنٌ ، وَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ
لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

قَالَ : قُلْتُ لَهُ : مَا أَطْلَعَكَ اللَّهُ عَلَى كَائِنَاتِ الْأُمُورِ ، وَلَا أَعْلَمَكَ بِعَوَاقِبِ
الْأَحْوَالِ ، وَإِنَّمَا عَرَفَكَ حَظُّكَ بَعْدَ أَنْ ^(٨) وَفَّرَ عَقْلَكَ ، وَأَحْضَرَكَ اسْتَطَاعَتَكَ ،
وَأَوْضَحَ ، لِقَلْبِكَ مَا عَلَيْكَ وَلَكَ ، حَتَّى يَسْتَشِفَّ وَيَسْتَكْشِفَ ، وَمَلَكَكَ النَّوَاصِي حَتَّى
تَمُنَّ ^(٩) وَتُرْسِلَ ، وَمَا طَالَبَكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَزَاحَ عِلَّتَكَ ، وَلَا عَاقِبَكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَنْذَرَكَ
وَأَنْظَرَكَ ، وَبِمِثْلِ هَذَا تُطَالِبُ أَنْتَ مَنْ هُوَ دُونَكَ مِنْ خَدَمِكَ وَحَشَمِكَ ، وَأَوْلِيَائِكَ

(١) فِي (أ) : « وَقَبِلْتَ » . وَفِي (ب) : « وَقَتَلْتَ » ؛ وَهُوَ تَصْحِيفٌ فِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ . وَفِي (أ) : « الْمَدَابِرُ » مَكَانُ
« الْمَرَاثِرِ » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ أَيْضًا . وَالْمَرَاثِرُ : الْحَبَالُ ، جَمْعُ مَرِيرَةٍ .

(٢) صُورٌ ، أَيُ مَائِلَةٌ . إِلَى الْفَظِيعَةِ ، أَيُ إِلَى النُّكْبَةِ الْفَظِيعَةِ . وَفِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ : « الْعَظِيمَةُ » . وَمَا أَثْبَتْنَاهُ
هُوَ مَا يَسْتَقِيمُ بِهِ السَّجْعُ الَّذِي التَزَمَهُ الْمُؤَلِّفُ فِي بَعْضِ فُقَرَاتِهِ .

(٣) فِي (أ) : « يَعْدُرُ تَشْيِبُكَ » . وَفِي (ب) : « يَعْدُ بِسَيْبِكَ » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ فِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ .

(٤) الْمَزْرَفُ الَّذِي يَجْعَلُ صَدْغِيهِ كَالزَّرْفَيْنِ ، وَهِيَ الْحَلَقَةُ .

(٥) كَذَا فِي (ب) وَالَّذِي فِي (أ) « الْمَرْجِنُ » ، وَلَا مَعْنَى لَهُ هُنَا .

(٦) الْمَعْرَضُ بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ الَّذِي نَبَتَ شَعْرُ عَارِضِيهِ . كَمَا يَقَالُ عَذْرُ الْغُلَامِ بِتَشْدِيدِ الذَّالِ إِذَا نَبَتَ شَعْرُ عَذَارِهِ .

(٧) وَبِالْكَاسِ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ قَبْلَ : « لَاهٍ » .

(٨) كَذَا فِي (ب) . وَالَّذِي فِي (أ) : « مَقْدَارُ » مَكَانُ « بَعْدَ أَنْ » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٩) فِي (أ) : « تَمَلُّ وَتُرْسِدُ » . وَفِي (ب) : « تَمَلُّ مَكَانَ « تَمَلُّ » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ فِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ صَوَابُهُ
مَا أَثْبَتْنَا . وَتَمُنُّ وَتُرْسِلُ ، أَيُ تَمُنُّ بِالْعَفْوِ عَنْ أَسَاءٍ ، وَتُرْسِلُهُ مِنْ أَمْسِكَتِهِ ، أَيُ تَطْلُقُهُ .

وأعدائك ، وهذا الذى أعذبتك عليه هو الذى به تعذر غيرك وتراه ضالاً فى مسلكه ، متعرضاً لمهلكه .

فقال : أَيْظَلِمُنِي وَلِيٌّ نِعْمَتِي صَاحِبًا بِلا ذَنْبٍ ، وَيَجْتَاخُنِي (١) بِلا جَرِيْمَةٍ ؛ وَيُثْلِمُ دَوْلَتَهُ بِلا حُجَّةٍ ؟

قلتُ : الله يَفِيكُ وَيَكْفِيكَ ، نَرَاكَ بِلا ذَنْبٍ ، وَنَجِدُكَ بَرِيئاً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ، وَغَيْرُكَ لَا يَرَاكَ بِهذه العَيْنِ ، وَلَا يَحْكُمُ لَكَ بِهذا الْحُكْمِ ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَرَى فُرْصَةً فَانْتَهِزْهَا ، وَإِنْ كُنْتَ تَحْلُمُ بَغُضَّةٍ (٢) فَاحْتَرِزْ مِنْهَا ؛ فَأَبْوَابُ النِّجَاةِ مُفْتَتِحَةٌ ، وَطُرُقُ الْأَمَانِ مُتَوَجِّهَةٌ ، وَالْأَخْذُ بِالاحتِيَاظِ وَاجِبٌ ، قَدْ قَرَّبَ الشَّائِخُ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ ، وَالْقِيَامَةُ قَدْ قَامَتْ بِالْإِرْجَافِ ، وَالطَّيْرَةُ قُشْعَرِيرَةُ النَّفْسِ ، كَمَا أَنَّ الْقُشْعَرِيرَةَ طَيْرَةُ الْبَدَنِ ، وَالْأَسْتِرْسَالُ كَلَالُ الْحِسِّ ، وَالْقَالَ لِسَانُ الزَّمَانِ ، وَعُنْوَانُ الْحَدِثَانِ ، وَلَا يَقَعُ فِي الْأَفْوَاهِ إِلَّا مَا يُوجِبُ الْحَذَرَ ، وَيَبْعَثُ عَلَى الرَّأْيِ وَالنَّظَرِ ، وَاسْتِقْرَاءِ الْأَثَرِ وَالْخَبَرِ .

قال : أَمَّا أَنَا بَعْدَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فَقَدْ اسْتَظْهَرْتُ بِمُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ صَاحِبِ نِسَابُورٍ ، وَبِفَخْرِ الدَّوْلَةِ وَهُوَ بِهِمَاذَانِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَبِعِزِّ الدَّوْلَةِ وَهُوَ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ ؛ وَمَتَى حَرْبٌ حَارِبٍ ، وَرَأْبٌ رَائِبٍ ، أُؤَيِّتُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ .

قال : قلتُ : هَاهُنَا مَا هُوَ أَسْهَلُ مِنْ هَذَا وَإِنْ كَانَ أَهْوَلُ ، وَأَنْجَى وَإِنْ كَانَ أَشْجَى ، وَأَقْرَبُ وَإِنْ كَانَ أَعَزَبُ .

قال : مَا هُوَ ؟ فَرِّجْ عَنِّي وَأَهْدِنِي .

قلتُ : لَمَّا يَدْخُلُ هَذَا الْوَارِدُ [الدَّارَ] ، وَيَدْنُو مِنْ طَرَفِ الْبَسَاطِ ، تُنْدِرُ رَأْسَهُ عَنْ كَاهِلِهِ ، وَتُلْقَى شِلْوُهُ فِي مَزْبَلَةٍ ، فَإِنَّ الْهَيْئَةَ تَقَعُ ، وَالنَّائِرَةُ تَخْبُو ، وَالْعَجَبُ يَغْمُرُ ، وَالظُّنَّةُ تَزُولُ ، وَالصَّدْرُ يَشْتَفِي ، وَالْإِعْتِذَارُ يَنْتَفِي ؛ وَيُكْتَبُ إِلَى مَوْفِدِهِ أَنَّ الرَّأْيَ أَوْجِبَ هَذَا الْفِعْلَ ، لِأَنَّهُ غَلَبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهُ وَافَى لِكَيْدِ يَوْصِلُهُ إِلَى ، وَبِلَاءٍ يُفْرِغُهُ عَلَى ، فَأَزَلْتُ هَذَا الظَّنَّ بِالْيَقِينِ ، وَدَفَعْتُ الشُّبْهَةَ بِالْجَلَاءِ ، وَاسْتَخْلَصْتُ النُّورَ مِنَ الظَّلَامِ ؛ وَلِأَنَّهُ تَبَعَدَ سَاقِطاً مِنْ خَدَمِكَ ، يَسُوءُ ظَنِّي بِهِ مِنْ جِهَتِكَ ، وَيَقْدَحُ فِي طَاعَتِي ، [وَيُضْرِمُ فِي نَارِ التُّهْمَةِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ؛ خَيْرٌ لِي فِي نَصِيحَتِي لِدَوْلَتِكَ ، وَخَيْرٌ لَكَ] فِي

(١) كَذَا فِي (ب) . وَالَّذِي فِي (أ) : « يَجْنِينَا » .

(٢) فِي (أ) : « بَعْضٌ » بِالْعَيْنِ وَالضَّادِ . وَفِي (ب) : « بِقِصَّةٍ » بِالْقَافِ وَالضَّادِ ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ صَوَابُهُ مَا الْبَتْنَا .

بقائى (١) على أمرك ونهيك ، من أن يلتأت ضميرى فى سياسة دولتك ، وتحول
نيتى (٢) عما عهدت من القيام بحق جندك ورعييتك ، وحفظ قاصيتك ودانيتك .
فقال : هذا أعظم ، والله المستعان .

وليتنى أصبت بهذا الرأى (٣) أمراً علاً عقله ، فيقبله ببيان ، أو يرده ببرهان ، فكان
يقوى أو يضعف ، ويقدم عليه أو يحجم عنه ، فإن المبرم أقوى من السجيل ،
والسمين أحمد من النحيل ؛ ثم كان ما كان . وكان مشايخ العراق والجبل يرون
ما حدث بذلك الفتى أمراً فرياً ، وظلماً عبقرياً .
وحدثنى القومسى أنه لم يتقدم بذلك أمر ، ولا سبق به إذن ، ولكن لما حدث
ما حدث ، وقع عنه إمساك ، وسيرت الكراهية والإنكار .

وللأمور أيها الوزير ظهور وبطون ، وهواد وأعجاز ، وأوائل وأواخر ؛ وليس على
الإنسان أن يدرك النجاح فى العواقب ، وإنما عليه أن يتحرز فى المبادئ ؛ ولهذا
قال القائل :

لأمر عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه
وقال سليمان بن عبد الملك أو غيره من أهل بيته : ما لمت نفسى على فوت أمر
بدأته بحزم ، ولا حميتها على درك أمر بدأته بعجز .

هاهنا ناس إذا تلاقوا ينفت بعضهم إلى بعض بما هو صريح وكناية ، ويحتاج الأمر
إلى ابن يوسف ، ويستملى (٤) الخبيث من الجالس فوق مشرعة مكان الروايا .
(٥) وليس يصح كل ما يقال فيروى على وجهه ، وليس يخفى أيضاً كل ما يجرى
فيمنك عنه ؛ والأمور مَرَجَة ، والصدور حَرَجَة ، والاحتراش واجب ، . والنصح

(١) كذا فى (ب) . والذى فى (ا) : « ثنائى » : وهو تحريف .

(٢) فى كلتا النسختين : « بينى » : وهو تصحيف .

(٣) وردت هذه العبارة فى كلتا النسختين هكذا « وليتنى اصبت من امر بهذا الرأى على عقله » : وفيها تقديم
وتأخير وتحريف إذ لا معنى لها على هذا الوجه ؛ ولعل الصواب ما اثبتنا .

(٤) عبارة (ا) : « ومسلم الخبيث من الحاليين فوق مشرعة » : وفيها تحريف ظاهر وفى (ب) : « الحبيب » مكان
« الخبيث » : وهو تصحيف أيضاً . ويريد بالخبيث ابن يوسف .

(٥) ورد فى (ا) قبل قوله : « وليس يصح » قوله : « فصل » .

مقبول ، والرأى مُشترك ، والثقة بالله من اللوازم على مَنْ عَرَفَهُ وآمَنَ بِهِ ، وليس مِنْ
الله عزَّ وجلَّ بُدٌّ على كُلِّ حال .

والله أسألُ الدفاعَ عنكَ ، والوقايةَ لكَ ، فى مُصْبِحِكَ ومُمْسَاكَ ، وفى مَبِيتِكَ
ومَقِيلِكَ ، وشهادَتِكَ وَغَيْبَتِكَ ، ولذوى مليحاً^(١) فى هذا الباب نَفْخٌ وإيقاد ، وتناقلٌ
وأثِمَار^(٢) ، ومَسْئَلَةٌ وجَوَاب .

وعند الشيخ أبى الوفاء مِنْ هذا الحديث ومن غيره ممَّا يَتَّصِلُ بِهِ من ناحية ابنِ
اليزيدى ما يجب أن يُصَاحَّ له بالأذنِ الواعية ، ويُقَابَلُ بالنَّفْسِ الراحية ، ويُداوَى
بالدَّواءِ الناجع ، وتُحَسَّمْ مادَّتُهُ من الأصل ، فإنَّ الفَسَادَ إِذْ زال حَصَلَ مكانه الصَّلاح .
وليس بَعْدَ المَرَضِ إِلا الإِفْراق ، ولا بَعْدَ التَّنَزُّعِ إِلا الإِغراق .

إلى هاهنا انتهى نَفْسى بالنُّصح وإن كانت شَفَقَتى^(٣) تتجاوَزُهُ ، وجِرْصى يَسْتَعْلَى
عليه ، لكننى خادم ، وكما يجب على أن أُخْدَمَ بِنِيَّاتٍ^(٤) الصدر ، فينبغى أن أُلْزَمَ
الحَدَّ بِحُسْنِ الأدب .

والله إِنى لَوَادُّ مُخْلِصٌ ، وَعَبْدٌ طائع ، وَرَجائى اليومَ أَقْوَى من رَجائى أَمْس ،
وَأَملى غَدًا أَبْسَطَ^(٥) من أَملى اليوم ؛ أَشْكُو إِلَيْكَ الأَرْقَ بالليلِ فِكْرًا فيما يقال ،
وَتَحَفُّظًا^(٦) ممَّا يُنال ، وتَوْهُمًا لِمَا لا يكون [إن كان] ، وَشُرَّ العِدا ، الذين يَتَمَنُّونَ
لأولى نِعْمَتِهِم الرَّدَى ، وَيَبْتَغُونَ النُّكَاثَ^(٧) وَيَكْسِرُونَ الأَجْفَانَ^(٨) ، ويتخازرون
بالأعين ، وَيَتَجَاهَرُونَ بالأذى إِذَا تَلَاقُوا ، وَيَتَهَامَسُونَ بالألسُنِ إِذَا تَدَانَوْا ، والله يَصْرَعُ
جُدُودَهُمْ ، وَيُضْرِعُ خُدُودَهُمْ بين يديكَ ؛ وهذه الرِّقَّةُ مِنى والحَفَاوَةُ ، وهذه الرِّجْشَةُ
والقَلَقُ ، وهذا التَّقْبُعُ والتَفَرُّعُ كُلُّهُ ، لأننى ما رأيتُ مِثْلَكَ ، ولا شَاهَدْتُ شِبْهَكَ ، كَرَمَ
خِيم ، وَلِينَ عَرِيكَ ، وَجُودَ بَنان ، وَحُضُورَ بشر ، وَتَهَلُّلَ وَجْهِ ، وَحُسْنَ وَعْد ، وَقَرَبَ

(١) كَذَا وردت هذه العبارة فى (ب) ولم نكتبين من هم ذوو مليحاً .

(٢) فى كلتا النسختين : « وتناقل واثمار » ، وهو تصحيف .

(٣) فى كلتا النسختين : « شفقتى » ، وهو تحريف .

(٤) فى (أ) : « تبليان » ، وفى (ب) : « بئبات » ، وهو تصحيف .

(٥) فى (ب) : « انشط » .

(٦) فى (ب) : « وغيظا » .

(٧) فى (ب) : « البيايت » ، وهو تحريف .

(٨) فى (أ) : « الاظفار » ، وهو تحريف .

إنجاز ، وبذل مال ، وحب حكمة^(١) .

قد شاهدتُ ناسًا في السَّفَر والحَضَر ، صِغارًا وكبارًا وأوساطًا ، فما شاهدتُ مَنْ يَدِينُ بالمَجْد ، وَيَتَحَلَّى^(٢) بالجلود ، وَيَرْتَدِي بالعَفْو ، وَيَتَأَزَّرُ^(٣) بالحِلْم ؛ وَيُعْطَى بالجُزَاف ، وَيَفْرَحُ بالأضياف ، وَيَصِلُ الإسعاف بالإسعاف ، والإتحاف بالإتحاف ، غيرك .

والله إِنَّكَ لَتَهْبُ الدرهمَ والدينارَ وكأنَّكَ غَضَبَانُ عليهما ، وتُطْعِمُ الصادرَ والواردَ كأنَّ اللهَ قد آسَخَلَكَ على رِزْقِهما ؛ ثم تَتَجَاوَزُ الذهبَ والفضَّةَ إلى الثيابِ العزيزة ، والخَلَعِ النفيسة ، والخَيْلِ العِتاق ، والمَرَاكِبِ الثقال ، والغُلَّمانَ والجواري ، حتَّى الكُتُبَ والدفاترَ وما يَضُنُّ به كُلُّ جَواد ؛ وما هذا مِنْ سَجَايا البَشَرِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فاعِلُ هذا نبيًّا صادقًا ، ووليًّا لله مُجتبى ، [فَإِنَّ اللهَ قد أَمَّنَ هذا الصنفَ من الفقر ، وَرَفَعَ من قلوبهم عِزَّ المال] ، وهَوَّنَ عليهم الإفراجَ عن كُلِّ مُنْفَسٍ^(٤) ، ياقوتًا كان أودرًا ، ذهبًا كان أو فضةً ؛ كفاكَ اللهُ عَيْنَ الحاسِدين ، وَوَقَاكَ كَيْدَ المُفْسِدين ، الَّذِينَ أُنْعِمْتَ عليهم بالأمس على رُؤوسِ الأشهاد ، وكانوا كَحَصَى فجعلتَهُم كالأطواد ؛ وهم يَكْفُرُونَ بأيادِيكَ ، ويوالُونَ أَعَادِيكَ ، وَيَتَمَنُّونَ لَكَ ما أَرْجُو أَنْ اللهُ يَعْصِبَهُ برُؤوسِهِم ، وَيُنْزِلُهُ على أرواحِهِم ، وَيُذِيقَهُم وَبَالَ أَمْرِهِم ، وَيَجْعَلُهُم عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ يَراهِمْ وَيَسْمَعُ بِهِمْ ، كانَ اللهُ لَكَ وَمَعَكَ ، وحافظَكَ وناصِرَكَ .

أُطِلْتُ الحَدِيثَ تِلْذُذًا بِمُواجَهَتِكَ ، وَوَصَلْتُهُ خِدْمَةً لِدَوْلَتِكَ ، وَكَرَّرْتُهُ تَوْقَعًا لِحُسْنِ مَوْقِعِهِ عِنْدَكَ ، وَأَعَدْتُهُ وَأَبْدَيْتُهُ طَلَبًا لِلْمَكَانَةِ فِي نَفْسِكَ .

وَأَرْجُو أَنْ شاءَ اللهُ أَلَّا أُحْرَمَ هَبَّةً مِنْ رِيحِكَ ، وَنَسِيمًا مِنْ سَحَرِكَ ، وَخَيْرَةً بِنَظَرِكَ . لَمْ أَوْفُقْ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْآخِرَةِ ، وَاللهُ ما يَمُرُّ بِى يَأْسٌ مِنْ إِنْعامِكَ فَأُقَوِّيه بِالرَّجَاءِ ، وَلَا يَعْتَرِينِي وَهْمٌ فِي الْخِيَّةِ لَدَيْكَ فَأَتَلَفَاهُ بِالْأَمَلِ . إِنَّمَا قُصَارَى أُمْنِيَّتِي إِذَا حُكِّمْتُ أَنْ أُعْطَى فِيكَ سُؤْلِي بِالْبَقَاءِ الْمَدِيدِ ، وَالْأَمْرِ الرَّشِيدِ ، وَالْعَدُوِّ الصَّرِيعِ ، وَالْوَلِيِّ الرَّفِيعِ ،

(١) كذا في (ب) . والذي في (أ) : « وبذل ما أوجب حكمة » ، وهو تحريف كما لا يخفى .
(٢) في كلتا النسختين : « وينتحل » ، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، إذ ليس انتحل الجود مما يمدح به .
(٣) في كلتا النسختين : « وبيارز » ، وهو تحريف .

(٤) كذا في (أ) . والذي في (ب) : « معسر » ، ولا يستقيم معه الكلام الآتى بعده .

والدُّوْلَةُ الْمُسْتَبِيَّةُ ، والأحوالِ الْمُسْتَحْبَّةُ ، والآمالِ الْمَبْلُوْغَةُ ، والأمانى الْمُدْرَكَةُ ، مع الأمرِ والنَّهْيِ النَّافِذَيْنِ ، بَيْنَ أَهْلِ الْخَافِقَيْنِ ؛ وَاللَّهُ يُبَلِّغُنِي ذَلِكَ بِطَوْلِهِ وَمَنْهً .
 وآخرُ ما أقول ، أيها الوزير : مِرْ بِالصَّدَقَاتِ ، فَإِنَّهَا مَجْلَبَةُ السَّلَامَاتِ وَالْكَرَامَاتِ ،
 مَدْفَعَةُ لِمَكَارِهِهِ وَالْآفَاتِ ؛ وَاهْجُرِ الشَّرَابَ ، وَأَدِمِ النَّظَرَ فِي الْمُصْحَفِ ، وَافْزَعْ إِلَى
 اللَّهِ فِي الاسْتِخَارَةِ ، وَإِلَى الثَّقَاتِ بِالِاسْتِشَارَةِ ؛ وَلَا تَبْخُلْ عَلَى نَفْسِكَ بِرَأْيٍ غَيْرِكَ ،
 وَإِنْ كَانَ خَامِلًا فِي نَفْسِكَ ، قَلِيلًا فِي عَيْنِكَ ، فَإِنَّ الرَّأْيَ كَالدُّرَّةِ الَّتِي رُبَّمَا (١) وَجِدْتَ
 فِي الطَّرِيقِ وَفِي الْمَزْبَلَةِ ، وَقَلٌّ مِنْ فَرْعٍ إِلَى اللَّهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، وَإِلَى الصَّدِيقِ
 بِالِاسْعَادِ (٢) مِنْهُ ، إِلَّا أَرَاهُ اللَّهُ النَّجَاحَ فِي مَسْئَلَتِهِ ، وَالْقَضَاءَ لِحَاجَتِهِ ؛ وَالسَّلَامَ .
 فقال لى الوزير بعد ما قرأ الرسالة : يَا أَبَا مُزَيْدَ (٣) ، بَيَّضْتُهَا ، وَعَجِبْتُ مِنْ تَشْقِيقِ
 الْقَوْلِ فِيهَا ، وَمِنْ لُطْفِ (٤) إِيْرَادِكَ لَهَا ، وَمِنْ بِلَّةِ رِيْقِكَ بِهَا .
 وَاللَّهُ يُحَقِّقُ مَا نَأْمُلُهُ لَهُ ، وَنَرْجُوهُ لَأَنْفُسِنَا ، وَيَنْحَسِرُ عَنَّا هَذَا الضُّبَابُ الَّذِي رَكَدَ
 عَلَيْنَا ، وَيَزُولُ الْغَيْمُ الَّذِي اسْتَعْرَضَ فِي أَمْرِنَا ، وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى
 اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ .

رسالة فى شكوى البؤس ورجاء المعونة وجّه بها المؤلف إلى الشيخ أبى الوفاء
 المهندس الذى كتب له المؤلف هذا الكتاب . وختم كتابه بها :
 أيها الشيخ ، سَلَّمَكَ اللَّهُ بِالصُّنْعِ الْجَمِيلِ ، وَحَقَّقَ لَكَ وَفِيكَ وَبِكَ غَايَةَ الْمَأْمُولِ .
 هَذَا آخِرُ الْحَدِيثِ ، وَخَتَمْتُهُ بِالرَّسَالَتَيْنِ ، وَيَتَقَرَّرُ جَمِيعُ مَا جَرَى وَدَارَ (٥) عَلَى
 وَجْهِهِ ، إِلَّا مَا لَمَمْتُ شَعْنًا ، وَزَيَّنْتُ (٦) بِهِ لَفْظًا ، وَزَيَّدْتُ مَنْقُوصًا ، وَلَمْ أَظْلِمْ مَعْنَى
 بِالتَّحْرِيفِ ، وَلَا مِلْتُ فِيهِ إِلَى التَّحْوِيرِ (٧) ؛ وَأَرْجُو أَنْ يَبَيِّضَ وَجْهِي عِنْدَكَ بِالرَّضَا
 عَنِّي ، فَقَدْ كَادَ وَعْدُكَ فِي عِنَايَتِكَ (٨) يَأْتِي عَلَى ، وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْفَظَ عِنَايَتَكَ

(١) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « إنما » ، وهو تحريف . والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٢) فى (١) التى ورد فيها هذا الكلام : « بالإشهاد » : وهو تحريف . والسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٣) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « يا أبا فريد » .

(٤) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « لفظ » : وهو تحريف .

(٥) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ودان » : وهو تحريف .

(٦) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ورتبت » : وهو تحريف .

(٧) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « التجويز ، بالجيم والزاي » : وهو تحريف .

(٨) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « غنائك » : وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه سياق الكلام .

على ، كسابق اهتمامك بأمرى^(١) ، حتى أملك بهما^(٢) ما وعدتني من تكملة هذا الوزير الذى قد أشبع كل جائع ، وكسا كل عارٍ ، وتألف كل شاردٍ ، وأحسن إلى كل مُسئ^(٣) ، ونوّه بكل خامل ، ونفق^(٤) كل هزيل ، وأعز كل ذليل ؛ ولم يبق فى هذه الجماعة على فقره وبؤسه ، ومره ويأسه ، غيرى ؛ مع خدمتى السالفة والآنفه ، وبذلى كل مجهود ، ونسخى كل عويص ، وقيامى بكل صعب ؛ والأمور مقدرة ، والحظوظ أقسام ، والكذح لا يأتى بغير ما فى اللوح .

فصل

خلصنى أيها الرجل^(٥) من التكفف ، أنقذنى من لبس الفقر ، أطلقنى من قيد الضر ، اشترنى بالإحسان ، اعتبذنى بالشكر ، استعمل لسانى بفنون المدح ، إكفنى مؤونة الغداء والعشاء .

إلى متى الكسيرة اليابسة ، والبقيلة الداوية ، والقميمص المرقع ، وباقلى درب الحاجب ، وسذاب درب الرواسين ؟

إلى متى التأدم بالخبز والزيتون ؟ قد والله بح الخلق ، وتغير الخلق ؛ الله فى أمرى ؛ اجبرنى فإننى مكسور ، اسقنى فإننى صيد ، أغثنى فإننى ملهوف ، شهرنى فإننى غفل ، حلنى فإننى عاطل .

قد أدلنى السفر من بلد إلى بلد ، وخذلنى الوقوف على باب باب ، ونكرنى العارف بى ، وتباعذ عنى القريب منى .

أغرّك مسكويه حين قال لك : قد لقيت أباحيان ، وقد أخرجته مع صاحب البريد إلى قرميسين ؟!

والله ثم وحياتك التى هى حياتى ، ما انقلب من ذلك بنفقة شهر ، والله نظر لى بالعود ، فإن الأراجيف اتصلت ، والأرض اقشعرت ، والنفوس استوحشت ، وتشبه

(١) وردت هذه العبارة فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا ، باعريجى ، ولا معنى لها على هذا الوجه ؛ والصواب ما اثبتنا ، كما يقتضيه السياق .

(٢) بهما ، أى بالعناية والاهتمام .

(٣) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « شىء » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى (١) التى ورد فيها وحدها هذا الكلام : « وفق » ؛ وهو تحريف .

(٥) يريد بالرجل أبا الوفاء وهو الذى قربته إلى الوزير .

كُلُّ ثَعْلَبٍ بِأَسَدٍ ، وَقَتَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ لَعْدُوهُ حَبْلًا مِنْ مَسَدٍ .
أَيُّهَا الْكَرِيمُ ، أَرْحَمُ ؛ وَاللَّهُ مَا يَكْفِينِي مَا يَصِلُ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَهْرٍ مِنْ هَذَا الرِّزْقِ
الْمَقْتَرِ الَّذِي يَرْجِعُ بَعْدَ التَّقْتِيرِ وَالتَّيْسِيرِ إِلَى أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا مَعَ هَذِهِ الْمَثُونَةِ الْغَلِيظَةِ ،
وَالسَّفَرِ الشَّاقِّ^(١) ، وَالْأَبْوَابِ الْمَحْجَبَةِ ، وَالْوُجُوهِ الْمَقْطُوعَةِ ، وَالْأَيْدِي الْمَسْمُورَةِ ،
وَالنَّفُوسِ الضَّيِّقَةِ ، وَالْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ .

أَيُّهَا السَّيِّدُ ، أَقْصِرْ تَأْمِيلِي ، إِرْعَ ذِمَامَ الْمِلْحِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، وَتَذَكَّرِ الْعَهْدَ فِي
صُحْبَتِي ، طَالِبٌ نَفْسِكَ بِمَا يَقْطَعُ حُجَّتِي ، دَعْنِي مِنَ التَّعْلِيلِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ ،
وَالْتَسْوِيفِ الَّذِي لَا آخِرَ مَعَهُ .

ذَكَرَ الْوَزِيرُ أَمْرِي ، وَكَرَّرَ عَلَى أُذُنِهِ ذِكْرِي ، وَأَمَّلَ عَلَيْهِ سُورَةً مِنْ شُكْرِي ، وَأَبْعَثَهُ
عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيَّ .

افْتَحَ عَلَيْهِ بَاباً يُغْرِي^(١) الرَّاغِبَ فِي اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ الْمَرْغَبِ ،
وَالْفَاعِلِ الْخَيْرِ لَا يَسْتَوْجِشُ مِنَ الْبَاعِثِ عَلَيْهِ .

أَنْفَقَ جَاهَكَ فَإِنَّهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَرِيضٌ ، وَإِذَا جُدْتَ بِالْمَالِ فَجُدْ أَيْضاً بِالْجَاهِ ، فَإِنَّهُمَا
أَخَوَانُ .

سَرَّحَنِي رَسُولاً إِلَى صَاحِبِ الْبَطَائِحِ أَوْ^(٢) إِلَى أَبِي السُّؤْلِ الْكُرْدِيِّ^(٣) أَوْ إِلَى غَيْرِهِ
مَمَّنْ هُوَ فِي الْجِبَالِ ، هَذَا إِنْ لَمْ تُؤْهِلْنِي بِرِسَالَةٍ إِلَى سَعْدِ الْمَعَالِمِيِّ بِأَطْرَافِ الشَّامِ ،
وَالِىَ الْبَصْرَةِ ، فَإِنِّي أَبْلُغُ فِي تَحْمِلِ مَا أُحْمِلُ ، وَأَدَاءِ مَا أُؤَدِّي ؛ وَتَرْزِيَنِ مَا أُرِئِينَ ،
حَدًّا^(٤) أَمْلِكُ بِهِ الْحَمْدَ ، وَأُعْرِفُ فِيهِ بِالنُّصِيحَةِ وَأُسْتَوْفِي فِيهِ عَلَى الْغَايَةِ . دَعُ هَذَا ،
وَدَعُ لِي أَلْفَ دِرْهَمٍ ، فَإِنِّي أَتَّخِذُ رَأْسَ مَالٍ ، وَأُشَارِكُ بِقَالَ الْمَحَلَّةِ فِي دَرْبِ
الْحَاجِبِ ، وَلَا أَقَلَّ مِنْ ذَا ، تَقْدِمُ إِلَى كَسَجِ^(٥) الْبَقَالِ حَتَّى يَسْتَعِينَ بِي لِأَبِيعَ

(١) وردت هذه العبارة في (١) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا « والسعر الشاري » : وهو تحريف صوابه ما اثبتنا اخذاً من سياق الكلام .

(١) في (١) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « يفنى » بالنون : وهو تحريف صوابه ما اثبتنا
(٢) في (١) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « لولى » : وهو تحريف .
(٣) كذا ورد هذا الاسم في (١) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام دون (ب) ولم نهتد إلى وجه الصواب فيه
(٤) في (١) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « جدا » بالجيم : وهو تصحيف .
(٥) كذا ورد هذا الاسم بالكاف والسين والجيم في (١) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام ولم نقف على وجه
الصواب فيه .

الدُّفَاتِر . قَلْتُ : الْوَزِيرُ مَشْغُولٌ . فَمَا أَصْنَعُ بِهِ إِذَا فَرَغَ ، فَالشَّاعِرُ يَقُولُ :
« تُنَاطُ بِكَ الْأَمَالُ مَا اتَّصَلَ الشُّغْلُ »

قد والله نَسِيتُ صَدْرَ هَذَا الْبَيْتِ ، وَمَا بِالْ^(١) غَيْرِ يُنَوِّلُهُ وَيُمَوِّلُهُ مَعَ شُغْلِهِ^(٢) وَأَحْزَمُ
أَنَا ؟ ! أَنَا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَبَرَقَ أَضَاءُ الْأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رَجُلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلَمٌ
وَاللَّهُ إِنَّ الْوَزِيرَ مَعَ أَشْغَالِهِ الْمُتَّصِلَةِ ، وَأَثْقَالِهِ الْبَاهِظَةِ ، وَفِكْرِهِ الْمَفْضُوضِ^(٣) وَرَأْيِهِ
الْمَشْتَرَكِ ، لَكَرِيمٍ مَاجِدٍ ، وَمُفْضِلٍ مُحْسِنٍ ، يَرْعَى الْقَلِيلَ مِنَ الْحُرْمَةِ ، وَيُعْطِي
الْجَزِيلَ مِنَ النِّعْمَةِ ، وَيُحَافِظُ عَلَى الْيَسِيرِ مِنَ الدِّمَامِ ، وَيَتَقَبَّلُ مَذَاهِبَ الْكِرَامِ ،
وَيَتَلَذَّذُ بِالشَّئَاءِ إِذَا سَمِعَ ، وَيَتَعَرَّضُ لِلشُّكْرِ مِنْ كُلِّ مُنْتَجِعٍ ، وَيَزْرَعُ الْخَيْرَ ، وَيَحْصُدُ
الْأَجْرَ ، وَيُوَاطِبُ عَلَى كَسْبِ الْمَجْدِ ، وَيَثَابِرُ عَلَى آجِتِلَابِ الْحَمْدِ ، وَيَنْخَدِعُ
لِلسَّائِلِ ، وَيَتَهَلَّلُ فِي وَجْهِ الْأَمَلِ ، وَلَا يَتَبَوَّأُ مِنَ الْفَضَائِلِ إِلَّا فِي ذُرَاهَا ، رَحِيمٌ بِكُلِّ
غَادٍ وَرَائِحٍ ، وَلِكُلِّ صَالِحٍ وَطَالِحٍ .

وَأَنَا الْجَارُ الْقَدِيمُ ، وَالْعَبْدُ الشَّاكِرُ ، وَالصَّاحِبُ الْمَخْبُورُ ، وَلَكِنَّكَ مُقْبِلٌ
كَالْمُعْرِضِ ، وَمُقَدَّمٌ كَالْمُؤَخَّرِ^(٤) ، وَمَوْقِدٌ كَالْمُخْمِدِ ، تُدْنِيْنِي إِلَى حَظِّي بِشِمَالِكَ ،
وَتَجْذِبُنِي عَنْ نَيْلِهِ بِيَمِينِكَ ، وَتُعْدِنِي بِوَعْدِ كَالْعَسَلِ ، وَتُعَشِّنِي بِبِئَاسٍ كَالْحَنْظَلِ ،
« وَمَنْ^(٥) كَانَ عَتَبَهُ عَلَى مِظَنَّةِ عَيْبِكَ ، فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَقْصِيرُهُ عَلَى تَيْقَنِهِ^(٦) »
بِنَصْرِكَ .

نَعَمْ ؛ عَتَبْتُ فَأَوْجَعْتُ ، وَعَرَفْتُ الْبَرَاءَةَ فَهَلَا نَفَعْتُ ؟ وَاللَّهُ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ ، إِنَّ
شُكْرُكَ عَلَى ظَاهِرِكَ الصَّحِيحِ لَذَعْتُكَ لِبَاطِنِكَ الْبَسِيقِ ، وَإِنْ حَمِدْتُكَ عَلَى أَوَّلِكَ

(١) وردت هذه العبارة في (١) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا « وما نال غيري سؤال وتحول مع شغله
وأخر من أنا ، وفيها تحريف ظاهر لا يستقيم به المعنى .

(٢) ينوِّله ويموِّله ، أي نوله الوزير ويموله . مع شغله ، أي مع شغل الوزير .

(٣) المفضوض ، أي المتفرق غير المجتمع .

(٤) في (١) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ومؤخر كالمقدم » ، وفي كلتا الكلمتين تقديم وتأخير من
الناسخ ؛ والسياق يقتضي ما أثبتنا .

(٥) كذا ورد هذا الكلام في الأصل . وفيه تحريف ظاهر لم نهتد إلى وجه الصواب فيه .

(٦) على تيقنه ، أي مع تيقنه . « ويكون » هنا تامة .

الجميل ، أفسدتُ لآخركَ الذى ليس بجميل .
قد أطلت ، ولكنْ ما شُفيت ، ونَهَيْتُ وَعَلَلْتُ ، ولكنْ ما رَويت .
وآخرُ ما أقول : افْعَلْ ما تَرى ، وأصْنَعْ ما تَسْتَحْسِن ، وأبْلُغْ ما تَهْوَى ، فليسَ والله
مِنْكَ بُدٌّ ، ولا عَنكَ غِنًى .
والصَّبْرُ عَلَيْكَ أَهْوَنُ مِنْ الصَّبْرِ عَنكَ ، لأنَّ الصَّبْرَ عَنكَ مَقْرُونٌ بِالْيَاسِ ، والصَّبْرُ
عَلَيْكَ رُبَّمَا يُؤَدِّي إِلَى رَفْعِ هَذَا الْوَسْوَاسِ ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِ السَّلَامِ .

* * *

الهوامل والشوامل

طرح التوحيدى على الفيلسوف
المعاصر له مسكويه مجموعة من
الأسئلة (هكذا يقول التوحيدى !) .
الأسئلة أسماها الهوامل وهى الابل
السائمة يهملها صاحبها ويتركها
ترعى ، والأجوبة هى الشوامل أى
الحيوانات التى تضبط الابل الهوامل
فتجمعها .

اعتمدنا على الطبعة النادرة
الصادرة عن مطبعة لجنة التأليف
والنشر عام ١٩٥١ . بتحقيق المرحوم
أحمد أمين والمرحوم أحمد صقر .
ولم يطبع الكتاب مرة أخرى حتى
تاريخه .

لماذا الشوق إلى ما مضى ؟

ما السبب في اشتياق الإنسان إلى ما مضى من عمره حتى إنه لَيَجُنُّ حنين الإبل ، ويكي بكاء المَتمَلِّمِل ، وَيَطُولُ فِكْرُهُ بِتَخَيُّلِهِ مَا سَلَفَ ؟ وبهذا المعنى هتف الشاعر فقال :

لم أبك من زمن ذممت صُرُوفَهُ إِلَّا بِكَيْتٍ عَلَيْهِ حِينَ يَسْزُولُ^(١)
وقال الآخر :

رَبِّ يَوْمٍ بِكَيْتٍ مِنْهُ فَلَمَّا صَرْتُ فِي غَيْرِهِ بِكَيْتٍ عَلَيْهِ^(٢)
وقال آخر :

وَأَرْجُو غَدًا فَإِذَا مَا أَتَى بِكَيْتٍ عَلَى أَمْسِهِ الذَّاهِبِ^(٣)
هذا العارضُ يَعْتَرِي وإن كان الماضي من الزَّمان في ضيق وحاجة ، وَكَرْبٍ وَشِدَّةٍ ، وَمَا ذَاكَ كَذَاكَ إِلَّا لِسِرِّ النَّفْسِ الْإِنْسَانُ غَيْرُ شَاعِرٍ بِهِ ، وَلَا وَاجِدٍ لَهُ إِلَّا إِذَا طَالَ فَحْصُهُ ، وَزَالَ نَقْصُهُ ، واشتد في طلب العلم تَشْمِيرُهُ ، واتصل في اقتباس الحكمة رَوَاحُهُ وَبُكُورُهُ ، وكانت الكلمة الحسنة أشرف عنده من الجارية العذراء ، والمعنى المقوم أحب إليه من المال المُكْوَم ، وعلى قدر عنايته يَحْظَى بِشَرَفِ الدَّارِينَ ، ويتحلى بِزِينَةِ الْمَحَلِّينَ .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله -

ليس يَشْتَاقُ إِلَى الشَّبَابِ وَالصَّبَا إِلَّا أَحَدُ رَجُلَيْنِ :

إِمَّا فَاقِدُ شَهَوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ الَّتِي سَوَّرَتْهَا وَجَدَّتْهَا وَقْتَ الشَّبَابِ .

وإِمَّا فَاقِدُ صِحَّتِهِ فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ ، أَوْ بَعْضِ أَعْضَائِهِ الَّتِي قُوَّتُهَا وَوُفُورُهَا زَمَنَ الصَّبَا وَحِينَ الْحَدَاثَةِ .

والمعنى الْأَوَّلُ أَكْثَرُ مَا يَتَشَوَّقُ ، فَإِنَّ الْمُكْتَهِلَ وَالْمُجْتَمِعَ وَمَنْ بَلَغَ الْأَشَدَّ - الَّذِي لَا يَنْكُرُ شَيْئًا مِنْ حَوَاسِهِ - يَتَشَوَّقُ إِلَى الصَّبَا ، وَالشَّيْخُ لَا يَعْدُمُ مِنْ نَفْسِهِ وَرَأْيِهِ وَقُوَّةَ عَقْلِهِ شَيْئًا مِمَّا كَانَ يَجِدُهُ فِي شَبَابِهِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَهْرَمَ وَيُلْحِقَهُ الْخَرَفُ ، فَحِينَئِذٍ لَا يُذَكِّرُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّشَوُّقِ ، وَلَا يوصف به ، وَلَا يَحْتَجُ بِرَأْيِهِ .

(١) ورد هذا البيت غير منسوب في محاضرات الأدباء للراغب الاصفهاني ٢٢٣/٢ وفي معناه يقول إبراهيم بن العباس الصولي :

سَقِيَا وَرَعِيَا أَيَّامَ مَضَتْ سَلَفًا بَكَيْتَ مِنْهَا فَصَرَتْ الْيَوْمَ ابْكِيهَا
كَذَاكَ إِيَّامُنَا لِأَشْكَ نَفْسِيهَا إِذَا نَقَضْتَ وَنَحْنُ الْيَوْمَ نَشْكُوهَا

(٢) البيت بهذه الرواية في كتاب « الآداب » لجعفر بن شمس الخلافة غير منسوب أيضا . وفي ديوان أبي العتاهية من ٢٨٨ :

كَمْ زَمَانٍ بِكَيْتٍ مِنْهُ قَدِيمًا ثُمَّ لَمَّا مَضَى بِكَيْتٍ عَلَيْهِ

(٣) المحفوظ « على أمسى » .

وهنا سبب ثالث يُشوق إلى الصبا وهو أن الأمل حينئذ في البقاء قوى ، وكأنَّ الإنسان ينتظر أمامه حياةً طويلةً فكلُّما مضى منها زمانٌ تيقن أنه من أمدِّه المضروب ، وعمره المقسوم ، فاشتاق إلى أن يستأنف به ، طمعاً في البقاء السرمدي الذي لا سبيل للجسد الفاني إليه .

إلا أن المعنى الأوَّل هو الذي ذهب إليه الشعراء فأكثروا فيه ، وقد صرَّحوا به وذكروه في أشعارهم .

والمتشوِّق إلى شهواته صورته عند الحكماء صورةٌ من أُعْتِقَ فاشتاق إلى الرِّق ، أو صورةٌ من أفلت من سباع ضارية كانت مقرونةً به فاشتاق إلى مُعَاوَدَتِهَا . وذلك أن الشاب تهيم به قوى الطبيعة عند الشهوة وعند الغضب حتى تغمر عقله فلا يستشير لُبَّهُ ، ولا يكاد يظهر أثر العقل عليه إلا ضعيفاً .

وقد بيَّنا فيما تقدَّم من المسائل أنَّ فضيلة الإنسان وشرفه في الجزء الألهي منه ، وإن كان الجزء الآخر ضرورياً له .

فقد بان أنَّ السِّنَّ التي تَضَعُفُ فيها قوى الطبيعة حتى يَقْتَدِرَ عليها العقلُ فيزُمُّها ، ويجرُّها ذليلةً طائعةً غيرَ مُتَابِيةٍ ولا هائجةٍ - أَفْضَلُ الأَسْنَانِ ، والرَّجُلُ الفاضلُ الصالح لا يَشْتاق من أشرف أسنانه إلى أخسِّها .

والدليل البين على أن الأمر على ما حكيناه - أنَّ الشابَّ العفيفَ الضابطَ لنفسه ، القوى على قمع شهواته مَسْرُورٌ بسيرته ، وإن كان في جَهْدٍ عظيمٍ ، ومحكومٌ له بالفضل ، مشهودٌ له به عند جميع أهل العقل ، وأنَّه إذا كَبِرَ وأَسَنَّ لم يشتق إلى الشباب ؛ لأنَّ ضبطه لنفسه ، وقَمْعَهُ لشهواته أيسرُ عليه وأهون .

ومن كان فلسفيَّ الطريق ، شَرِيعيَّ المذهب لم تعرض له هذه العوارض - أعني التلهُّفَ على نيل اللذات ، والأسفَ على ما يفوته منها ، والنَّدَمَ على ما تركَ وقَصَرَ فيها - بل يعلم أن تلك انفعالاتٌ خسيصةٌ تقتضي أفعالا دنيئةً ، وأنَّ الحكماء - رضی الله عنهم - قد بيَّنوا ذائلها ، وسَطَّروا الكتبَ في ذمِّها ، وأنَّ الأنبياء - صلوات الله عليهم - قد نهَّوا عنها ، وحذَّروا منها ، وكتبَ الله - تعالى وتقدس - ناطقةً بجميع ذلك ، مُصَدِّقةً له .

فأى شوقٍ يحدث للفاضل إلى النَّقص ، وللعالم إلى الجهل ، وللصحيح إلى المرض ؟

وإنما تلك أعراض تعرض للجهال الذين غايتهم الانهماك في الطبيعة والحواس ، وطلب ملاذها الكاذبة ، لا التماس الصِّحة ، ولا بلوغ السَّعادة ، ولا تكميل الفضيلة الإنسانية ، ولا مُعْتَبَرٌ بهؤلاء ولا التفات إلى أقوالهم وأفعالهم .

لماذا حب الذكر؟

لم أَحَبَّ الإنسانُ أن يعرفَ ما جرى من ذِكْرِهِ بعد قيامه من مجلسه ، حتى إنه لَيَجْنُ إلى أن يقفَ على ما يُؤْبَنُ به بعد وفاته ، ويحبُّ أن يطلع على حقيقة ما يكون ويُقال ؟ وكيف لم يتصنع لفعل ما يُحِبُّ أن يكون منسوباً إليه مُزَيَّناً به ، هذا ومَحَبَّتُهُ لذلك طبيعة لورام زَوَالِهِ عنها لما أطاق ذاك ، وإن كَابَرَ طِبَاعَهُ ، وأراد خِدَاعَهُ .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :

قد تقدّم لنا في بعض هذه الأجوبة التي مضت أن للنفس قوتين : إحداهما هي التي بها يَشْتاقُ الإنسانُ إلى المعارض واستِثباتِها ، ولما كانت هذه المعرفة عامةً له في سائر الأشياء كانت بما يخصُّه في نفسه التي هي محبوبته ومَعشوقته - أوّلى . فالإنسان يَشْتاقُ إلى هذه المعرفة بالطبع الأوّل ، والقوّة التي هي ذاتيةٌ للنفس ، ثم يَتَزَيّدُ هذا التَّشَوُّقُ ، وَيَشْتعل وَيَقْوَى ؛ لأجل اختصاصه بمعرفة أحوالِ نفسه المحبوبة .

فأما تصنُّعه لفعل ما يَحِبُّ أن يكون منسوباً إليه فإنه ليس يتركه إلا أن يعترضه عارضٌ آخرٌ من شهوة عاجلة تقاومه ، فهي أغلبُ وأشدُّ منجاذبةً له كما ضربنا به المثل فيما تقدّم من علم المريض بحفظ الصحة ، وحاجته إليها ، ثم إثارة عليها نيل شهوة دنيّة عاجلة ، وإن فاتته الصّحة المؤثّرة في العاقبة . ولولا هذه الشهوات الدنيّة المُعْترضَةُ على السعادات المؤثّرة - ما تميّز الفاضلُ من الناقص ، ولا مُدِحُ العفيف ، وذمُّ النّهم - ، وكنا حينئذ لا ننتفع بالآداب والمواعظ ، وكان لا يحسنُ منا التعبُ والرياضة فيما على الطبيعة فيه كُلفة ومشقة . وهذا بيّن كاف في جواب المسألة .

لماذا العلم؟

لم كان الإنسانُ محتاجاً إلى أن يتعلّم العلم؟ ولا يحتاجُ إلى أن يتعلّم الجهل ، لأنّه في الأصل يوجدُ جاهلاً؟ فما علّة ذلك؟ فبإثارة علته يتمّ الدليل على صحته .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :

قد تبين في المباحث الفلسفية أن العلم هو إدراك النفس صور الموجودات على

حقائيقها ، ولما قال بعض الأوائل : إن النفس مكان للصورة استحسنه أفلاطون ، وصوب قائله ؛ لأن النفس إذا اشتاقت إلى العلم الذي هو غايتها نقلت صورة المعلوم إلى ذاتها حتي تكون الصورة التي تحصلها مطابقة لصورة المنقول منه ، لا يفضل عليها ، ولا ينقص منها ، وهو حينئذ علم محض وإن كانت الصورة المنقولة إلى النفس غير مطابقة للمنقول فليس بعلم .

وهذه الصورة كلما كثرت عند النفس قويت على استثبات غيرها ، والنفس في هذا المعنى كالمناصب للجسد ؛ وذلك أن الجسد إذا حصلت فيه صورة ضعفت عن قبول صورة غيرها ، إلا بأن تنمحي الصورة الأولى منه ، أو تتركب الصورة الأولى والثانية الورادة فتختلط الصورتان ولا تحصلاان ولا إحداهما على التمام ، وليست النفس كذلك .

ولما كانت نفس الإنسان هيولانية مشتاقة إلى الكلام الموضوع لها بأن يتصور بصورة الموجودات كلها ، أعنى الأمور الكلية دون الجزئية ، وكانت قوية على ذلك ، وكانت صورة الموجودات فيها غير مضيقة بعضها مكان بعض ، بل هي بالضد من الأجسام في أنها كلما استثبتت صورة في ذاتها قويت على استثبات أخرى ، وخلصت الصور كلها بعضها من بعض وذلك بلا نهاية - كان الإنسان محتاجا إلى تعلم العلم أى إلى استثبات صور الموجودات ، وتحصيلها عنده .

* * *

فأما الجهل فاسم لعدم هذه الصور والمعلومات ، ونحن في اقتناء هذه الصور محتاجون إلى تكلف واحتمال مشقة وتعب إلى أن نحصل لنا .
فأما عدمها فليس مما يتكلف ويتجشم ، بل النفس عادمة لذلك . ومثل ذلك من المحسوس صورة لوح لا كتابة فيه ، وإثبات الكتابة ، وصور الحروف يكون بتكلف فأما تركه بحاله ، فلا كلفة فيه إلا على مذهب من يرى صورة الأشياء موجودة للنفس بالذات ، وإنما عرض لها النسيان ، وأن العلم تذكر وإزالة لآفة النسيان عن النفس . ولو كان الأمر كذلك لكان جواب المسألة بحسب هذا المذهب بيئا في أن التعب بإزالة آفة واجب ، وتركه مأوفاً^(١) لا تعب فيه .
ولكن هذا مذهب غير مرغوب فيه ، والشغل به في هذا الموضع فضل ؛ لأنه ليس

(١) مأوفا : أى مصابيا .

من المسألة في شيء ، وإن كان الكلام قد جَرَّ إليه ، ولكننا ندلُّ على موضعه فليؤخذ من هناك ، وهو كُتِبَ النفس .

فقد تبين أن العلم تصوُّر النفس بصورة المعلوم ، والتصوُّر تفعل من الصورة . والجهل هو عدم الصورة ، فكيف يستعمل التفعل من الصورة في عدم الصورة ؟ هذا مُحال .

لماذا الحياء ؟

لم طال لسان الإنسان في حاجة غيره ، إذا عني به ، وقصر لسانه في حاجته مع عنايته بنفسه ؟ وما السر في هذا ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :
بُنية الإنسان وتركيبه ومبدأ خلقه وقع على أنه ملك ، فكل إنسان له أن يكون ملكاً بما أعد له من القوى المساعدة عليه ، ولا ينبغي لأحد أن يقصّر عن أحد في هذا المعنى إلا لآفة أو نقص في البنية .
ولما عرض للواحد بعد الواحد أن يسأل غيره ، مع أن موضوعه موضوع الآخر ، ولم يكن بأن يحتاج إلى صاحبه أولى من أن يحتاج صاحبه إليه - وجب أن تحدث له عزة نفس تمنعه من التذلل .
ولهذه العلة وجب التمدن ، وحدث الاجتماع والتعاون ، وحسن بين الناس التعامل ، وأن يدفع الإنسان إلى صاحبه [حاجته]^(١) إذا كانت عنده ؛ ليستدعي مثلها منه ، فيجدها أيضاً عنده .
فالسائل إذا لم يكن معوضاً ، ولا معاملاً ، والتمس الرِّفْد من غيره من غير مقابلة عليه ، ولا وعد من نفسه بمثله - كان كالظالم ، وأيسر ما فيه أنه قد حط نفسه عن رتبة خلق عليها ، ونُذِبَ إليها فقصر لسانه ، واحتقر نفسه .
فأما إذا تكلم في حاجة غيره لم يعرض له هذا العارض ، فكأنه إنما يُحيل بهذا النقص على من تكلم عنه فانطلق لسانه ، ولم تذلل نفسه .

لماذا الصيت بعد الموت ؟

ماسبب الصَّيْت الذي يتفق لبعضهم بعد موته ، وأنه يعيش خاملاً ، ويشتهر ميتاً كمعروف الكرخي^(٢) ؟

(١) زيادة يوجبها السياق .

(٢) كان معروف بن فيروز الكرخي من كبار مشايخ الصوفية ، ومن موالى على بن موسى الرضا ، وكان استاذ السقطي . توفي سنة مائتين ، كما في رسالة القشيري ص ٩ - ١٠ .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :

معظم السبب في ذلك الحسد الذي يَعْتَرِي أكثر الناس ، لا سيما إذا كان المحسود قريب المنزل من الحاسد ، أو كان في درجته من النسب أو الولاية والبلدية أو ما أشبههما ؛ فإن هذه النسب إذا تقاربت بين الناس فاشتركوا فيها ، ثم انفرد احد منهم بفضيلة نafسه الباكون فيها ، وحسدوه إياها حتى يحملهم الأمر على أن يجحدوه آخر الأمر ؛ ولذلك قيل : أزهد الناس في عام جيرانه ؛ لأن الجوار وكثرة الاختلاط سبب جامع لهم يتساوون فيه ؛ فإذا انفرد أحدهم بفضيلة لحق الباقيين ما ذكرته .

وربما كان سبب زهدهم فيه غير هذا ، ولكن الأغلب ما ذكرته .
فأما البعيد الأجنبي فإنه لما لم يجمعه وإياه سبب خف عليه تسليم الفضل له ، وقل عارض الحسد فيه ؛ ولأجل ذلك إذا مات المحسود ، وانقطع السبب الذي بينه وبين الحساد أنشؤا يفضّلونه ، ويسلمون له ما منعوه إياه في حياته .

لماذا الجزع من الموت ؟

ما سبب الجزع من الموت ؟ وما الاسترسال إلى الموت ؟
وإن كان المعنى الأول أكثر فإن الثاني أتبين وأظهر وأبى المعنيين أجل الجزع منه أم الاسترسال إليه ، فإن الكلام في هذه الفصول كثير الرّيع جم الفوائد .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :

الجزع من الموت على ضرب ، وكذلك الاسترسال إليه . وبعضه محمود ، وبعضه مذموم ؛ وذلك أن من الحياة ما هو جيد محبوب ، ومنها ما هو رديء مكروه ، فيجب من ذلك أن يكون ضدّها الذي هو الموت بحسبه : منه ما هو حيال الحياة الجيدة المحبوبة ، فهو رديء مكروه ، ومنه ما هو حيال الحياة الرديئة المكروهة ، فهو جيد محبوب .

ولابد من تبين هذه الأقسام ليبين سبب الجزع والاسترسال^(١) ، وأيهما أعلى ، فأقول :

إن الحياة المقترنة بالآفات العظيمة ، والمهن الهائلة^(٢) ، والآلام الشديدة : مثل أن يسبى الرجل وأهله وولده ويملكهم قوم أشرار حتى يرى في أهله وولده ما لا طاقة

(١) يقال : استرسل إلى فلان : انبسط إليه واستأنس به ، ويريد بالاسترسال إلى الموت الرضا به عن سماح

(٢) مهن فلانا الأمر : جهده ، فالمهنة هنا : الجهد والشدة .

له به ، ويُسَامَ في نفسه وجسمه ما لا صبرَ عليه ، ويقع في الأمراض الشديدة التي لا براءَ منها ، ويُضْطَرُّ إلى فعلٍ قبيحٍ بأصدقائه وبوالديه ، فهذا كله ردىء مكروهٌ ، وليس أحدٌ يختار العيشَ فيه ، ولا يؤثرُ الحياةَ معه ، فضدُّه إذاً جيّدٌ محبوبٌ ؛ لأنَّ الموتَ أمامَ هذه المحنِّ في مجاهدةٍ عدوٍّ يسومُ هذا السَّوْمَ - موتٌ مختارٌ جيّدٌ . فيجب بحسب هذا النظر أن نقول : إنَّ تلك الحياةَ المكروهةَ يُسْتَحَبُّ فيها الموتُ الذي هي ضده ، فالاسترسال إلى هذا الموتِ جيدٌ ، وسببه ظاهرٌ .

وكذلك إذا عكستُ الحال ، فإن الحياةَ المحبوبةَ والعيشَ المضبوطَ ، التي معه صحةُ البدنِ ، واعتدالُ المزاجِ ، ووجودُ الكفايةِ من الوجوهِ الجميلةِ ، والتمكُّنُ بهذه الأشياءِ من السعى نحو السعادةِ القصوى ، وتحصيلُ الصورةِ المكَمَّلةِ للإنسانِ مع مساعدةِ الإخوانِ الفضلاءِ ، وقرّةُ العينِ بالأولادِ النجباءِ ، والعزُّ بالعشيرةِ وأهلِ البيتِ الصالحينِ - كله محبوبٌ مؤثّرٌ جيّدٌ . ومقابلُهُ إذن الذي هو الموتُ ردىءٌ مكروهٌ ؛ لأنَّ هذا الموتَ ينقطعُ به استكمالُ السعادةِ وإتمامُ الفضيلةِ . ويُفَوِّتُهُ أمراً عظيماً كان معروضاً له .

فالجزع من هذا الموتِ واجبٌ ، وسببه بَيِّنٌ .

وهذا ضربٌ من النظر ، وبابٌ من الاعتبار .

وضرب آخر وهو أن البقاءَ بنفسه أمرٌ مختارٌ ؛ لأنه وجودٌ متصلٌ ، والوجودُ كريمٌ شريفٌ . وضدُّه العدمُ رذلٌ خسيسٌ ، والرغبةُ في الشيءِ الكريمِ واجبةٌ ، كما أن الزهدَ في الشيءِ الخسيسِ واجبٌ .

وإذا كانت حياةٌ ما منقطعة لا محالةً ، ثم كان ذلك يُفْضِي إلى حياةٍ أخرى أبديةٍ ، ووجودٍ سرمديٍّ - صار هذا الموتُ غيرَ مكروهٍ إلا بقدرِ ما يُكْرَهُ من الدواءِ المرِّ إذا أدَّى إلى الصحةِ ، فإن العلاجَ المؤلمَ والدواءَ الكريهَ مختاران ، إذا أديا إلى صحةٍ طويلةٍ ، وسلامةٍ متصلةٍ فإن لم يكونا مختارين بالذاتِ فهما مختاران بالعرضِ .

فالإنسانُ المستبصرُ الذي يرى أن أخراه أفضلُ من دنياه ، وآجلُهُ خيرٌ له من عاجله - يَسْتَرْسِلُ إلى الموتِ استرسالاً إلى الدواءِ الكريهِ ، والعلاجِ المؤلمِ ؛ لِيُفْضِيَ به إلى خيرٍ دائمٍ ، وإن كان هذا الاختيارُ بالعرضِ لا بالذاتِ ، وربما ظنَّ ذلك ظناً فحسناً أيضاً منه الاسترسالُ إليه بحسبِ قوةِ ظنه وما وقع إقناعه به ، كما يحسن في الدواءِ إذا قوى ظنه بمعرفةٍ واصفه له .

فأما من خلال من هذا الاعتقاد والظنَّ القويُّ فهو يجزع من الموتِ ؛ لأنه عدمٌ ما ، والعدمُ مهروبٌ منه ، وهذا سببٌ صحيحٌ وعلةٌ ظاهرةٌ .

وهذا ضرب آخر من الاسترسال إلى الموت ، والجزع منه ، وهو أن من قَوَى ظنه واستحكمت بصيرته في عاقبته ومَعاده ولكنه لم يُقَدِّم ما يعتقد أنه يسعد به ، ولم يتأهب بأهبتة ، ولا استعد له عدةً ، فهو يكره الموت ، ويجزع منه ، ولا يسترسل إليه .

وأنت ترى ذلك في أصحاب الأهواء المختلفة ، والديانات المتضادة ، كالهند في تسرعهم إلى إحراق نفوسهم ، وإقدامهم على ضروب المثل والقتل في أبدانهم ، وكالخوارج في حرصهم على الموت ، وبذلهم نفوسهم في مواقفهم المشهورة ، وحروبهم المأثورة ، وأن الرجل إذا طُعِنَ قَنَعَ فرسه ليسبح في الرمح ، وينتهى إلى طاعنه^(١) ، ثم قرأ : « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى^(٢) » ؛ ولذلك اتخذ أصحاب السلطان في صدور رماحهم [حاجزا]^(٣) لئلا يسبح فيها المطعون فيصل إلى الطاعن .

لماذا.. حب يوم بعينه

لم صار الإنسان يحب شهراً بعينه ، ويوما بعينه ؟
ومن أين يتولد للإنسان صورة يوم الجمعة على خلاف صورة يوم الخميس ؟
وقيل للروذكى^(٤) - وكان أكمه ، وهو الذى ولد أعمى - كيف اللون عندك ؟ قال : مثل الجمل .
الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله :
أما محبة الإنسان شهراً بعينه فلأجل ما يتفق له فيه من سعادةٍ ما ، بحُصول مأمول ، أو ظفر بمطلوب ، أو انتظار مَرَجَوْ في وقت بعينه ، أو سرور بعقب غم ، أو راحة بعد تعب ، وربما استمر ذلك به ، وتكرر عليه مدة من عمره في وقت بعينه ، فأنس به وألفه وأحبه لَمَا يتفق له فيه ، ولذلك أحبَّ صبيان المسلمين يوم الجمعة ،

(١) يريد أن الخارجى إذا طعنه عدوه بالرمح ضرب فرسه ليتقدم حتى يلحق طاعنه فيقضى عليه ، غير عابىء بنفاد الرمح في صدره .

قال المبرد في الكامل ٩٥٤/٣ « وكان في جملة الخوارج لدد واحتجاج ، على كثرة خطبائهم وشعرائهم ، ونفاد بصيرتهم ، وتوطين أنفسهم على الموت ، فمنهم الذى طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يقول : « وعجلت إليك رب لترضى » .

(٢) سورة طه : ٨٤ .

(٣) مكان الزيادة يقتضى كلمة بمعناها .

(٤) الروذكى : كما في أنساب السمعاني ٢٦٢ واللباب لابن الأثير ٤٨٠/١ « بضم الراء ، وسكون الواو ، وفتح الذال المعجمة ، وفي آخرها كاف - هذه النسبة إلى روثك » وهى ناحية بسمرقند ، والمشهور بهذه النسبة الشاعر المليح القول بالفارسية ، الذى سار شعره : أبو عبدالله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبدالرحمن الروذكى . الشاعر السمرقندى . وتوفى بروثك سنة تسع وعشرين وثلاثمائة .

وَأَلْفَوْهُ بَعْدَ ذَلِكَ طَوْلَ عَمْرِهِمْ ، وَكَرِهُوا يَوْمَ السَّبْتِ ؛ لِأَن يَوْمَ الْجُمُعَةِ مَفْرُوضٌ لَهُمْ فِيهِ الرَّاحَةُ ، مُرَخَّصٌ لَهُمُ اللَّعِبُ ، وَيَتَلَوُّهُ يَوْمُ السَّبْتِ الَّذِي هُوَ يَوْمُ تَعْبِهِمْ وَعُودِهِمْ إِلَى مَا يَكْرَهُونَ مِنْ فَقْدِ اللَّعِبِ . فَأَمَّا صِيبْيَانُ الْيَهُودِ فَإِنَّمَا يَعْرِضُ لَهُمْ ذَلِكَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ وَمَا يَلِيهِ ، وَصِيبْيَانُ النَّصَارَى فِي يَوْمِ الْأَحَدِ وَمَا يَلِيهِ ، وَكَذَلِكَ^(١) أَيَّامُ الْأَعْيَادِ الَّتِي أُطْلِقَ لِلنَّاسِ فِيهَا الرَّاحَةُ وَالزَّيْنَةُ ، يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَيَّامٌ أَكَلَ وَشَرَبَ وَبَعَالَ »^(٢) .

وهذه الأيام مختلفة في أصحاب المِلَل . وكل قوم يحبون الأيام التي هي أعيادهم التي أُطْلِقَ لَهُمْ فِيهَا الزَّيْنَةُ وَالْمَتَعَةُ وَالرَّاحَةُ .

وأما من تساوت به الأحوال من الأمم التي ليست تحت شرع ، ولا لهم نظام في سيرتهم وأحوالهم ، كالزُّنَجِ وَأَوَاخِرِ التُّرْكِ وَأَشْبَاهِهِمْ ، فَلَيْسَ يُلْحَقُهُمْ هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَيْسَ يَحْبُونُ يَوْمًا بَعِيْنَهُ ، وَلَا شَهْرًا ، وَلَا وَقْتًا مَخْصُوصًا .

فَأَمَّا تَوْلَدُ صُورَةِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ عَلَى خِلَافِ صُورَةِ يَوْمِ الْخَمِيسِ فَإِنَّهُ عَلَى مَا أَقُولُ : إِنَّ الزَّمَانَ الْأَظْهَرَ الْأَعْمَّ الْأَشْهَرَ هُوَ مَا تَحْدُثُهُ دَوْرَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ الْفَلَكَ الْأَقْصَى ، أَعْنَى الَّذِي يَدْبِرُ جَمِيعَ الْأَفْلَاقِ وَيَحْرُكُهَا بِحَرَكَةٍ نَفْسِهِ إِلَى غَيْرِ جِهَةِ حَرَكَاتِهَا ، وَذَلِكَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، مِنْ مَفْرُوضِهِ إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا ، وَهُوَ فِي أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً .

وإِنَّمَا صَارَ هَذَا الزَّمَانُ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ لَمَّا يَظْهَرُ فِيهِ مِنْ صَبَاحٍ يَعْرِضُ ، وَمَسَاءٍ بِيَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَسَبِيْهُمَا ظَهْوَرُ الشَّمْسِ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْمُدَّةِ فَوْقَ الْأَرْضِ ، وَغَيْبَتُهَا فِي بَعْضِ تَحْتَ الْأَرْضِ .

وَتَكَرَّرُ هَذِهِ الْأَدْوَارُ هِيَ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي ، وَفِي كُلِّ دَوْرٍ مِنْهَا لِلنَّاسِ أَفْعَالٌ وَحَرَكَاتٌ وَمَوَالِدٌ وَمَعَامِلَاتٌ لَيْسَتْ فِي الدَّوْرَةِ الْآخَرَى .

وَيَتَعَلَّقُ بِأَفْعَالِهِمْ هَذِهِ أَحْكَامٌ وَأَقْضِيَّةٌ فِي مَدَدٍ مَعْلُومَةٍ ، وَآجَالٌ مَفْرُوضَةٌ ، فِي مَدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ ، يَحْتَاجُونَ فِيهَا إِلَى نِسْبَتِهَا إِلَى دَوْرَةٍ بَعْدَ دَوْرَةٍ مِنَ الْفَلَكَ الْأَقْصَى الَّتِي هِيَ سَبَبُ لَكُونِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ؛ لِتَصِحَّ مَعَامِلَاتُهُمْ ، وَتَصْدَقَ قَضَايَاهُمْ ، وَتَتَعَيَّنَ آجَالُهُمْ الْمَضْرُوبَةُ فِي أَعْمَالِهِمْ وَمَعَامِلَاتِهِمْ .

وهنا زمان آخر تحدثه دورة أخرى تختص بها الشمس في سيرها .

(١) فِي الْأَصْلِ « وَذَلِكَ » .

(٢) فِي اللِّسَانِ : « الْبَعَالُ : حَدِيثُ الْعُرُوسِينَ ، وَالتَّبَاعِلُ وَالْبَعَالُ : مَلَاعِبَةُ الْمَرْءِ أَهْلَهُ ، وَقِيلَ الْبَعَالُ : النِّكَاحُ . وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ إِنَّهَا أَيَّامٌ أَكَلَ وَشَرَبَ وَبَعَالَ ، وَالْمَبَاعِلَةُ : الْمُبَاشَرَةُ » .

وذلك أن تبتدىء الشمس من نقطة مفروضة ، وتعود إليها بعينها بحركة نفسها دون تخريك المحرك الأول .

وهذه الدورة هي من المغرب إلى المشرق بخلاف تلك .
وتتم الدورة الواحدة من هذه الحركة التى تخص الشمس ، فى ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم على التقريب .
وهذا هو زمان أيضا ، ولكنه منسوب إلى حركة الشمس نفسها ، ويسمى : « سنة » .

وهنا زمان آخر قد تعارفه الناس أيضا ، واشتهر بينهم ، وظهوره وإن لم يكن كظهور الشمس فهو تال له ، وهو ما يكون ويحدث بدورة واحدة من حركة القمر التى تخصه دون تخريك المحرك الأول .

وتتم الدورة الواحدة بهذه الحركة التى تخص القمر ، وهو أيضا من المغرب إلى المشرق ، فى ثمانية وعشرين يوما ، ويسمى « شهرا » .
فهذه الأزمنة الثلاثة لما كانت ظاهرة مكشوفة تراها العيون ؛ لأجل تعلقها بالشمس والقمر اللذين هما أنور الكواكب وأبينهما وأكبرهما^(١) فى الظاهر - تعارفها الناس ، وتعاملوا عليها ، وحدثت صورة لكل دورة بحسب ما يُقَسِّطه الناس فيها من أعمالهم ، وبحسب ما يفشو فيها ويحدث من الأعمار والمواليد ، وبحسب نسبة حركاتهم إليها بمبدأ ومنتهى .

وإذا نظر الإنسان إلى هذه الأدوار فى أنفسها خالية من حركات الناس وأفعالهم ولم ينسب إليها حركة أخرى ، وفعلًا آخر - لم يكن بينها فرق بة إلا بالتكرار الذى لا بد فيه من العدد بالأول والثانى والثالث ، وإلى حيث انتهى الإحصاء .
فإن نظر فيها بحسب الأحوال ، ونسب إليها أفعالا وآثارا ، ونظمها بالحساب - حدثت صورة مختلفة بحسب اختلاف الأمور الواقعة فيها ، المنسوبة إليها .

* * *

فأما الأكمه الذى ذكرته فى المسألة ، فإن الفاقد حاسة من حواسه لا يتصور شيئا من محسوساته ؛ لأن التصور فى النفس من كل محسوس إنما يقع بعد الإحساس به .
وذلك أن هذه القوى من قوى النفس التى تأخذ العلوم من الحواس ، إنما ترقىها إلى قوة التخيل عن الحس ، فحينئذ تثبت صورة المحسوس فى القوة المتخيّلة ، وإن زالت صورة الحس وغابت .

(١) فى الأصل « بالشمس والقمر الذى لهما أنور الكواكب وأبينهما وأكبرهما » .

فأما إذا فقد الحس فكيف يترقى المحسوس إلى قوة التخيل ؟ فبحق صار الأكمه لا يتخيل شيئاً من الألوان ولا يتصوره .
وكذلك إن فقد حسَّ الشم والسمع من مبدأ ولادته ، لم يتخيل شيئاً من محسوساتهما لما قدمناه .

وحدثني بعض أهل التحصيل من المتفلسفين أنه سأل رجلاً أكمه : كيف يتصور البياض ؟ فقال « حلو » .

فكأنه لما لم يجد صورة البياض في تخيله ردها إلى حاسة أخرى هو واجد لمحسوسها ، فسامها بها ، وظنها إيّاها . أو يُغْتَابَ به ؛ لأنه يعرف قبح الشر ، ويحبُّ لنفسه التي هي حبيبته أن تكون بريئة من كل عيب ، بعيدة من كل ذنب ودم ، فإذا رُميت بشر لحقه غمٌ أولاً ، ثم محبة الانتقام ممن غمه .
والغضب حقيقته حركة النفس للانتقام ، وهذه الحركة تُثير دم القلب حتى يغلي ؛ ولذلك يُحدُّ الغضب بأنه غليان دم القلب شهوة الانتقام .

* * *

فأما غضب الإنسان من شر ينسب إليه وليس هو فيه فبالواجب ؛ لأنه قُصِدَ بالظلم لِيُغَمَّ .

وفائدة الغضب ، وسبب وجوده في الإنسان هو أن يَنْتَصِرَ به من الظالم ، أو يمنعَه ويضعَه عن نفسه ؛ فإذا علم الإنسان أن قاصداً يقصده بالظلم أحبُّ الانتقام منه ، وتحركت نفسه لذلك ، فحدث الغضب .

فقد استبان من الصدق والكذب جميعاً في هذه المسألة ، سبب هيج الغضب ، ومائته أيضاً .

لماذا الحضور عند الذكرى ؟

ماعلة حضور المذكور عند مَقْطَعِ ذكره وهو لا يُتَوَقَّع فيه ؟
هذا كثير معهود ، وإن لم يكن من باب المعتاد المألوف ، ولو كان من ذلك لسقط التعجب ، وزال الإكبار ، ووقع الاشتراك .

ومن هذا الضرب رؤية الإنسان بالالتفات مَنْ لم يكن يَظُنُّ أنه يَراه .
وكذلك تشبيهك بعض من يلحقه طرفك بمعهود لك ، حتى إذا حَدَّقْتَ نحوه لم يكن ذاك ، ثم إنك لا تلبث حتى تصادف المشبه به .
وهل هذا كله بالاتفاق ؟

وإن كان بالاتفاق فما الاتفاق ؟ وهل الاتفاق هو الوفاق ؟
وما الوفاق ؟ حتى يكون البيان عنه بياناً عن الأول ، أو مُطْلِعاً عليه ، أو مُقَرَّباً إليه .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :

إن النفس علامة بالذات ، درأكة للأمور بلا زمان ؛ وذاك أنها فوق الطبيعة ، والزمان إنما هو تابع للحركة الطبيعية ، وكأنه^(١) إشارة إلى امتدادها ؛ ولذلك اشتق اسم المدة منه^(٢) ؛ لأن المدة فُعلة ، والامتداد افتعال ، وأصلهما واحد من المد . ولما كانت النفس فوق الطبيعة ، وكانت أفعالها فوق الحركة ، أعنى فى غير زمان ؛ فإذن ملاحظتها الأمور ليست بسبب الماضى ولا الحاضر ، ولا المستقبل ، بل الأمر عندها فى السواء ، فمتى لم تعقها عوائق الهولوى والهوليات ، وحُجِبَ الحس والمحسوسات - أدركت الأمور ، وتجلت لها بلا زمان ، وربما ظهر هذا الأمر منها فى بعض المزاجات أكثر حتى يرتفع إلى حد التكهّن والإنذار بالأمور المستقبلية . وهذا الإنذار ربّما كان فى زمان بعيد ، فكلما كان أبعد ، والمدة أطول ، كان أبدع عند الناس وأغرب ، ثم لا يزال يقرب الزمان ، ويقصر فيه ، حتى يتلوّ وقت الإنذار بلا كبير فاصلة .

وهذا الحال تعرض لمن يذكر الإنسان فيحضر المذكور عند مقطع ذكره ، ولم يكن ذكره سبباً لحضوره ، بل كان الأمر بالضد ؛ فإن قرب حضوره أشعر النفس حتى أنذرت به .

وكذلك الحال فى الرؤية بالالتفات ؛ فإن قرب المُلتفت إليه هو الذى حرك النفس حتى استعملت آلة الالتفات .

واستقصاء هذا غير لائق بشرطنا فى ترك الإطالة ، ولولا ذلك لذكرنا أموراً بديعة من هذا الجنس ، وفى هذا القدر كفاية وبلاغ فيما سألت عنه .

* * *

فأما مسألتك عن الاتفاق ، وهل هو الوفاق ؟ وما الوفاق ؟ فقد وعدنا بالكلام فيه فى مسألة تجيء بعد هذه .

ولعمري إن الاتفاق هو الوفاق ؛ لأنه افتعال منه ، والأصل واحد ، والاشتقاق دال عليه .

وسنخبر عنه إخباراً كافياً عند ذكر البخت والجذ ، إن شاء الله .

(١) فى الأصل « وكأنها » .

(٢) فى اللسان : « المدة : طائفة من الزمان تقع على القليل والكثير ، وماد فيها : أى أطالها ، وهى فاعل من المد » .

لماذا لا يرجع عمر الانسان ؟

لِمَ لَمْ يرجع الإنسان ، بعدما شاخ وخَرِفَ ، كهلاً ، ثم شاباً غريراً ، ثم غلاماً صبيهاً ، ثم طفلاً كما نشأ ؟

وعلام يدل هذا النظم ؟ وإلى أى شىء يشير هذا الحكم ؟

الجواب

ليست الشيخوخة والهرم نهايةً نشوء الإنسان ، ولا غايةً الحركة الطبيعية ، أعنى النامية ، فتروم - أيديك الله - أن يعود الشيخ فى مسالكها إلى المبدأ الذى تحرك منه ، بل ينبغى أن تعلم أن غاية النشوء والحركة إنما هى عند منتهى الشباب ثم حينئذ يقف ، وذلك زمان التكهل ، ثم ينحط ، وذلك زمان الشيخوخة ؛ وذلك أن الحرارة الغريزية التى فى الأجسام المركبة من الطبائع الأربع مادامت فى زيادة قوتها فهى تنشئ الجسم الذى هو فيه بأن تجتذب إليه الرطوبات المتلائمة بدلاً ما يتحلل منها فتكون غذاءً له ، ثم تبقى بقيه جذبها^(١) فضل القوة - فاضلة عن قدر الغذاء الذى عوض من المتحلل ، فزادتها فى مساحة الجسم ، ومددت بها أقطاره ، فإذا تناهت القوة وقفت فلم تزد فى الأقطار شيئاً ، بل غايتها حينئذ أن تحفظ على ذلك الجسم أقطاره ومقداره ، بأن تغذيه أعنى أن تجتذب من الرطوبات مقدار ما يسرى فى الجسم عوضاً عما تحلل بلا زيادة تنصرف إلى التزديد والتمديد .

ثم إن الحرارة تضعف قليلاً ، وتأخذ فى النقصان بعد أن تقف وقفة فى زمان التَّكَهُل ، فيبتدىء البدن فى النقص ، ويصير الإنسان إلى الانحطاط عن تلك الحركة الأولى ، فلا يزال الغذاء ينقص عن مقدار الحاجة ، فلا يفى ما يعتاض من الرطوبة بما تحلل منها ، فهو كذلك إلى أن يهرم ، ويبلغ إلى الانحلال الذى هو مقابل التركيب الذى بدأ منه ، وهو الموت الصحيح الطبيعى .

وهذه سبيل كل حركة قهرية فى أنها تبتدىء بتزديد ، ثم تنتهى إلى غاية ، ثم تقف وقفة ، ثم تنحط .

ولما كان مزاج الإنسان وكل مركب من الطبائع المتضادة إنما كان بجامع جمعها ، وقاهر قهرها حتى ألفها مع تضادها ونفور بعضها من بعض - صارت حركتها قهرية ، ومن شأن الحركة القهرية ما ذكرت من أمرها إذا لم يُتبعها القاهر أبداً ، بقهر بعد قهر . فوجب فى حركة النشوء ما وجب فى كل حركة من جنسها ، ولم يعد الشيخ

(١) فى الأصل « جذبتها » .

كهلا ، ثم شاباً ، ثم طفلاً ؛ لأن الحركة لم تقع على هذا النظام ، ولا الشيخوخة هي غاية الحركة ، بل هي غاية الضعف ، ونظير الطفولة .

ووسط زمان الإنسان الذي بين الطفولة والشيخوخة هو غايته ، ثم العود في الانحطاط والحركة يكون على سبيل ما بدأ .

لماذا يعجب الانسان ؟

لم إذا أبصر الإنسان صورة حسنة ، أو سَمِعَ نغمة رَخِيمة قال : والله ما رأيت مثل هذا قط ، ولا سمعتُ مثل هذا قط ، وقد عَلِمَ أنه سَمِعَ أَطْيَبَ من ذلك ، وأَبْصَرَ أَحْسَنَ من ذلك ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :

أما بحسب الفقه أو مُقتضى اللّغة فهو غيرُ حائث ولا مخْطىء ؛ لأن شيئاً لا يماثل شيئاً بالإطلاق ، ولا يقال في شيء : هذا مثل هذا إلا بتقييد ، فيكون مثله في جوهره ، أو كمّيّته ، أو كيفيّته ، أو غير ذلك من سائر المقولات ، وقد يماثله في اثنتين منها^(١) وأكثر ، فأما في جميعها فمحال .

فهذا وجهه صحة قول الإنسان : والله ما رأيت مثله .

فأما من جهةٍ أخرى - وهي جهةٌ طبيعيّة - فإنك تعلم أن الحسَّ سيالٌ بسيلان محسوسة ، فإذا استثبت صورة ، ثم زالت عنه ، وحضرت أخرى شغلته وثبتت بدلاً الأخرى ، فلا يحصرُ الحس إلا ما قد أثر فيه دون ما قد زال ، وإنما جصلت الأولى في الذّكر ، وفي قوة أخرى ، وربما لم يجتمعا ، أو لم يحضر الذّكر ، فيكون قول الإنسان على حسب الحاضر ، وحضور الذّكر أو غيبته .

لماذا يستحسن الانسان الصورة الحسنة ؟

ما سبب استحسان الصّورة الحسنة ؟

وما هذا الولوعُ الظاهرُ ، والنظرُ ، والعشقُ الواقعُ من القلب ، والصّبايةُ المثيمةُ للنفس ، والفكرُ الطاردُ للنوم ، والخيالُ المائلُ للإنسان ؟

أهذه كلّها من آثار الطبيعة ؟ أم هي من عوارض النفس ؟ أم هي من دواعي العقل ؟ أم من سهام الروح ؟ أم هي خالية من العلل جارية على الهذر !

وهل يجوزُ أن يوجد مثل هذه الأمور الغالبة ، والأحوال المؤثرة على وجه العبث ، وطريق البطل^(٢) ؟

(١) في الأصل : « في اثنين منهما » .

(٢) في اللسان : « بطل في حديثه بطالة وابطال : هزل ، والاسم البطل » .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :

أما سبب الاستحسان لصورة الإنسان فكمالٌ في الأعضاء ، وتناسبٌ بين الأجزاء مقبولٌ عند النفس .

وهذا الجوابٌ بحسب غرضك من المسألة التي هي مُتوجِّهةٌ نحو الصورة الإنسانية المعشوقة دون غيرها .

وأقول : إن الطبيعة مُقْتَفِيَةٌ أفعال النفس وآثارها ، فهي تعطى الهيولى والأشياء الهيولانية صوراً بحسب قبولها ، وعلى قدر استعدادها ، وتحكى في ذلك فعل النفس فيها - أعنى في الطبيعة - ولكنها هي بسيطةٌ ، فتقبلُ من النفس صوراً شريفة تامة ، فإذا أرادت أن تنقش الهيولى بتلك الصور أعجزت الأمور الهيولانية عن قبولها تامة وافية ؛ لقلة استعدادها ، وعدمها القوة الممسكة الضابطة ما تُعْطاه من الصور التامة .

وهذا العجز في الهيولى ربما كان كثيراً ، وربما كان يسيراً ، وبحسب قوتها على قبول الصور يكون حُسْنُ موقع ما يحصل فيها من النفس ؛ فإن المادة الموافقة للصورة تقبل النقش تاماً صحيحاً مشاكلاً لما قبلتها الطبيعة من النفس . والمادة التي ليست بموافقة تكون على الضد . والمثال في ذلك أن الطبيعة إنما تعمل من المادة عند تَجْبِيلِ^(١) الناس في الرَّحِمِ الْفَطَسِ^(٢) في الأنف ، والزرقة في العينين ، والصُّهُوبِ في الشعر^(٣) ، وبحسب قبول الهيولى الموضوع لها ، لا أنها تقصد الصور الناقصة ، بل تقصد - أبداً - الأفضل ، ولكن المادة الرطبة تأبى إلا قبول ما يلائمها ، وذلك أن الدَّعَجَ في العين^(٤) ، والشَّمَمَ في الأنف^(٥) صورٌ تحتاج إلى اعتدال المادة بين الرطوبة السيالة ، واليبوسة الصلبة ، ولا يمكن إظهارها في المادة الرطبة ، كما لا يمكن صياغة خاتم من شمع ذائب .

وربما كانت المادة حازجة من طريق الكمية دون الكيفية فلا تتم الخلقة على أفضل الهيئات . وكذلك الحال في شعر الرأس ، وأهداب العين والحاجب ، فإنها لا تنتقش على ما ينبغي إذا كانت ناقصة المادة ، أو غير معتدلة في الكيفيات فتعمل الطبيعة منها ما يمكن ويتأتى ، فتجىء الصورة غير مقبولة عند النفس ؛ لأنها لا تطابق ما عندها

(١) في اللسان : « جبل الله الخلق يجعلهم : خلقهم » .

(٢) في اللسان : « الفطس : انخفاض قصبه الأنف وانفراشها » .

(٣) في اللسان : « الصهوبة : أن يعلو الشعر حمرة وأصوله سود ، فإذا رهن خيل إليك أنه أسود » .

(٤) الدعج : شدة سواد العين .

(٥) في اللسان : « الشمم في الأنف : ارتفاع القصبه وحسنها ، واستواء أعلاها . وانتصاب الأرنبة » .

من الكمال . فأما وأنت تتأمل ذلك من طين الختم فإنه إذا كان ناقص الكمية غير مقدار الخاتم ، أو يابساً ، أو رطباً أو خشناً - نقصت صورة الخاتم ، ولم يقبل النقش على التمام والكمال .

فأما المثال في المادة الموافقة فهو بالضد من هذا المثال ؛ فلذلك تقبل ما تعطيها الطبيعة على التمام ، وتتقش نقشاً صحيحاً مناسباً مشاكلاً لما في النفس ، فإذا رأتها النفس سرت ؛ لأنها موافقة لما عندها مطابقة لما أعطتها الطبيعة .

فكما أن الصناعة تقتفي الطبيعة ، فإذا صنع الصانع تمثالاً في مادة موافقة فقبلت منه الصورة الطبيعية تامة صحيحة : فرح الصانع ، وسر وأعجب ، وافتخر ؛ لصدق أثره ، وخروج ما في قوته إلى الفعل موافقاً لما في نفسه ، ولما عند الطبيعة - فكذلك حال الطبيعة مع النفس ، لأن نسبة الصناعة إلى الطبيعة في اقتنائها إياها كنسبة الطبيعة إلى النفس في اقتنائها إياها .

ثم إن من شأن النفس إذا رأت صورة حسنة متناسبة الأعضاء في الهيئات والمقادير والألوان وسائر الأحوال ، مقبولة عندها ، موافقة لما أعطتها الطبيعة - اشتاقت إلى الاتحاد بها ، فنزعته من المادة ، واستشبتتها في ذاتها ، وصارت إياها ، كما تفعل في المعقولات .

وهذا الفعل لها بالذات ، له تتحرك ، وإليه تشاق ، وبه تكمل ، إلا أنها تشرف بالمعقولات ، ولا تشرف بالمحسوسات .

فإذا فعلت النفس ذلك ، واشتاقت إلى الطبيعيات والأجسام الطبيعية - رامت الطبيعة في الأجساد من الاتحاد ما رامت النفس في الصور المجردة ، فلا يكون لها سبيل إليه ؛ لأن الجسد لا يتصل بالجسد على سبيل الاتحاد ، بل على طريق المماسّة ، فتحصل حينئذ على الشوق إلى المماسّة التي هي اتحاد جسماني بحسب استطاعتها .

وهذا من النفس غلط كبير ، وخطأ عظيم ، لأنها تتكس من الحال الأشرف إلى الحال الأدنى ، وتتصور بصورة طبيعية منها أخذت ، وبها ابتديت ، وتفوتها الصور الشريفة العقلية التي ترتقى بها إلى الرتبة العليا ، والسعادة العظمى .

وهذا الذي ذكرته هو الأمر الذاتي الكلي الجاري على وتيرة طبيعية تحصرها الصناعة ، وتضبطها القوانين .

فأما الاستحسان العرضي والجزئي - أعني ما يستحسنه شخص ما بحسب مزاج ما - فهو أيضاً لأجل نسبة ما ، ولكنه يصير شخصياً ، والأمور الشخصية لا نهاية لها فلذلك لا تنحصر تحت صناعة ، ولا لها قانون .

والذى ينبغى أن يُعَلَّمَ منها أن كلَّ مِزَاجٍ متباعد من الاعتدال تكون له (١) مناسباتٌ نحو أمورٍ خاصةٍ به (٢) ، ويخالفه المزاج الذى هو منه فى الطرف الآخر من الاعتدال حتى يستقبح هذا ما يستحسن هذا ، وبالضدِّ ، وكذلك ما تقيده العادات والاستشعارات ، وهو موجودٌ فى استلذاذ المأكول والمشروب ؛ فإن الأمزجة البعيدة من الاعتدال تُناسبُ طُعوماً غريبة ، وتستلذُّ منها طرائف وعجائب . والاستقرار يفيدك كلَّ عجيبة وطريقة من هذا النحو فى الروائح والسمع وجميع الحواس .

لماذا يقتل الانسان نفسه ؟

تُرى ما السبب فى قتل الإنسان نفسه عند إخفاق يتوالى عليه ، وفقر يحوج إليه ، وحالٍ تتمنع على حوله وطوقه ، وبابٍ يُسدُّ دون مطلبه ومآربه ، وعشقٍ يضيق ذرعاً به ، ويثقل فى معالجه (٣) ؟

وما الذى يرجو بما يأتى ؟ وإلى أى شىء ينحو فيما يقصد وينوى ؟ وما الذى ينتصبُ أمامه ، ويستهلكُ حصافته ، ويذهله عن رُوح مألوفة ، ونفس معشوقة ، وحياة عزيزة ؟

وما الذى يخلص إلى وهمه من العدم حتى يسلبه من قبضة الوجدان ويُسلِّمه إلى صرف الحدثان ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :

الإنسان مركب من ثلاث قوى نفسانية ، وهو كالواقف بينها تجذبه (٤) مرة ، وهذه مرة . وبحسب قوة إحداها على الأخرى ، يميل بفعله ، فربما غلب عليه القوة الغضبية ، فإذا انصبغ بها ، ومال بفعله إليها ظهرت قوته كلها كما غضب ، وخفيت القوى الأخرى حتى كأنها لم توجد له ، وكذلك إذا هام به القوة الشهوية خفيت آثار القوى الأخرى .

وأحصف ما يكون الإنسان ، وأحسنه حالاً إذا غلبت عليه القوة النامية فإن هذه القوة هى المُميزة العاقلة التى تُرتب القوى الأخرى حتى تظهر بحسب ما تحدّه وترسمه .

والإنسان حينئذ نازل بالمنزلة الكريمة بحيث هَيَّأه الله تعالى ، وكما أراد . فإذا كان الأمر كذلك فغير مُنكر أن تهيج بالإنسان بعض القوى منه عند التواء أمر

(١) فى الأصل : « لها » .

(٢) فى الأصل : « بها » .

(٣) فى اللسان : « البعل » : الضجر والتبرم بالشىء ، وبعل بامرء بعلاقه هو بعل : برم فلم يدر كيف يصنع فيه .

(٤) فى الأصل : « يجذبها » .

عليه ، أو انسداد باب دون مطلب له ، فيظهر منه لا توجه رويته ، ولا يقتضيه تمييز ؛
لخفاء أثر القوة الناطقة ، واستمداد القوة الأخرى .

وأنت تجد ذلك عيانا عند الأحوال المختلفة بك ؛ فإنك تجد نفسك في أى على
أحوال مؤثرة لها ، قاصدة إليها ، غير مصغية إلى نصيح ، ولا قابلة أمر حتى إذا أفقت
من تلك السكرة التي غلبت عليك في تلك الحال - من الأفعال التي ظهرت منك ،
وأنكرت نفسك فيها ، وكأن غيرك كان الذى أثرها ، وقصد إليها ، فلا تزال كذلك
حتى تهيج بك تلك القوة الأولى مرة أخرى ، فلا يمنعك ما جرّبته من نفسك ،
ووعظتها به - أن تقع في مثله . وسبب ذلك التركيب من القوى المختلفة النفسانية .
وليس يمكن الإنسان أن يخلص بقوة واحدة ، ويصدر أفعال الباقية بحسب التي هي
أفضل وأشرف إلا بعد معالجة شديدة ، وتقويم كثير ، وإدّمان طويل ؛ فإن العادة إذا
استمرت ، والعزيمة إذا أنفذت في زمان متصل طويل - حصل منها خلق ، فكان
الحكم له ، وصار هو الغالب ؛ ولذلك نأمر الأحداث بالسيرة الجميلة ، ونؤاخذهم
بالآداب التي تسنها الشرائع ، وتأمّر بها الحكمة .

واستقصاء هذا الكلام ، وذكر علله لا تقتضيه المسألة ، ولا يفى به المكان .
فإن شك فيما قلنا شك ، وظن أن الإنسان المركّب من القوى الثلاثة يجب أن
يكون لازما لأمر واحد متركب من تلك القوى كما نجد الحال في سائر المعجونات
والمركّبات من الطبيعة ، فليعلم أن مثاله ليس بصحيح ؛ لأن قوى الإنسان نفسانية ،
لها من ذاتها حركات تزيد^(١) وتنقص ، وأحوال - أيضا - تهيجها . وليست كذلك قوى
الطبيعات ، فلتنعم النظر في ذلك تجده كما أومأنا إليه وذكرناه .

من القاتل ؟

سألت بعض مشايخنا بمدينة السلام عن رجل اجتاز بطرف الجسر ، وقد اكتفه الجلاوزة^(٢)
يسوقونه إلى السجن ، فأبصر موسى وميضة في طرف دكان مزين ، فاخطفها كالبرق ، وأمرها على
حلقوميه ، فإذا هو يخور في دمائه ، قد فارق الروح وودّع الحياة . فقلت : من قتل هذا الإنسان ؟
فإذا قلنا : قتل نفسه ، فالقاتل هو المقتول ، أم غير المقتول ؛ فإن كان أحدهما غير الآخر ،
فكيف توأصلا مع هذا الانفصال ؟

وإن كان هذا ذاك ، فكيف تفاصلا مع هذا الاتصال ؟

وإنما شيعت المسألة الأولى بهذا السؤال لأنه ناح نحوها ، وقاف أثرها .

(١) في الأصل : « ... نفسانية من ذاتها حركات وتزيد » .

(٢) الجلاوزة : جمع جلواز ، وهو الشرطى .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
كان هذه المسألة مَبِينَةً على أن الإنسان شَيْءٌ لا كَثْرَةَ فِيهِ وَالشَّبَهَةُ فِيهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ
تَقْوَى ، فَإِذَا بَانَ أَنَّ لِلْإِنْسَانَ قُوَى كَثِيرَةً وَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنْهَا ، وَأَنَّهُ يَمِيلُ فِي وَقْتٍ مَا نَحْوِ
قُوَّةٍ ، وَفِي وَقْتٍ آخَرَ نَحْوَ غَيْرِهَا ، وَأَنَّ أَفْعَالَهُ - أَيْضاً - بِحَسَبِ مِيلِهِ ^(١) إِلَى إِحْدَى
الْقُوَى ، وَغَلَبَتْهَا عَلَيْهِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي الْمَسْأَلَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ - زَالَ هَذَا الشَّكُّ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ : كَيْفَ تَوَاصَلَ مَعَ هَذَا الْإِنْفِصَالِ ؟ فَأَقُولُ :
إِنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْبَارِي تَعَالَى لَمَّا عَلِمَ أَنَّ هَذَا الْمُرَكَّبَ مِنْ نَفْسٍ وَجَسَدٍ
يَحْتَاجُ إِلَى أَشْيَاءَ تَقِيْمُهُ مِنْ غِذَاءٍ وَغَيْرِهِ ، وَأَنَّهُ لَا قَوَامَ لِحَيَاتِهِ إِلَّا بِمَادَّةٍ ، وَكَانَ لَا يَصِلُ
إِلَى تِلْكَ الْمَادَّةِ إِلَّا بِحَرَكَةٍ وَسَعَى ، وَكَانَتْ الْعَائِقَاتُ وَالْمَانَعَاتُ عَنْهَا كَثِيرَةً - أَعْطَاهُ قُوَّةً
يَصِلُ بِهَا إِلَى حَاجَاتِهِ ، وَيُدْفَعُ بِهَا أَضْدَادَهَا عَنْ نَفْسِهِ ؛ لِيَتِمَّ لَهُ الْبَقَاءُ .
وَمِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْقُوَّةِ أَنْ تَهَيِّجَ وَتَثَوِّرَ فِي أَوْقَاتٍ بَأَكْثَرٍ مِمَّا يَنْبَغِي ، وَفِي أَوْقَاتٍ تَقْصُرُ
عَمَّا يَنْبَغِي .

فهذه جملة من القول في الفِرَاسَةِ .
وَيَنْبَغِي أَنْ تَحْذَرَ الْحَكْمَ بِدَلِيلٍ وَاحِدٍ ، وَتَتَوَخَّى جَمِيعَ الدَّلَائِلِ مِنَ الْأَصُولِ
الثَّلَاثَةِ ؛ لِتَكُونَ بِمَنْزِلَةِ شُهُودٍ عَدُولٍ لَا يَتَدَاخَلُكَ الشَّكُّ فِي صِدْقِهِمْ ، فَيَكُونَ حَكْمُكَ
صَادِقًا ، وَفِرَاسَتُكَ صَحِيحَةً ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ دُرِّيَّتِكَ بِالصَّنَاعَةِ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ بِالْأَصُولِ .
وَمَا أَكْثَرَ الْإِنْتِفَاعَ بِهَذَا الْعِلْمِ وَأَحْضَرَهُ ؛ فَإِنِّي أَرَى فِي الْجَوْلَانِ الَّذِي يَتَّفِقُ لِي فِي
الْأَرْضِ ، وَكَثْرَةَ الْأَسْفَارِ أَنَّ أَرَى ضَرْوِيًا مِنَ النَّاسِ ، وَأَخَالَطُ أَخْيَافَ الْأُمَمِ ^(٢) ،
وَأَشَاهِدُ عَجَائِبَ الْأَخْلَاقِ فَاسْتَعْمِلِ الْفِرَاسَةَ ، فَيَعْظُمُ نَفْعُهَا ، وَتَتَعَجَّلُ فَائِدَتُهَا .
وَالْفِرَاسَةُ رُبَّمَا تَخْطِئُ فِي الْفِيلَسُوفِ التَّامِ الْحِكْمَةَ وَوَجْهَ ذَلِكَ ^(٣) أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ ذَا
مِزَاجٍ فَاسِدٍ ، وَخَلَقَ - بِالطَّبْعِ - مُشَاكِلَ لَهُ ، فَيُصْلِحُهُ ، وَيَهْدِيهِ بِطَوْلِ الْمُعَانَاةِ ، وَتَعَاهُدِ
نَفْسِهِ بِدَوَامِ السَّيْرِ الْحَمِيدَةِ ، وَلِزُومِ السَّجَايَا الرَّضِيَّةِ ، كَمَا يَحْكِي عَنْ أَفْلِيمُونَ ^(٤) ،
وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَبَقَ إِلَى هَذَا الْعِلْمِ ، فَإِنَّهُ حَمَلَ إِلَى أَبْقَرِطَيْسٍ وَهُوَ مُتَنَكِّرٌ فَدَخَلَ إِلَيْهِ وَهُوَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « مِثْلُهُ » .

(٢) فِي اللَّسَانِ : « الْأَخْيَافُ : الضَّرُوبُ الْمُخْتَلِفَةُ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْأَشْكَالِ وَمِنْ النَّاسِ : الَّذِينَ أَمَهُمْ وَاحِدَةٌ
وَأَبَاؤُهُمْ شَتَّى ، يُقَالُ : النَّاسُ أَخْيَافٌ : أَيِ مُخْتَلِفُونَ لَا يَسْتَوُونَ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « التَّامِ الْحِكْمَةَ وَوَحْدَهُ وَذَلِكَ » .

(٤) رَاجِعْ تَرْجُمَتَهُ فِي أَخْبَارِ الْحُكَمَاءِ ص ٤٤

لا يعرفه ، فلما تأمله حَكَم عليه : زَانٍ ، فَهَمُّ أصحابه بالوثوب عليه ، فنهاهم أبقراطيس وقال : قد صدق الرجل بحسب صناعته ، ولكنى بالقهر أُمْنَعُ نفسى من إظهار سجيَّتها^(١) .

لماذا يحرص الانسان على ما منع منه ؟

ما سِرُّ قولهم : الانسان حريص على ما مُنِع ؟
ولم صار هذا هكذا ؟
وكيف يسرع المَلَلُ^(٢) مما بُذِلَ^(٣) ، وَيُضَاعَفُ الْوَلُوعُ بطلب ما يُبْخَلُ به ؟
هَلَّا كَانَ الْحَرَصُ فى مقابلة ما وجد ، والزَّهْدُ فى مقابلة ما مُنِع ؟
ولهذا ما صار الرخيص مُرْغُوباً عنه ، والغالى مُرْغُوباً فيه ، ولهذا إذا ركب الأمير لا يُحْرَصُ على رؤيته ما يُحْرَصُ على رؤية الخليفة إذا برز .

الجواب

قال أبو مسكويه - رحمه الله - ؛
إِنَّ النَّفْسَ غَنِيَّةٌ بِذَاتِهَا ، مَكْتَفِيَةٌ بِنَفْسِهَا ، غَيْرُ مُحْتَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهَا .
وإنما عرض لها الحاجة والفقر إلى ما هو خارج منها لمقارنتها الهيولى ، وذلك أن أمر الهيولى بالضد من أمر النفس فى الفقر والحاجة ، والإنسان لما كان مركباً منها عرض له الْتَشَوُّفُ^(٤) إلى تحصيل المعارف والقُنْيَات .
أما المعارف والعلوم فهو يُحَصِّلُهَا فى شبيهة بالخزانة له ، يرجع إليه متى شاء ، ويستخرج منه ما أراد ، أعنى القوة الذاكرة التى تُسْتَوْدَعُ الأمور التى تُسْتَفَادُ من خارج ، أعنى من العلماء والكتب ، أو التى تُسْتَثَارُ بِالْفِكْرِ والرَّوْيَةِ من داخل .
وأما الْقُنْيَاتُ والمحسوسات فإنه يروم منها ما يروم من تلك التى تقدم ذكرها فلذلك يغلط فيها ، ويخطئ فى الاستكثار منها إلى أن يتنبه بالحكمة على ما ينبغى أن يُقْتَنَى من العلوم والمحسوسات فيقصد نحو القصد من الأمرين جميعاً ، ويقف عنده .

وإنما حرص على ما مُنِعَ لأنه إنما يطلب ما ليس عنده ، ولا هو موجود له فى خِزَانَتِهِ فيتحرك لاقتنائه وتحصيله بحسب ميله إلى أحد الأمرين ، أعنى المعقول أو

(١) راجع اخبار الحكماء ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢) فى الأصل : « الملك » .

(٣) فى اللسان : « البذل : ضد المنع ، بذله يبذله ويبذله بذلاً : اعطاه وجاد به » .

(٤) فى اللسان « وتشوفت إلى الشيء : أى تطلعت ، ورايت نساء يتشوفن من السطوح : أى ينظرن ويتطلون » .

المحسوس ، فإذا حصَّله سكن من هذه الجهة ، وعلم أنه قد ادخره ، ومتى رجع إليه وجده ، إن كان مما يبقى بالذات ، وتَشَوَّف إلى جهة أخرى ، ولا يزال كذلك إلى أن يعلم أن الجزئيات لا نهاية لها ، وما مالا نهاية له فلا طمع في تحصيله ، ولا فائدة في النزاع^(١) إليه ، ولا وجه لطلبه ، سواء كان في المعلوم أو في المحسوس .
 وإنما ينبغي أن يقصد من المَعْلُومَاتِ إلى الأنواع والذوات الدائمة السرمدية الموجودة أبدا بحالة واحدة ، ويكون ذلك برد الأشخاص التي بلا نهاية إلى الوحدة التي يمكن أن تتأحد بها النفس ، ومن المَحْسُوسَاتِ الْمُقْتَنَةِ إلى ضَرُورَاتِ الْبَدَنِ ومُقِيمَاتِهِ دون الاستشكار منها ؛ فإن استيعاب جميعها غير ممكن لأنها أمور لا نهاية لها .

فإذن كل ما فَضَّلَ عن الحاجة ، وَقَدَّرَ الْكِفَايَةَ فهو مادة الأحران والهموم والأمراض ، وَضُرُوبُ الْمَكَارِهِ .

والغلط في هذا الباب كثير ، وسبب ذلك طمع الإنسان في الغنى من معدن الفقر ؛ لأن الفقر هو الحاجة ، والغنى هو الاستقلال ، أعنى ألا يحتاج بَتَّةً ؛ ولذلك قيل إن الله - تعالى - غنى ؛ لأنه غير محتاج بَتَّةً .

فأما من كثرت قُنْيَاتُهُ فإنه ستكثر حاجاته بحسب كثرة قنياته وعلى قدر مُنَازَعَتِهِ إلى الاستشكار تَكْثُرُ وجوه فقره ، وقد تبين ذلك في شرائع الأنبياء ، وأخلاق الحكماء .
 فأما الشيء الرخيص الموجود كثيرا فإنما رُغِبَ عنه لأنه معلوم أنه إذا التمسَ وَجُدَ ، وأما الغالي فإنما يُقَدَّرُ عليه في الأحيان وَيُصِيبُهُ الواحدُ بعد الواحد ، فكل إنسان يتمنى أن يكون ذلك الواحد ؛ لِيَحْصُلَ له ما لم يحصل لغيره ، وذلك من الإنسان على السبيل الذي شرحناه من أمره .

لماذا ينظر الانسان في العواقب ؟

ما سبب نظر الإنسان في العواقب ؟

وما مثاره منها ؟ وما آثاره فيها ؟

وما الذي يَحْلَى بِهِ^(٢) إذا استقصى ؟ وما الذي يَتَخَوَّفُهُ إذا جَنَحَ إلى الهَوْنَى ؟

(١) في اللسان : « ونازعته نفسى إلى هواها نزعا ؛ غالبتهى ، ويقال للإنسان ، إذا هوى شيئا ونازعته نفسه إليه : هو ينزع إليه نزعا » .

(٢) في اللسان : « وحلى بقلبي وعيني يحلى ، وحلى يحلو حلوة وحلوانا : إذا اعجبك وهو من المقلوب والمعنى يحلى بالعين » .

أو ما مراد الأولين في قولهم : الْمُحْتَفِلُ^(١) مُلْقَى^(٢) ، والمُسْتَرْسِلُ مُوقَى^(٣) .
الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
أما نظر الإنسان في العواقب فيكون لأمرين .
أحدهما لِيَتَطَّلَعَ إلى الأمور الكائنة ، وشوقه إلى الوقوف على الأمر الكائن قبل حدوثه ، لما تقدم فيه من الكلام في المسألة الأولى .
والآخر لأخذ الأَهْبَةِ له إن كان مما ينفع فيه ذلك ؛ ولهذا المعنى اشتاق الإنسان إلى الفأل والزجر إذا عدم جميع وجوه الاستدلال من أشكال الفلك ، وحركات النجوم ، وربما عدل إلى الْمُتَكِيهِنَ ، وصدق بكثير من الظنون الباطلة .

وأما قول المتقدمين : « المحتفل مُلْقَى ، والمسترسل مُوقَى » فهو على ظاهر كالمُنَاقِضِ للحكم الأول ؛ وذلك أن الإشارة في هذا المثل هو إلى أَنَّ الْمُحْتَفِلَ إنما يَتَوَقَّى ما لا بد أن يصيبه ، فهو يجتهد أن يخرج من حكم القضاء أعني موجبات الأقدار بتوسط حركات الفلك ، فيصير اجتهاده في الخروج منه سببا لحصوله فيه ، ووقوعه عليه . وإلى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله :
وَإِذَا حَذِرْتَ مِنَ الْأُمُورِ مُقَدَّرًا وَهَرَبْتَ مِنْهُ فَتَحْوُهُ تَتَوَجَّهُ
فَأَمَّا الْمُسْتَرْسِلُ إِلَى ذَلِكَ ، الرَّاضِي بِهِ فَإِنَّهُ مُوقَى مِمَّا هُوَ غَيْرُ مُقْضِيٍّ ، وَلَا هُوَ بِمُصِيبٍ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَتَوَقَّهِ ، كما قال الشاعر فيمن كان بغير هذه الصفة :
حَذِرُ أُمُورًا لَا تَكُونُ وَخَائِفٌ مَا لَيْسَ مُنْجِيهِ مِنَ الْأَقْدَارِ
ويتصل بهذا الباب شرح ما يجب أن يُتَوَقَّى ، وما يجب ألا يُتَوَقَّى ، أعني بذلك ما يغني فيه الفِكرُ والرَّوْيَةُ ، وما لا يغني فيه . وإذا مر ما يقتضيه من الكلام استقصيته إن شاء الله .

ماذا يلحق الانسان من قرينه ؟

ما يصيب الإنسان من قرينه في خيره وشره ؟
وكيف صار يُؤَثَّرُ الشريرُ في الخير أسرع مما يُؤَثَّرُ الخيرُ في الشرير ؟
وما فائدة النفس في المقارنة ؟

(١) في اللسان : « الحفل : المبالاة ، يقال : ما احفل بفلان ، أي ما ابالي به ، وحفلت كذا وكذا : أي باليت به . »

(٢) في اللسان رجل ملقى : أي لا يزال يلقاه مكروه .

(٣) في اللسان : وقاه الله وقاية بالكسر : أي حفظه ، والتوقية الكلاءة والحفظ قال : * إن الموقى مثل ما وقيت * .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :

ينال القرين من قرينه الاقتداء والتشبه ، وكما أن كل متجاورين من الأشياء الطبيعية لا بد أن يؤثر أحدهما في الآخر فكذلك حال النفس ؛ وذلك أن الطبيعة مُتشَبَّهة بالنفس ؛ لأنها شبيهة بظل النفس ، ومن شأن الشيء الأقوى في الطبيعة أن يُحِيلَ الأضعف إلى نفسه ويُشَبِّهه بذاته ، كما تجد ذلك في الحار والبارد ، والرطب واليابس ؛ ولأجل تأثير المجاور في مجاوره حدثت الأمراض في البدن ، وبسببه عُولِجَ بالأدوية .

ولما كانت النفس التي فينا هيولانية^(١) صار الشر لها طباعا ، والخير تكلفاً وتعلماً ، فاحتجنا - معاشر البشر - أن نتعب بالخير حتى تستفيد ونقتنيه ، ثم ليس يكفينا تحصيل صورته حتى نألفه ، ونتعوده ، ونكرّر زمانا طويلا الحالة التي حصلت لنا منه على أنفسنا ؛ لتصير ملكة وسجية بعد أن كانت حالا .

فأما الشر فلسنا نحتاج إلى تعب به ، وتحصيله ، بل يكفي فيه أن نُخَلِّيَ النفسَ وسومها^(٢) ، ونتركها على طبيعتها ، فإنها تخلو من الخير ، والخلو من الخير هو الشر ؛ لأنه قد تبين في المباحث الفلسفية أنه ليس الشر بشيء له عين قائمة ، بل هو عدم الخير ؛ ولذلك قيل : الهيولى معدن الشر وينبوعه لأجل خلوها من جميع الصور ، فالشر الأول البسيط هو عدم ، ثم يتركب ، وسبب تركبه الأعدام التي هي مقترنة بالهيولى .

وشرح هذا الكلام طويل ، إلا أن الذى يحصل لك من جواب المسألة فيه أن النفس تشبه بالنفس المقارنة لها ، وتقتدى بها ، والشر أسرع إليها من الخير ؛ لما ذكرناه وهو أن النفس التي فينا هي هيولانية ، وأعنى بهذا القول أنها قابلة للصّور من العقل ، فالمعقولات إنما تصير معقولات لنا إذا ثبتت صورها في النفس ، ولذلك قال أفلاطون : إن النفس مكان للصّور . واستحسن أرسططاليس هذا التشبيه من أفلاطون ؛ لأنه استعارة حسنة ، وإيماء فصيح إلى المعنى الذى أراده .
فيجب - على هذا الأصل - أن نتوقى مُجالسة الأشرار ، ومخالطتهم ، ومقارنتهم ، ونقبل قول الشاعر :

(١) فى الأصل « لاهوتية » .

(٢) فى اللسان « وخليته وسومه : أى وما يريد » .

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فإن القرين بالمقارن مقتد^(١)
وينبغي أن نأخذ الأحداث والصبيان به أشد الأخذ فقد مر في مسألة ما يحقق هذا
المعنى ، ويؤكدّه ، وينبّه عليه .

لماذا يتظاهر الانسان ؟

ما وجه تسخيف من أطال ذيلة وسجّه ، وكبر عمامته ، وحشا زيقه^(٢) قطناً وعرض جيته
تعريضا ، ومشى متبهئسا^(٣) ، وتكلم متشادقا ؟
ولم شنع هذا ونظيره ؟ وما الذى سمح هذا وأمثاله ؟
ولم لم يترك كل إنسان على رأيه واختياره ، وشهوته وإيثاره ؟
وهل أطبق العقلاء المميزون ، والفضلاء المبرزون على كراهة هذه الأمور إلا لیسر خاف ،
ونحيبة موجودة ؟
فما ذلك السر ؟ وما تلك النحيبة ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
ينكر مما ذكرته كله التكلف ، وذاك أن من خالف عادات الناس في زيهم ،
ومذاهبيهم ، وتفرد من بينهم بما يباينهم ، ثم احتمل مؤونة ما يتجشمه ، فليس ذلك
منه إلا لغرض مخالف لأغراضهم ، وقصد لغير ما يقصدونه : فإن كان غايته من هذه
الأشياء أن يشهر نفسه ، وينبّه على موضعه فليس يعدو أن يؤهم بها أمراً لا حقيقة له ،
ويطلب حالا لا يستحقها ؛ لأنه لو كان يستحقها لظهرت منه ، وعرفت له من غير
تكلف ولا تجشم لهذه المؤن الغليظة ، فإذا هو كاذب فعلا ، ومزور باطلا
وما تعاطى ذلك إلا ليغرّ سليما ، ويخدع مستريلا . وهذا مذهب المحتال الذى
يتحرّز منه ، ويتباعد عنه . هذا إلى ما يجمعه من بديهة المخالفة ، والمخالفة سبب
الاستيحاءش ، وعلة النفور ، وأصل المعادة .

وإنما حرص الناس وأهل الفضل ، وحرص لهم الأنبياء عليهم السلام بما وضعوه
لهم من السنن والشرائع ؛ لتحذث بينهم الموافقة والمناسبة التى هى سبب
المحبات ، وأصل المودات ؛ ليتشاركوا فى الخيرات ، ولتحصل لهم صورة التأحد
الذى هو سبب كل فضيلة ، ولأجله تم الاجتماع فى المدنية الذى هو سبب حسن
الحال فى العيش والاستمتاع بالحياة والخيرات المطلوبة فى الدنيا .

(١) يروى « وسل عن قرينه ، والبيت لعدى بن زيد كما فى عيون الأخبار ٧٩/٣ وحماسة البحتري ٣٠٧
ومجموعة المعانى ص ١٤ ونهاية الأرب ٦٢/٣ وجمهرة اشعار العرب ص ١٠٣ وورد منسوباً لطرفة كما فى
ديوانه ص ١٥٣ .

(٢) فى اللسان « زيق القميص : ما احاط بالعنق » .

(٣) فى اللسان « يتبهس : إذا كان يتبختر فى مشيه » .

لماذا الخوف بلا مخيف ؟

ما سبب استشعار الخوف بلا مخيف ؟
وما وجه تجلّد الخائف والمصاب كراهة أن يوقّف منه على فسولة طبعه ، أو قلة مكانته ، أو سوء جزعه ، هذا مع تخاذل أعضائه ، وندائه على ما به ، واستحالة أعراضه ، ووجيب قلبه ، وظهور علامات ما إذا أراد طية ظهر على أسيرة وجهه ، والحافظ عينيه ، وألفاظ لسانه ، واضطراب شمائله ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
سبب ذلك توقّع مكروه حادث ، فإن كان السبب صحيحاً قوياً ، والدليل واضحاً جلياً كان الخوف في موضعه .
وإن لم يكن كذلك ، وكان من سوء ظن ، وفساد فكر فهو مرض أو مزاج فاسد من الأصل .

ثم بحسب ذلك المكروه يحسن الصبر ، ويحمد احتمال الأذى العارض منه وتظهر من الإنسان أمارات الشجاعة أو الجبن .
وأثبت الناس جناحاً وجأشاً ، وأحسنهم بصيرة وروية لا بد أن يضطرب عند نزول المكروه الحادث به ، الطارئ عليه ، لاسيما إن كان هائلاً ؛ فإن أرسططاليس يقول : « من لم يجرع من هيج البحر وهو راكبه ، ومن الأشياء الهائلة التي فوق طاقة الإنسان فهو مجنون » .

وكثير من المكاره يجرى هذا المجرى ويقاربه ، والجزع لا حق بالمرء على حسبه ومقداره : فإن كان المكروه والمتوقّع مما يطيق الإنسان دفعه أو تخفيفه فذهب عليه أمره ، واستولى عليه الجزع ، ولم يماسك له فهو جبان جزوع مذموم من هذه الجهة .

ودواؤه التدرب باحتمال الشدائد وملاقاتها ، والتصبر عليها ، وتوطين النفس لها قبل حدوثها ؛ لئلا ترد عليه وهو غافل عنها ، غير مستعد لها .
وإذا كانت الشجاعة فضيلة ، وكانت ضدّها نقيصة ورذيلة ؛ فمن الذي لا يحب أن يستتر نقيصته ، ويظهر فضيلته ، مع ما تقدم من قولنا فيما سبق . إن كل إنسان يعشق ذاته ، ويحب نفسه ؟

لماذا يغضب الإنسان ؟

ما سبب غضب الإنسان وضجره إذا كان مثلاً يفتح قفلاً فيتعسر عليه حتى يجنّ ، ويعضّ على القفل ، ويكفر ، وهذا عارض فاش في الناس ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
هذا العارض وشبهه من أقبح ما يعرض للإنسان ، وهو غير معذور ، إن لم يصلحه
بالخلق الحسن المحمود ؛ وذلك أن الغضب إنما يثور به دم القلب لمحبة الانتقام ،
وهذا الانتقام إذا لم يكن كما ينبغي ، وعلى من ينبغي ، وعلى مقدار ما ينبغي فهو
مذموم ، فكيف به إذا كان على الصور التي حكيتها .

فأما سؤالك عن سبب الغضب فقد ذكرته وأجبت عنه ، وإذا ثار في غير موضعه
فواجب على الإنسان الناطق المميز أن يسكنه ، ولا يستعجله ، ولا يجرى فيه على
منهاج البهيمة ، وسنة السبع ؛ فإن من أعانته بالفكرة ، وألهبه بسلطان الرؤية حتى
يحتدم ويتوقد فإنه سيعسر بعد ذلك تلافيه وتسكينه ، والإنسان مذموم به إذا تركه وسوم
الطبيعة ، ولم يظهر فيه أثر التمييز ، ومكان العقل .

وجالينوس^(١) قد ذكر في كتاب الأخلاق حديث القفل بعينه ، وتعجب من جهل
من يفعل ذلك ، أو يرفس الحمار ويلكؤم البغل ، فإن هذا الفعل يدل على أن
الإنسانية يسيرة في صاحبه جدا ، والبهيمية غالبية عليه ، أعنى سوء التمييز وقلة
استعمال الفكر .

وليس هذا وحده يعرض لحشو الناس وعامتهم ، بل الشهوة والشبق وسائر
عوارض النفس البهيمية والغضبية إذا هاج بهم ، وابتدأ في حركته الطبيعية لم
يستعملوا فيه ما وهبه الله - تعالى - لهم ، وفضلهم به ، وجعلهم له أناسي ، أعنى أثر
العقل بحسن الرؤية ، وصحة التمييز ، والله المستعان ، ولا قوة إلا به .

لماذا .. العداوة سهلة والصداقة صعبة ؟

لم كان الإنسان إذا أردا أن يتخذ عدة أعداء في ساعة واحدة قدر علي ذلك ، وإذا قصد اتخاذ
صديق ومصافاة خذن واحد لم يستطع إلا بزمان واجتهاد وطاعة وغرم ؟
وكذلك كل صلاح مأمول ، ونظام مطلوب في جميع الأمور ، ألا ترى أن الفتق أسهل من
الخيطة ، والهدم أيسر من البناء ، والقتل أخف من التربية والإحياء ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
جواب مسلتك هذه منها . وما أشبهها بحكاية سمعتها عن الأصمعي ، وذاك أنه
بلغني أن قارئاً قرأ عليه :

(١) راجع فهرست ابن الفديم ص ٤٠٢ - ٤٠٣ . وأخبار الحكماء ص ٨٥ .

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا
فقال : يا أبا سعيد : ما الألمعى ؟

فقال : الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا .
فأنا قائل فى هذه المسألة أيضا :

إنما صار الإنسان قادراً على اتخاذ الأعداء بسرعة ، وغير قادر على اتخاذ الأصدقاء
إلا فى زمان طويل ، وبغرامة كثيرة لأن هذا فتن ، وذاك رتق ، وهذا هدم ، وذاك
بناء . وسقُ باقى كلامك فإنه جوابك .

لماذا يحب الانسان الرئاسة ؟

ما السبب فى محبة الإنسان الرئاسة^(١) ؟

ومن أين ورث هذا الخلق ؟

وأى شىء رمزت الطبيعة به ؟

ولم أفرط بعضهم فى طلبها ، حتى تلقى الأسيئة بنحره ، وواجه المُرَهَفَات بِصَدْرِهِ ، وحتى هجر
من أجلها الوساد ، وودّع بسببها الرقاد ، وطوى المهامة والبلاد ؟

وهل هذا الجنس من جنس من امتعض فى ترتيب العنوان إذا كوتب أو كاتب ؟

وما ذاك من جميع ما تقدم ؟ فقد تشاح الناس فى هذه المواضع وتباينوا وبلغوا المبالغ .

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :

قد تبين أن فى الناس ثلاث قوى ، وهى : الناطقة ، والبهيمية ، والغضبية .

فهو بالناطقية منها يتحرك نحو الشهوات التى يتناول بها اللذات البدنية كلها .

ويظهر أثرها من الكبد .

وبالغضبية منها يتحرك إلى طلب الرئاسة ، ويشتاق إلى أنواع الكرامات ،

وتعرض له الحمية والأنفة ، ويلتمس العز والمراتب الجليلة العالية ، ويظهر أثرها من

القلب .

وإنما تقوى فيه واحدة من هذه القوى بحسب مزاج قوة هذه الأعضاء التى تسمى

الرئيسية فى البدن .

فربما خرج عن الاعتدال فيها إلى جانب الزيادة والإفراط ، أو إلى ناحية النقصان

والتفريط ، فيجب عليه حينئذ أن يعدلها ويردّها إلى الوسط - أعنى الاعتدال الموضوع

(١) فى الأصل : « ما سبب الإنسان فى محبة الرئاسة » .

له - ولا يسترسل لها بترك التقويم والتأديب ؛ فإن هذه القوى تهيج لما ذكرناه .
فإن تُركت وسُومها ، وترك صاحبها إصلاحها وعلاجها بالأعقال واتباع الطبيعة
تفاقم أمرها ، وغلبت حتى تجمَح إلى حيث لا يُطمع في علاجها ويؤيس من برئها .
وإنما يُمَلِّك أمرها وتأديبها في مبدأ الأمر بالنفس التي هي رئيسة عليها كلها - أغنى
المميّزة العاقلة ، التي تسمى القوة الإلهية - فإن هذه القوة ينبغي أن تستولى ، وتكون
لها الرئاسة على الباقية .

فمحنة الإنسان للرئاسة أمر طبيعي له ، ولكن يجب أن تكون مُقوِّمة ؛ لتكون في
موضعها ، وكما ينبغي .

فإن زادت أو نقصت في إنسان لأجل مزاج أو عادة سيئة وجب عليه أن يُعدّلها
بالتأديب ؛ ليتحرك كما ينبغي ، وعلى ما ينبغي ، وفي الوقت الذي ينبغي .
وقد مضى من ذكر هذه القوى وآثارها في موضعه ما يجب أن يقتصر بها هنا على
هذا المقدار . ونقول :

إنه كما يعرض لبعض الناس أن يلقي الأسنة بنحره ، ويركب أهوال البر والبحر
لنيل الشهوات بحسب حركة قوة النفس البهيمية فيه ، وتركه قمعها - فكذلك يعرض
لبعضهم في نهوض قوة النفس الغضبية فيهم إلى نيل الرئاسة والكرامات - أن يركب
هذه الأهوال فيها .

ومدار الأمر على العقل الذي هو الرئيس عليها ، وأن يجتهد الإنسان في تقوية
هذه^(١) النفس ؛ لتكون هي الغالبة ، وتتعبّد القوتان الباقيتان لها حتى تُصِدِرَ عن أمره
وتتحرك لما ترسمه ، وتقف عندما يحده ؛ فإن هذه القوة هي التي تسمى الإلهية ،
ولها قوة على رئاسة تلك الأخر ، وهداية إلى علاجها وإصلاحها ، واستقلال بالرئاسة
التامة عليها ، ولكنها - كما قال أفلاطون - في لين الذهب وتلك في قوة الحديد
وللإنسان الاجتهاد والميل إلى تدليل هذه لتلك ، فإنها ستذلّ وتنقاد . والله المعين ،
وهو حسبنا ونعم الوكيل .

لماذا السلوى .. ولماذا الجزع ؟

ما علة الإنسان في سلوته إذا كانت محنته عامة له ، ولغيره ؟
وما علة جزعه واستكثاره وتحسُّره إذا خصته المساءة ، ولم تعد المصيبة ؟
وما سر النفس في ذلك ؟

(١) في الأصل : هذا .

وهل هو محمود من الإنسان أم مكروه ؟
وإذا نَزَا به هذا الخاطر فِيمَ يُعَالِجه ، وإلى أى شىء يردّه ؟
ولمَ يتمنى بسبب محنته أن يَشْرِكهُ النَّاسُ ؟ ولم يستريح إلى ذلك ؟ صحابنا يروون مثلاً
بالفارسية ترجمته : من احترق يَبْدُرُهُ (٢) أراد أن يحترق يَبْدُرُ غيره .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
الجزع والأسف والحزن من عَوَارِضِ النَّفْسِ ، وهى تجرى مجرى سائر العَوَارِضِ
الأخر كالغضب والشهوة والغيرة والرحمة والقسوة وسائر الأخلاق التى يُحْمَدُ الإنسان
فيها إذا عرضت له كما ينبغى ، وبسائر الشروط التى أحصيناها مراراً كثيرة ، وَيُذَمُّ بها
إذا عرضت بخلاف تلك الشرائط .
وإنما تُهَذَّبُ النَّفْسُ بالأخلاق لتكون هذه العوارض [التى] تعرض له فى مواضعها
على ما ينبغى فى الوقت الذى ينبغى ، فالحزن الذى يعرض كما ينبغى هو ما كان فى
مصيبية (١) لحقت الإنسان لذنب اجتَرَحَهُ ، أو لعمل فَرَطَ فيه ، أو كان له فيه سبب
اختيارى ، أو لسوء اتفاق خَصَّه دون غيره وهو يجهل سببه ، فإن هذا الحزن وإن كان
دون الأول فالإنسان مَعْدُورٌ به .
فأما ما كان ضرورياً ، أو واجبا فليس يحزن له عاقل ؛ لأن غروب الشمس مثلاً لما
كان ضرورياً لم يحزن له أحد ، وإن كان عائقا عن منافع كثيرة ، وضارا بكل أحد ،
وَمَنَعَ النَّظَرَ والتَّصَرَّفَ فى منافع الدنيا ، وكذلك هجوم الشتاء والبرد ، وورود الصيف
بالحر لا يحزن له عاقل ؛ بل يستعد له ، ويأخذ أُهْبَتَهُ .
وأما الموت الطبيعى فليس يحزن له أحد ؛ لأنه ضرورى ، وإنما يجزع الإنسان
منه إذا ورد فى غير الوقت الذى كان ينتظره ، أو بغير الحالة الْمُحْتَسِبَةِ ؛ ولذلك يجزع
الوالد على موت ولده ؛ لأن الذى احتسبه أن يموت هو قبله .
فأما الولد فيقل جزعه على والده ؛ لأن الأمر كما كان فى حسابه إلا أنه تقدم مثلاً
بزمان يسير ، أو كما ينبغى .
فأما ما يعرض للمسافر ، ولِرَاكِبِ البحر أن يُخَصَّ دون مَنْ يَصْحَبُهُ بمحنة فى ماله
أو جسمه ، فإنما حزنه لسوء الاتفاق ورداءة البخت فإن هذا النوع مجهول السبب ؛
ولذلك يُعْذَرُ فيه أَذْنَى عذر .

(١) فى اللسان « البيدر : الموضع الذى يداس فيه الطعام » .

(٢) فى الأصل « قمصية » .

وأما من يتمنى لغيره من السوء مثل ما يحصل له فهو شر في طبعه .

لماذا السفر ؟

لَمْ حَنَّ بعض الناس إلى السفر من لَدُن طفولته إلى كهولته ، ومنذ صغره إلى كبره ، حتى إنه يَغْتَنق الوالدين ، ويشقّ الخافقين صابراً على وَغْثِ السفر ، وذل الغربة ، ومَهَانَةِ الخمول ، وهو يسمع قول الشاعر :

إِن الْغَرِيبَ بِحَيْثُ مَا حَظَّتْ رِكَائِبُهُ ذَلِيلُ
وَيَدُ الْغَرِيبِ قَصِيرَةٌ وَلِسَانُهُ أَبْدُ كَلِيلُ
وَالنَّاسُ يَنْصَرُّونَ بِمَعْضَمِهِمْ بَعْضًا وَنَاصِرُهُ قَلِيلُ
وَأَخْرَيْتَنِي فِي حَضْنِ أُمِّهِ ، وَعَلَى عَاتِقِ ظَنَرِهِ ، وَلَا يَنْزِعُ بِهِ حَنِينَ إِلَى بَلَدٍ ، وَلَا يَغْلِبُهُ شَوْقٌ إِلَى أَحَدٍ ، كَأَنَّهُ حَجَرٌ جَبَلُهُ ، أَوْ حَصَاةٌ جَدُولُهُ ؟

لعلك تقول : مواضع الكواكب ، ودرجة الطالع ، وشكل الفلك اقتضت له هذه الأحوال ، وقَصَرَتْهُ عَلَى هذه الأمور ، فحيثُ تكون المسألة عليك في آثار هذه النجوم ، وتوزيعها هذه الأسباب على ما هي عليه من ظاهر التَّسْخِيرِ - أَشَدَّ ، وتكلف الجواب عنها أكد وأنكد .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :

إِنَّ قُوَّةَ النَّزَّاعِ إِلَى الْمَحْسُوسَاتِ تَنْقَسِمُ بِانْقِسَامِ الْحَوَاسِ . وكما أن بعض المزاج تقوى فيه حاسة البصر ، وبعضه تقوى فيه حاسة السمع ، فكذلك الحال في القوة النَّزَّاعِيَّةِ الَّتِي فِي تِلْكَ الْحَاسَةِ ؛ لأنها هي التي تشتاق إلى تَكْمُلِ الحاسة ، وتصييرها بالفعل بعد أن كانت بالقوة . ومعنى هذا الكلام أن الحواس كلها هي حواس بالقوة إلى أن تدرك محسوساتها ، فإذا أدركتها صارت حواس بالفعل .

وإذا كان الأمر على ما وصفنا فليس بعجب أن يكون هذا المعنى في بعض الحواس قويا ، ويضعف في بعض ، فيكون بعض الناس يشتاق إلى السَّمْعِ ، وبعضهم إلى النظر ، وبعضهم إلى المذوقات من المأكول والمشروب ، وبعضهم إلى المَشْمُومَاتِ وَالْوَانَ الرَّوَاحِ ، وبعضهم إلى الملبوسات من الثياب وغيرها . وربما اجتمع لواحد بعد الواحد أن يشتاق إلى اثنين منها ، أو ثلاثة ، أو إليها كلها . ولكل واحد من هذه المحسوسات أنواع كثيرة لا تحصى ، ولأنواعها أشخاص بلا نهاية . وهي على كثرتها وعددها الجَمُّ ، وخروجها إلى حد ما لا نهاية له ليست كَمَالَاتٍ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ، وَإِنَّمَا كَمَالُهُ الَّذِي يُتِمُّ إِنْسَانِيَّتَهُ هُوَ فِيمَا يَدْرِكُهُ بِعَقْلِهِ . أعني العلوم . وأشرفها ما أدى إلى أشرف المعلومات . وإنما صار البصر

والسمع أشرف الحواس لأنهما أخص بالمعارف ، وأقرب إلى الفهم والتمييز ، وبهما تُدْرَك أوائل المعارف ، ومنها يرتقى إلى العلوم الخاصة بالنطق .

وإذا كانت الحالة على هذه الصورة في الشوق إلى ما يُتَمَّم وجود الحواس ، ويُخرجها إلى الفعل ، وكان من الظاهر المتعارف أن بعض الناس يشواق إلى نوع منها فيحتمل فيه كل مشقة وأذى حتى يبلغ أربه فيه لم يكن بديعاً ولا عجباً أن يشواق آخر إلى نوع آخر فيحتمل مثل ذلك فيه . إلا أنا وجدنا اللغة في بعض هذه قد غُيّبت فوضعت له اسماً ، وفي بعضها لم تُغن فاهملته : وذلك أنا قد وجدنا لمن يشواق إلى [المأكول] والمشروب إذا أفرطت قوته النزاعية إليهما حتى يعرض له ما ذكرت من الحرص عليهما ، والتوصل إليهما ما يحتمل معه ضروب الكُلف والمشاق اسماً ، وهو الشرّ والنهم . ولم نجد لمن يعرض له ذلك في المشموم والمسموع اسماً . وأظن ذلك لأجل كثرة ما يوجد من ذلك الضرب ، ولأن عيبه أفحش ، وما يجلبه من الآثام والقبائح أكثر .

فقد ظهر السبب في تشوق بعض الناس إلى الغربة وجولان الأرض . وهو أن قوته النزاعية التي تختص بالبصر تُحب الاستكثار من المُبَصِّرات وتحديدها ، ويظن أن أشخاص المُبَصِّرات تستغرق ، فهو يحتمل كثيراً من المشاق في الوصول إلى أربه من إدراك هذا النوع .

وقد نجد من يحتمل أكثر من ذلك إذا تحرك بقوته النزاعية إلى سائر المحسوسات الأخرى ، والاستكثار منها . فتأمل الجميع ، وأعد نظرك ، وتصفح جزئياتها تجد الأمر فيها واحداً .

لماذا الرغبة في العلم ؟

ما سبب رغبة الإنسان في العلم ؟
ثم ما فائدة العلم ؟ ثم ما غائلة الجهل ؟ ثم ما غائدة الجهل الذي قد شمل الخلق ؟
وما سر العلم الذي قد طبع عليه الخلق ؟
فإن استشفاف هذه الفصول ، واستكشاف هذه الأصول يُثيران علماً وحكماً جماً ، وإن كان فيها - في البحث عنها ، وبعض أوائلها وأواخرها - مشقة على النفس ، وثقل على الكاهل . ولولا معونة الخالق من كان يقطع هذه التوائف المُلْس ؟ ومن كان يسلك هذه المهامه الخُرس ؟ ولكن الله - تعالى - وليُّ المخلصين ، وناصر المطيعين ، ومغيث المستصرخين .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
مرّنا في عرض كلامنا على هذه المسائل ما بينه على جواب هذه المسألة . ولكنه لا بد من إعادة شيء منه يزيد في كشف الشبهة ، وإزالة الشك . وهو أن العلم كمال

الإنسان من حيث هو إنسان ؛ لأنه إنما صار إنساناً بصورته التي مَيَّزَتْهُ عن غيره . أعنى
النَّبات والجماد والبهائم .

وهذه الصورة التي مَيَّزَتْهُ ليست في تَخَاطُيطِهِ وشكله ولونه . والدليل على ذلك أنك
تقول : فلان أكثر إنسانية من فلان ، فلا تعنى به أنه أتم صورة بدن ، ولا أكمل في
الخلق التخطيطي ، ولا في اللون ، ولا في شيء آخر غير قوته الناطقة التي يُمَيِّزُ بها
بين الخير والشر في الأمور ، وبين الحسن والقبيح في الأفعال ، وبين الحق والباطل
في الاعتقادات ؛ ولذلك قيل في حد الإنسان : إنه حي ناطق مائت . فَمَيَّزَ بالنطق ،
أعنى بالتمييز بينه وبين غيره ، دون تخطيطة وشكله ، وسائر أغراضه ولواحقه .
وإذا كان هذا المعنى من الإنسان هو ما صار به إنساناً ، فكلما كَثُرَتْ إنسانيته كان
أفضل في نوعه . كما أن كل موجود في العالم إذا كان فعله الصادر عنه بحسب
صورته التي تخصه ، فإنه إذا كان فعله أجود كان أفضل وأشرف . مَثَلُ ذلك الفرس
والبازي من الحيوان ، والقلم والفأس من الآلات ، فإن كل واحد من هذه إذا صَدَرَ
عنه فعله الخاص بصورته كاملاً كان أشرف في نوعه ممن قصر عنه ، وكذلك الحال
في النَّبات والجماد ، فإن لكل واحد من أشخاص الموجودات خاص صورة يَصْدُرُ عنه
فعله ، وبحسبه يشرف أو يخس إذا كان تاماً أو ناقصاً . فأى فائدة أعظم مما يُكْمَلُ
وجودك ، ويتمم نوعك ، ويعطيك ذاتك حتى يُمَيِّزَكَ عن الجماد والنَّبات والحيوانات
التي ليست بناطق ، ويقربك من الملائكة والإله - عز وجل ، وتقديس وتعالى - وأى
غائلة أدهى وأمر ، وأكَلَمُ وأَطْمُ مما يُنَكِّسُك في الخلق ، ويردك إلى أرذل وجودك ،
ويَحْطُك عن شرف مقامك إلى خساسة مقامات ما هو دونك ؟

أظنك تذهب إلى أن العلم يجب أن يفيدك - لا محالة - جاهاً ، أو سلطاناً أو مالاً
تتمكن به من شهوات ولذات . فلعمري إن العلم قد يفعل ذلك ، ولكن بالعرض
لا بالذات ؛ لأن غاية العلم ، والذي يسوق إليه ، ويكمل به الإنسان ليس هو غايات
الحواس ، ولا كمال البدن . وإن كان قد يتم به ذلك في كثير من الأحوال . ومتى
استعملته في هذا النوع فإنه يُكْمَلُ صورتك البهيمية والنباتية ، وكأنه استعمل في أرذل
الأشياء ، وهو مُعَدَّ لأن يُسْتَعْمَلَ في أشرفها .

لماذا يأمل الإنسان ؟

لِمَ كُلَّمَا شاب البدن شَبَّ الأمل ؟ قال أبو عثمان النَّهْدِيُّ^(١) : قد أتت على مائة وثمانون سنة ،

(١) هو عبدالرحمن بن مل القضاءي . أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره . وشهد فتح القادسية واليرموك وغيرهما ، وتوفي بالبصرة في أول ولاية الحجاج العراق . كما قال ابن قتيبة في المعارف ص ١٨٨ وقيل مات سنة خمس وتسعين وقيل سنة مائة أو بعدها . راجع تاريخ بغداد ٢٠٢/١٠ - ٢٠٥ .

وأنكرت كل شيء إلا الأمل ، فإنه أحد ما كان (١) .

ما سبب هذه الحال ؟ وعلى ماذا يدل الرمز فيها ؟

وما الأمل أولاً ؟ وما الأمنية ثانياً ؟ وما الرجاء ثالثاً ؟

وهل تشتمل هذه على مصالح العالم ؟

فإن كانت مُشتملة فلم تواصى الناس بقصر الأمل ، وقَطَعَ الأمانى ، وبَصَرَفَ الرجاء إلا فى الله

- تبارك وتعالى - وإلى الله ؟ فإنه سائر العورة ، وراحِمُ العبرة ، وقابل التوبة وغافر الخطيئة ، وكل

أمل فى غيره باطل ، وكل رجاء فى سواه زائل ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :

هذه المسألة قد أُخِذَ فيها فِعْلٌ من أفعال النفس فَقَرِنَ بفعل من أفعال الطبيعة التى

بحسب البدن إلى الطبيعة والمزاج البدنى ، ثم وقعت المُقَايَسَةُ بينهما ، وهما يتباينان

لا يتشابهان ، فلذلك عرض التعجب منها . وذلك أن الأمل والرجاء والمُنَى من

خصائص القوة الناطقة . فأما الشَّيْبُ والنَّقْصَانَاتُ التى تعرض للبدن ، وعجزُ القوى

التابعة للمزاج فهى أمور طبيعية فى آلات تَكِلُّ بالاستعمال ، . وتضعُفُ على مرِّ

الزمان .

وأما أفعال النفس فإنها كلما تكررت وأُديمتُ فإنها تقوى ويشتد أثرها فهى بالضد

من حال البدن . مثال ذلك أن النظر العقلى كلما استُعْمِلَ قَوِيَ واحتد ، وأدرك فى

الزمان القصير ما يُدْرِكُه فى الزمان الطويل ، وَلَحِقَ الأمر الذى كان خفياً عنه بسرعة .

والنظر الحسى كلما استعمل كَلَّ وضعف ، ونقص أثره إلى أن يَضْمَحِلَّ .

فأما الفرق بين الأمل والرجاء وبين الأمنية فظاهر ؛ وذلك أن الأمل والرجاء يعلّقان

بالأمور الاختيارية ، وبالأشياء التى لها هذا المعنى .

فأما الأمنية ، فقد تتعلق بما لا اختيار له ولا رويّة ؛ فإنه ليس يمنع مانع من تَمَنَّى

المحال والأشياء التى لا تميز فيها ولا لها .

والأمل أخصُّ بالمختار . والرجاء كأنه مشترك ، وقد يرجو الإنسان المطر

والخِصْبَ ، وليس يأمل إلا من له قدرة ورويّة .

وأما المُنَى فهو - كما علمت - شائع فى الكل ، ذاهب كل مذهب ، فقد يتمنى

الإنسان أن يطير ، أو يصير كوكباً أو يصعد إلى الفلك فيشاهد أحواله . وليس يرجو

هذا ولا يأمله . ثم قد يرجو المطر ، وليس يأمل إلا منزل القطر ، ومنشئ الغيث .

فهذه فروق واضحة .

(١) المعارف ص ١٨٨ وتاريخ بغداد ٢٠٤/١٠ .

لماذا غيرة المرأة أشد؟

لم صارت غيرة المرأة على الرجل أشد من غيرة الرجل على المرأة؟ هذا في الأكثر والأقل ، وكيفما كان ففيه خبيء وهو المُشَدُّد على أحدهما ، والمُخَفَّف عن الآخر .

وقد أدت الغيرة جماعة إلى تلف النفوس ، وإلى زوال النعم ، وإلى الجلاء عن الأوطان .

ثم قلت في المسألة التالية لهذه :

ما الغيرة أولاً؟ وما حقيقتها؟ وكيف أصلها وفصلها؟

وقوتها على الإحالة وضعفها طَلَعَتْ^(١) على ما سألت عنه ، وتبين لك ما ضربت به المثل .

لماذا أحب الانسان الأمثال؟

ما السبب في طلب الإنسان فيما يسمعه ويقول ويفعله ويرثيه ، ويرى في الأمثال؟ وما فائدة المثل؟ وما غناؤه من^(٢) مآثاه ، وعلى ماذا قراره؟ فإن في المثل والمُماثلة والتمثيل كلاماً رائقاً ، وغاية شريفة .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :

إن الأمثال إنما تُضْرِبُ فيما لا تدركه الحواس مما تدركه .

والسبب في ذلك أنسنا بالحواس ، وإلفنا لها منذ أول كونها ، ولأنها مبادئ علومنا ، ومنها نرتقى إلى غيرها . فإذا أُخْبِرَ الإنسان بما لم يُدركه ، أو حَدَّثَ بما لم يُشاهده ، وكان غريباً عنده طلب له مثلاً من الحس ، فإذا أُعْطِيَ ذلك أنس به ، وسكن إليه لإلفه له .

وقد يعرض في المحسوسات أيضاً هذا العارض . أعني أن إنساناً لو حَدَّثَ عن النعامة والزرافة والفيل والتمساح لَطَلَبَ أن يُصَوِّرَ له ليقع بصره عليه ، ويَحْصُلَ تحت حسه البصري ، ولا يقنع فيما طريقه حس البصر بحس السمع حتى يرده إليه بعينه . وهكذا الأمر في الموهومات فإن إنساناً لو كُفِّ أن يتوهم حيواناً لم يشاهد مثله لسأل عن مثله ، وكُفِّ مُخْبِرَه أن يُصَوِّرَه له ، مثل عنقاء مغرب ، فإن هذا الحيوان ، وإن لم يكن له وجود ، فلا بد لمُتَوَهِّمِه أن يتوهمه بصورة مُرَكَّبَةٍ من حيوانات قد شاهدها .

(١) في اللسان « النهمه » الحاجة ، وقيل بلوغ الهمة والشهوة في الشيء ، وفي الحديث : إذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليعجل إلى أهله .

(٢) في الأصل « وما غناؤه وهو من » .

فأما المعقولات فلما كانت صورها ألطف من أن تقع تحت الحس ، وأبعد من أن تمثل بمثال الحسى إلا على جهة التقريب صارت أخرى أن تكون غريبة غير مألوفة [و] النفس تسكن إلى مثل وإن لم يكن مثلاً ؛ لتأنس به من وحشة الغربة فإذا ألفتها ، وقويت على تأملها بعين عقلها من غير مثال سهل حينئذ عليها تأمل أمثالها . والله الموفق لجميع الخيرات .

لماذا يقوى الوهم على الانسان ؟

كيف قوى الوهم على أن ينقش في نفس الإنسان أوحش صورة ، وأمقت شكل ، وأقبح تخطيط ، ولم يقو على أن يصور أحسن صورة ، وألطف شكل وأملح تخطيط ؟ ألا ترى أن الإنسان كلما اعترض في وهمه أوحش شيء عرته شُمَازِيَّةٌ وَعَلْتُهُ قُشْعَرِيَّةٌ ، وَلِحَقَّهُ صُدُوفٌ ، وَرِهَقُهُ نُقُورٌ ؟

فلو قوى الوهم على تصوير أحسن الحسن تَعَلَّلَ به الإنسان عند فراغ باله وخلوته . فما هذا ؟ وكيف هذا ؟

ولا عجب فلهذا الإنسان من هذه النفس والعقل والطبيعة أمور تستنفذ العجب ، وتحير القلب . جل من أودع هذا الوعاء هذه الطرائف ، وعرضه لهذه الغايات ، وزين ظاهره ، وحسن باطنه ، وصرفه بين أمن وخوف ، وعدل وحيف ، وحجبه في أكثر ذلك عن لِمَ وكيف .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :

إن الحُسن هو صورة تابعة لاعتدال المزاج ، وصحة مناسبات من الأعضاء بعضها إلى بعض في الشكل واللون وسائر الهيئات . وهذه حال لا يتفق اجتماع جميع أجزائها على الصحة ، ولذلك لا تقوى الطبيعة نفسها على اتخاذها في الهيولى على الكمال ؛ لأن الأسباب لا تساعد عليها ، أعنى أنه لا يتفق في الهيولى والأشكال والصورة والمزاج أن تقبل الصورة الأخيرة على غاية الصحة .

فإذا كانت الطبيعة تعجز عن إيجاد هذا الاعتدال وهذه المناسبة الصحيحة التي يتبعها الحسن التام ، فكيف بالحري يكون الوهم أعجز عنه ؟ وإنما الوهم تابع للحس ، والحس تابع للمزاج ، والمزاج تابع أثر من آثار الطبيعة . ومثال ذلك أن الأوتار الكثيرة إنما يطلب بها وبكثرة الدساتين عليها أن تخرج من بينها نعمة مقبولة ، وتلك النعمة إنما يتوصل إليها بجميع الآلة وأجزائها من الأوتار والدساتين بالقرعات المختلفة . فالنعمة وإن كانت واحدة فإنها تتم بمساعدة جميع تلك الأجزاء . فإذا خان واحد منها خرجت النعمة كريهة : إما بعيدة من القبول وإما قريبة على قدر عجز الأسباب وقصور بعضها .

فكذلك الهيولى^(١) فى حاجتها إلى مزاج ما بين اسطَقْصَاتٍ^(٢) وصور^(٣) أخرى كثيرة تصير بجمعيتها مستعدة لقبول صور الحسن الذى هو اعتدال ما ، ومناسبة ما صحيحة بين أمزجة وأعضاء فى الهيئة والشكل واللون وغيرها من الأحوال التى مجموعها كلها هو الحسن .

والحسن وإن كان أمراً واحداً ، وصورة واحدة فهو مثل النعمة الواحدة المقبولة التى تحتاج إلى هيئات كثيرة ، وصور مختلفة جَمَّة ؛ ليحصل من بينها هذا الاعتدال المقبول .

والوهم فى خروجه عن الاعتدال سهل الحركة . فأما فى حفظه إيَّاه ، وتوصُّله إليه فإنه يحتاج إلى تعب شديد ، وأخذ مقدمات كثيرة ، واستخراج اعتدال بينها . وهكذا الحال فى كل اعتدال ؛ فإن حفظه والثبات عليه صعب . فأما الخروج عنه فهو بأدنى حركة .

فإن اتفق أن يكون لذلك الاعتدال تَمَامَاتٌ من خارج ، ومُعَاوَنَاتٌ من أمور مختلفة كانت الصعوبة فى تحصيله أشدَّ .

وهذه المسألة أحد الآثار التى ترد على الإنسان مرَّةً بتدريج ، ومرة بغير تدريج ، فتصيرُ حال الإنسان بما لم يَحْتَسِبْهُ ، ولم يتدرَّجْ إليه بالمُزَاوَلَةِ / حال ما يصيبه ضربة واحدة مما ضربنا مثاله ، فيكثر إحساسه به وظهور أثره عليه .

لماذا يتداعى البنيان المهجور ويعمر المسكون ؟

لم صار البنيان الكريم^(٤) ، والقصر المشيد إذا لم يسكنه الناس تداعى عن قرب ، وما هكذا هو إذا سَكِنَ واختلَفَ إليه ؟

لعلك تظن أن ذلك لأن السكان^(٥) يرْمُون منه ما استرم ، ويتلافون ما تداعى وتهدم ، ويتعهدونه

(١) فى مفاتيح العلوم ص ٨٦ « هيولى كل جسم : هو الحامل لصورته ، كالخشب للسريـر والباب ، وكالفضة للخاتم والخلخال ، والذهب للسوار والدينار . فأما الهيولى إذا أطلقت فإنه يعنى بها طينة العالم ، أعنى جسم الفلك الأعلى وما يحويه من الأفلاك والكواكب ، ثم العناصر الأربعة وما يتركب منها .

(٢) الاسطقس : هو الشيء البسيط الذى منه يتركب المركب ، كالصجارة والقراميد والجذوع التى يتركب منها القصر ، والحروف التى يتركب منها الكلام ، والواحد الذى منه يتركب العدد ، وقد سمي الاسطقس : الركن ، والاسطقسات الأربعة هى النار ، والهواء ، والماء ، والأرض . وتسمى العناصر .

(٣) الصورة : هى هيئة الشيء وشكله ، التى تتصور الهيولى بها ، وبها يتم الجسم ، كالسريـرية والبابية فى السريـر والباب .. والصورة تسمى الشكل والهيئة والصفة ، كما مفاتيح العلوم ص ٨٦ .

(٤) فى الاصل « الكريمه » .

(٥) فى الاصل « الإنسان » .

بالتَّطَرُّيَّةِ والكنس ، فاعلم أن هذا ليس لذاك ؛ لأنك تعلم أنهم يَؤَثُّرون في المسكن بالمشى والاستناد وأخذ القلعة^(١) وسائر الحركات المختلفة ما إن لم يُضعِفْهُ على رمهم ولمهم كان بإزائه ومقابله . فقد بقيت العلة على هذا ، وستسمعها في عرض الجواب عن جميع مسائل هذا الكتاب .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :

إنَّ معظم آفات البنيان يكون من تشعيث الأمطار ، وانسداد مجارى المياه بما تحصَّله الرياح في وجه المآزيب^(٢) ومسالك المياه التي ترد المياه إلى أصول الحيطان من خارج البناء وداخله ، وبما يتثلم من وجوه البنيان الكريمة بالآفات التي تُعرضها لحركات الهواء والأمطار والبرد والثلوج . وربما كان سبب ذلك قصبة أو هشيم من تبن الطين الذي تطيره^(٣) الأرواح إلى مسلك الماء فتعطف الماء إلى غير جهته ، فيكون به خراب البنيان كله .

فأما ظهور الهوام في أصول الحيطان ، والعناكب في سقوفه . وأخذها من الجميع ما يتبين أثره على الأيام فشيء ظاهر ؛ وذلك أن هذا الضرب من الخراب يبيح الأثر جدا ينبو الطرف عنه ، ويسمج به البناء الشريف . وربما أغفل السكَّان بيتا من عرض^(٤) البناء إما بقصد وإما بغير قصد فإذا فُتح عنه يُوجد فيه^(٥) من آثار الدبيب من الفأر والحيات وضروب الحشرات التي تتخذ لنفسها أكنة بالنقب والبناء ، كالأرضة والنمل وما تجمعه من أقواتها ، ومن نسج العنكبوت وتراكم الغبرة على النقوش ما يَمْنَعُ من دخوله . هذا إن سلِم من الوكف^(٦) وتطرق المياه وهدمها لما تسيل عليه من حائط وسقف ، ورَضِه بما يُثقله من طين السطوح ، وتقصف^(٧) جميع الخشب والسِّنادات والعمد . وإذا كان فيها السكَّان مَنَعُوا هذه الأسباب العظيمة في الخراب ، وكان ما يُشعُّونه بعد هذه الأشياء يسيرا بالإضافة إليها ، فكان البناء إلى العمران أقرب ، ومن الخراب أبعد .

(١) في اللسان « القلاع والقلاع والقلاع بالتشديد والتخفيف : قشر الأرض .. والطين الذي ينشق إذا نضب عنه الماء ، فكل قطعة منه قلعة » .

(٢) المآزيب : جع مزاب ، وهو مصب ماء المطر ، كما في اللسان .

(٣) في الأصل « تطره » والأرواح : جمع ريح .

(٤) في اللسان « عرض الشيء : وسطه وناحيته ، وقيل نفسه » .

(٥) في الأصل « من فيه » .

(٦) في اللسان « وكف البيت وكفا ووكيفا ووكفانا ، هطل وقطر ، وكذلك السطح ومصدره الوكيف والوكف » .

(٧) في الأصل « وتقصفه منها جميع » .

شطرنج !

قال المأمون : « إني لأعجب من أمرى : أدبر أفاق الأرض وأعجز عن رُقعة » - يعنى الشطرنج - وهذا معنى شائع فى الناس ، فما السبب فيه ؟ فإنه إنما عجب من خفاء السبب .

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :
إن الصناعات لا يُكتفى فيها بالعلم المتقدم ، والمعرفة السابقة بها حتى يُضاف إلى ذلك العمل الدائم ، والأرتياض الكثير ، وإلا لم يكن الإنسان ماهراً . والصانع هو الماهر بصناعته . ومثال ذلك الكتابة فإن العالم بأصولها وإن كان سابق العلم ، غزير المعرفة إذا أخذ العلم ولم تكن له دُرْبَةٌ انقطع فيها ، ولم ينفعه جميع ما تقدم من علمه بها . وكذلك حال الخياطة والبناء . وبالجمله كل صناعة مهنية كقيادة الجيش ، ولقاء الأقران فى الحروب ليس تكفى فيها الشجاعة ، ولا العلم بكيفيتها حتى يحصل فيها الارتياض والتدرب فحيثُ تصير صناعة .

ولما كان الشطرنج أحد الأشياء الجارية هذا المجرى من الصناعات لم يُكتفَ فيه بالتدبير ، ولا حُسْنِ التخيّل ، ولا جودة الرأي حتى تُضاف إلى ذلك مباشرة الأمر ، والدُرْبَةُ فيه ؛ فإن لكل ضربة يتغير بها شكل الشطرنج ضربة من الرسيل^(١) مقابلة لها إما على غاية الصواب ، وإما بخلافه . ويحتاج إلى ضبط جميع ذلك ، وتخيّل تلك الأشكال كلها ضربة بعد ضربة على وجوه تصاريدها ، وليس يمكن ذلك إلا مع دُرْبَةٍ ورياضة . .

لماذا استيحاش الانسان من تغيير اسمه ؟

ما السبب فى استيحاش الانسان من نقل كُنْيَتِهِ أو اسمِهِ ؟ فقد رأيت رجلاً غير كُنْيَتِهِ لضرورة لحقته ، وحال دَعَتُهُ ، فكان يَتَنَكَّرُ وَيَقْلُقُ ، وكان يُكْنَى أبا حفص فاكنتى أبا جعفر ، وكان سببه فى ذلك أنه قصّد رجلاً يتشيع فكره أن يعرفه بأبى حفص .

وكيف صار بعض الناس يَمُتُّ الشىء لاسمِهِ دون عَيْنِهِ ، أو لَلْقَبِ دون جَوْهَرِهِ ؟ وما النُّفُورُ الذى يُسْرِعُ إلى النفس من النَّبْزِ وَاللَّقَبِ ؟ وما السُّكُونُ الذى يَرُدُّ على النفس من النَّعْتِ ؟ وما هما إلا متقاربان فى الظاهر ، مُتَدَانِيَانِ فى الوَهم .

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :
إن المعانى تلزمها الأسماء ، ويعتادها أهل اللغات على مرّ الأيام حتى تصير كأنها

(١) (الرسيل) الملاعب الذى يرسل القطع ، او بوجهها .

هى ، وحتى يَشْكُ قوم فيزعمون أنَّ الاسم هو المسمى ، وحتى زعم قوم أفاضل أنَّ الأسمى بالطباع تصير إلى مُطابَقة المعانى كأنهم يقولون إنَّ الحروف التى تُؤَلَّف لمعنى القيام أو الجلوس ، أو الكوكب أو الأرض لا يصلح لغيرها من الحروف أن تُسمَّى به ، لأنَّ تلك بالطبع صارت له .

واضطر لأجل هذه الدعوى أن يشتغل كبار الفلاسفة فى مُناقضتهم ، ووضع الكتب فى ذلك ، فليس بعجب أن يَألف إنسان اسم نفسه حتى إذا غُيِّر ظنُّ أنه إنما يُغَيَّر هو ، وإذا دُعِيَ بغير اسمه فإنما دُعِيَ بغيره ، بل يرى كأنما بُدِّل به نفسه . ولقد سمعت بعض المُحَصِّلِينَ يستشير طبيباً ، ويخاف فيما يشكُّوه أنه قد أصابه المالىخوليا فقلت له : وما الذى أنكرت من نفسك ؟ قال : يُخَيِّلُ لى أن يمينى قد تحوّل شمالاً ، وشمالى يميناً ، لست أشك فى ذلك .

فلما امتد بى النظر فى مُساءلته وجدته كان قد تَخَتَّم فى يمينه مدة للتقرب إلى بعض الرؤساء من أصدقائه ، ثم لما فارقه لسفره اتَّفَقَتْ له إعادةُ إلى التختُّم فى اليسار فعرض له من الإلف والعادة هذا العارض . فاعتبر بذلك سهلُ جوابِ مسألتك ، وتعلم ما فى العادة من المُشاكلة لما فى الطبع .

فأما كراهة الناس الشئ لأسمه ، أو للقبه ونَبْزه ، فالجواب عنه قريب من الجواب عن هذه المسألة ، وذلك أنَّ الأسماء والألقاب أيضاً تكره لكراهة ما تدلُّ عليه للعادة الأولى ، فلو أنك نقلت اسم الفحْم إلى الكافور فيما بينك وبين آخر لكان متى ذكر الفحْم تصور السواد ، ولم يَمْنَعْهُ ما انتقل فيما بينه وبينك إلى مسمى آخر أبيض طيب الرائحة ، وذلك لأجل العادة ، اللهم إلا أن يكون تركيب الحروف تركيباً قبيحاً ، والحروف أنفسها مستهجنة فإنَّ الجواب عن ذلك قد مر فى صور هذه المسائل مستقصى .

لماذا هذا .. مع الهم ؟

قال أبو حيان :
لم صار صاحب الهم ، ومن غلب عليه الفكر فى مُلِم يولع بمس لحيته وربما نكت الأرض بإصبعه ، وعَبَث بالحصى ؟
وقد يختلف الحال فى ذلك حتى إنك لتجد واحداً يحبُّ عند صدمة الهم ، ولوعة الحزن جمعاً وناساً ومجلساً مُزْدَجِماً ، يُرِيقُ بذلك تفریحاً ، ويجد عنده خفا . وآخر يفرع إلى الخلوة ، ثم لا يقع إلا بمكان موحش ، ونشز ضيق وطريق غامض . وآخر يُؤثر الخلوة ولكنَّ يحنُّ إلى بستان حال وروض مُزهر ، ونهر جار .

ثم تختلف الحال بين هؤلاء حتى إنك لتجد واحداً عند غاشية ذلك الفكر أصفى طبعاً ، وأدكى قلباً ، وأحضر ذهنًا ، وحتى يقول القافية النادرة ، ويصنّف الرسالة الفاخرة ، وحتى يحفظ علماً جما ، ويستقبل أيامه نُضحاً ، وآخر يُذهل ويُغله ، ويزول عنه الرأي ويتحير حتى لو هُدى ما اهتدى ، ولو أمر لما فقه ولو نُهى لما وبه .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :

إن النفس لا تعطل الجوارح إلا عند النوم لأسباب ليس هذا موضع ذكرها . والعقل يستهجن البطالة ، ولا بد من تحريك الأعضاء في اليقظة إما بقصد وإرادة ، وبصناعة ولأغراض مقصودة ، وإما بعثٍ ولهو ، وعند غفلة وسهو ؛ ولأجل ذلك نهت الشريعة عن الغفلة ، ونهى الأدب عن الكسل ، وأمر الناس وسواس المدن بترك العطلة واشتغال الناس بضروب الأعمال .

ولقباحة العطلة ، ونفور العقل عنها اشتغل الفراغ بلعب الشطرنج والنرد على سخافتها ، وأخذهما من العمر ، وذهابهما بالزمان في غير طائل ؛ فإن الجلوس بلا شغل ولا حركة بغير ضرورة أمرٌ ياباه الناس كافة لما ذكرناه .

فصاحب الفكر والهم لا تتعطل جوارحه ، وإنما ينبغي أن يتعود الإنسان بالتأديب حركات جميلة مثل القضيبي الذي وُضِعَ للملوك ، وقد كره ذلك أيضا ونُسب إلى الترق ، وجعل في جنس الولع بالخاتم .

فأما مس اللحية وقلع الزئبر^(١) من الثوب فمعدود من المرضى ؛ لأنه حركة غير منتظمة ، ولا جارية على سنة الأدب ؛ بل هو عبث يدل على أن صاحبه قد احتمل حتى عزب عقله ، وذهب تمييزه دفعة . ولا ينبغي ذلك لمن له تمييز ، وبه مسكة أن يفعل ؛ بل ينبه عليه من نفسه ويتركه إن كان عادته .

فأما اختلاف الحال في الناس فيمن يحب الاجتماع مع الناس أو يحب الخلوة وغير ذلك مما حكيت ، وذكرت أقسامه فإن ذلك تابع للمزاج ؛ وذلك أن صاحب السوداء والفكر السوداوي يحب الخلوة والتفرد ، ويأنس بذلك . وأما صاحب الفكر الدموي فإنه يحب الاجتماع والناس ، وربما أثر الترهة والفرجة .

وأما ما حكيت عمن يصنع الشعر ، ويصنّف الرسالة ويشغل نفسه بالعلوم فجميع ذلك إنما يكون بحسب عادة من يطرقه الفكر : فإن كان قبل ذلك ممن يرتاض ببعض هذه الأشياء ، أو يكثر الفكر فيها فإنه بعد ورود العارض يلجأ إلى ما كان عليه ، ويعود

(١) الزئبر بكسر الزاء والباء مهموز - ما يعلو الثوب الجديد مثل ما يعلو الخز والقטיפه .

إلى عادته بنفسٍ نائرة مضطرة إلى الفكر فبنفد فيما كان فيه . ولا بد أن يصير ذلك الفكر من جنس ما دهمه ، أعنى أنه يقول القافية ويصنف فى شعر آخر فيرده إلى الأهم الذى يقلقه ويحفزه فيجىء كلامه وشعره أحد وأصفى مما كان .
وأما الذى يذهل ويغله ويتحير فهو الذى لم يكن قبل ورود ذلك الشغل عليه ممن لا يرتاض بشعر ولا ترسل ، ولا عادته أن يلجأ إلى فكره ويستعمله .

لماذا انتصاب قامة الانسان ؟

على ماذا يدل انتصاب قامة الإنسان من بين هذا الحيوان ؟ فقد قال أبو زيد البلخي الفلسفى (١)
كلاماً سأكفيه .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
هذا الرجل الفاضل الذى ذكرته إذا كان يوجد له كلام فى هذا المعنى ، فالأولى بنا أن نستعفيك الكلام فيه . وإذا كنت غير معفينا ، فالأولى أن نكتفى بالإيماء إلى المعنى دون الإطالة ، فنقول :
إن الحرارة إذا كانت مادتها لطيفة مواتية فى الرطوبة والاستجابة إلى الامتداد فهي تمد الجسم الذى تعلقت به إلى جهتها - أعنى العلو - مداً مستقيماً . وإنما يعرض الانكباب والميل إلى جهة الأرض لشيئين : إما لضعف الحرارة ، وإما لقلة استجابة المادة التى تعلقت بها .
وأنت تتبين ذلك وتأمله فى الأشجار التى بعضها ينشعب بشعب مرجحة نحو الأرض .

وبعضها ممتدة على جهة الاستقامة إلى فوق .
وبعضها مركبة الحركة بحسب مقاومة المادة ؛ لأن حركة الشئ المركب وما كان من الشجر والنبات ممتداً على وجه الأرض غير منتصب فهو لكثرة الأجزاء الأرضية فيه ، ولضعف الحرارة عن مدّه نحو العلو .
وما كان من الشجر منتصباً وقد تشعبت منه شعب نحو الأرض ، ويمينا وشمالاً فلأن حركة النار والأرض قد تركبتا فحدثت منهما هذا الشكل المركب بين الانتصاب

(١) اسمه أحمد بن سهل ذكره أبو حيان التوحيدى فى كتاب تقريظ الجاحظ كما نقل ياقوت فى معجمه ٢٩/٣ فقال « لم يتقدم له شبيه فى العصر الأول ، ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر ، ومن تصفح كلامه فى كتاب « أقسام العلوم » وفى كتاب « أخلاق الأمم » وفى كتاب « نظم القرآن » وفى كتاب « اختيار السير » وفى رسائله إلى إخوانه ، وجوابه عما يسأل عنه ويبدعه به وإن القول فيه لكثير » وكانت وفاة أبى زيد فى سنة ٣٢٢ هـ . راجع ترجمته فى فهرست ابن النديم ص ١٩٨ - ١٩٩ وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ص ٤٣ - ٤٣ ومعجم الأدباء ٦٤/٣ - ٨٦ .

والارِجْحَنَانِ .

وما كان من الشجر ممتدًا كالقضيب إلى فوق كالسَّرو وما أشبهه فَلِأَنَّ أجزائه الأرضيَّة والرطوبة المائيَّة فيه لطيفة ، والحرارة قويَّة فلم يَمْتَنِعْ من الحركة المستقيمة التي تحركها النار .

وإذا تأملت حقَّ التأمل هذه الأمثلة لم يَعْسُرْ عليك نقلها إلى الحيوان إن شاء الله .

لم يضيق الانسان بالراحة ؟

* لم يَضِيقُ الإنسانُ في الراحة إذا تَوَالَتْ عليه ، وفي النعمة إذا حالفته ؟ .

وبهذا الضيق إلى المَرَحِ والنَّزْوَانِ ، وإلى البَطَرِ والطُّغْيَانِ ، وإلى التَّحَكُّكِ بالشرِّ والتمرُّسِ به حتى يقع في كلِّ مهوى بعيد ، وفي كلِّ أمرٍ شديد . ثم يعرض على أنامله غيظًا على نفسه بسوء اختياره ، وأسفا على تركه محمود الرأي ، ومجانبة نصيحة

الناصحين مع ما يجد من الألم في صدره من شَمَاتَةِ الشَّامِتِينَ . فما السرُّ المنزى والمعنى المؤثِّبُ ؟ ولذلك قالت العرب في نوادر كلامها : نَزَتْ به البِطْنَةُ . أى أَطغَاهُ الشَّبَعُ ، وأبطرته الكِفَايَةُ ، وأترفته النِّعْمَةُ حتى بَطِرَ وأشِرَ ، واضطرب وانتشر . ومن أجل ذلك قال بعض السَّلفِ الصالح : العافية ملكٌ خفى لا يصبرُ عليها إلَّا وليُّ مُلْهِمٍ ، أو نبي مرسل .

هذا ، والناس مع اختلافهم يحبُّون العافية ، ويميلون إلى الراحة ، ويعودُّون من الشرِّ ، ومَّا يُوْرَثُ منه ، وَيُسْتَعْقَبُ عنه .

الجواب

قال أبو علي مسكوية - رحمه الله :
السَّبَبُ في ذلك أنَّ الراحةَ إمَّا تكونُ عن تَعَبٍ تَقْدُمُهَا لا محالة . وجميع اللذات يظهر فيها أنَّها راحاتٌ من آلام . وإذا كانت الراحةُ إمَّا تكونُ عن تَعَبٍ فهي إمَّا تُسْتَلَذُّ وتُسْتَطَابُ ساعة يتخلَّصُ من الشيء المتعب . فإذا اتَّصَلَت الراحةُ ، وذهب ألمُّ التعبِ لم تكن الراحةُ موجودةً ، بل بَطَلَتْ وبطل معناها . ومع بطلانها بطلان اللذة . ومع بطلان اللذة غلط الإنسان في الشوق إلى اللذة التي يجهل حقيقتها . أعني أنه يشاق إلى معنى اللذة ويجهل أنها راحةٌ من ألم . فصار الإنسان كأنه يشاق إلى تعبٍ ليستريح بعقبه .

وهذا المعنى إذا لآخ للعالم به وتبينه لم يشتق إلى اللذة بته ، وصار قصاراه إذا آله الجوع أن يداويه بالدواء الذي يسمى الشبع لا أنه يقصد اللذة نفسها بل يرى اللذة شيئاً تابعاً لغرضه لا أنها مقصودة الأول ، ولذلك يزهد العالم في الأشياء البدنية ، وهي ما يتصل بالحواس وتسمى لذية . فأما الجاهل فلأنه يعترض له ما ذكرنا بالضرورة صار يقع فيه دائماً ، فيحصل في هموم وآلام وأمراض لا نهاية لها . وعاقبة جميع ذلك الندم والأسف .

لماذا يثقل الخطر على الانسان

لم صار الخطر يثقل على الإنسان ؟
وكذا الأمر إذا ورد أخذ بالخطئ ، وسد الكظم . وقد علمت أن نظام العالم يقتضي الأمر والنهي ، ولا يتيمان إلا بأمر ونهيه ، وأمور ومنهيه . وهذه أركان ودعائم . ولكن ههنا مكتومة بالإشراف عليها يكمل الإنسان فيعرف المتبسر من المتخلص .

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله :
إن الأمر الذي أومأت إليه والخطر إنما يقعان في جنس الشهوات التي تجمع بالإنسان إلى القبائح ، وبلزوم الأعمال التي فيها مشقة وتؤدي إلى المصالح .
ولما كان الإنسان ميلاً بالطبع إلى تعجل الشهوات غير ناظر في أعقاب يومه ، وإلى الهويني والراحة في عاجل اليوم دون ما يكسب الراحة طول الدهر - ثقل عليه حذر شهواته ، والأمر الذي يرد عليه بالأعمال التي فيها مشقة .
وهذه حال لازمة للإنسان منذ الطفولة ، فإن أثقل الأشياء عليه منع والدته مأربه ، وأخذها إياه بكلف الأعمال النافعة ، ثم إذا كمل صار أثقل الناس عليه طبيبه ومعالجه ، ونصيحه في المشورة ، وسلطانة الذي يأخذه بمنافعه ومصالحه .
وهذه حال الناس المنقادين لشهواتهم ، المتبعين لأهوائهم .

وقد يقع فيه الجيد الطبع ، الصحيح الرؤية ، القوى العزيمة فلا يأتي من الأمور إلا أجملها ، قامعاً لهواه ، متحملاً ثقل مئونة ذلك ، لما ينتظره من حسن العاقبة وإحسانها .
ومثل هذا قليل ، بل أقل من القليل ، وليس إلى أمثاله يوجه الخطاب بالأمر في النهي ، ولا إياه الخوف بالوعد والوعيد ، وأنذر العذاب الأليم .

لماذا يرتبك الخطيب على المنبر ؟

ما السبب في أن الخطيب على المنبر ، وبين السَّماطين وفي يوم المحفل - يَعْتَرِيهِ من الحَصَرِ والتَّعَتُّعِ والخجلِ في شيء قد حَفِظَهُ وأَتَقَنَهُ ، ووَثِقَ بحسنه ونَقَاتِهِ ؟
أُتْرَاه ما الذي يَسْتَشْعِرُ حتى يَضِلُّ ذهنُهُ ، ، وَيَعْصِيهِ لِسَانُهُ ، ويتَحَيَّرُ بَالُهُ ، ويَمْلِكُ عليه أمرُهُ .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :
إنَّ انصرافَ النفسِ بالفِكرِ إلى جهةٍ من الجهاتِ يَعُوْقُهُ عن التصرُّفِ في غيرها من الجهاتِ ، ولذلك لا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يَجْمَعَ بين الفكرِ في مسألة هندسيَّةٍ وأخرى نحوِيَّةٍ أو شِعْريَّةٍ . بل لا يَتِمَكَّنُ أحدٌ من تدبيرِ أمرٍ دُنْيَوِيٍّ .

السؤال ١ ؟

لم صارت أبوابُ البَحْثِ عن كلِّ شيءٍ موجودٍ أربعةً ؟ وهى : هل ، والثانى ما ، والثالث أى ، والرابع لم .

الجواب

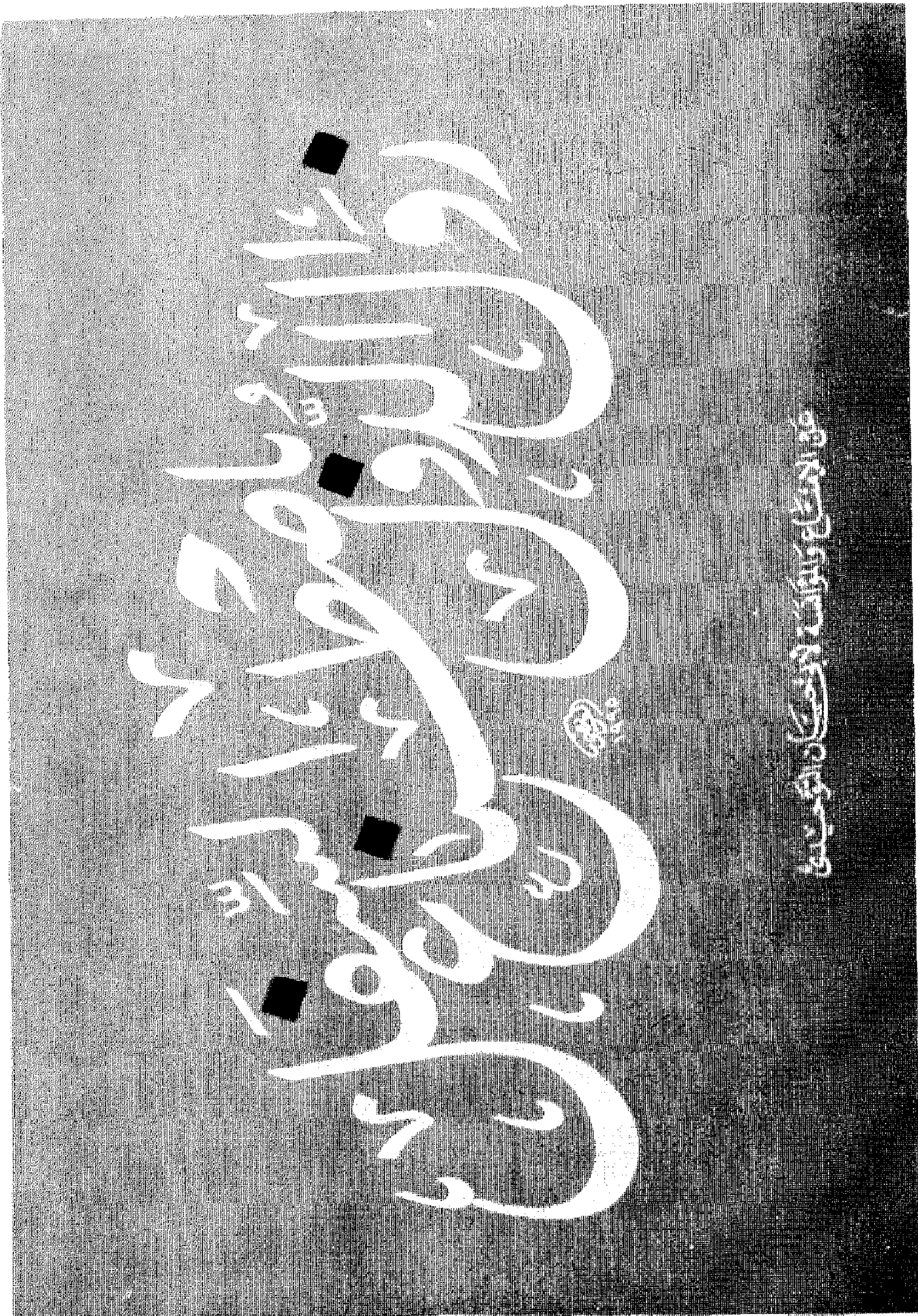
قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :
لأنَّ هذه الأشياءَ الأربعةَ هى مبادئُ جميعِ الموجوداتِ وعِلَلُهَا الأوَّلُ . والشُّكُّ إنَّما تَعْرِضُ في هذه ، فإذا أُحِيطَ بها لم يَبْقَ وجهٌ لدخولِ شكٍّ .
وذلك أنَّ المبدأَ الأوَّلَ في وجودِ الشيءِ هو ثَبَاتُ ذاته ، أعنى هُويَّتُهُ التى يُبَحِّثُ عنها بهل ، فإذا شَكَّ إنسانٌ في هُويَّةِ الشيءِ ، أى في وجودِ ذاته لم يُبَحِّثْ عن شيءٍ آخرٍ من أمرِهِ .

فإذا زال عنه الشُّكُّ في وجودِهِ ، وأُثْبِتَ له ذاتا وهويَّةٌ جاز بعد ذلك أنْ يُبَحِّثَ عن المبدأِ الثانى من وجودِهِ وهو صورتهُ ، أعنى نوعَهُ الذى قَوِّمَهُ ، وصار به هو ما هو ، وهذا هو البَحْثُ بما ، لأنَّ ما هى بَحْثٌ عن النوعِ ، والصورةُ المَقْوِّمةُ .

فإذا حَصَلَ الإنسانُ فى الشيءِ المحجوبِ عنه هذين ، وهما : الوجودُ الأوَّلُ والهويَّةُ التى بَحِثَ عنها بهل ، والوجودُ الثانى وهو النوعيَّةُ أعنى الصورةَ المَقْوِّمةَ التى بَحِثَ عنها بما - جاز أنْ يُبَحِّثَ عن الشيءِ الذى يُمَيِّزُهُ من غيره ، أعنى الفَضْلَ ، وهذا هو المبدأُ الثالثُ ، لأنَّ الذى يُمَيِّزُهُ من غيره هو الذى يُبَحِّثُ عنه بَأَيِّ ، أعنى الفَضْلَ الذاتىَّ له .

فإذا حَصَلَ من الشَّيْءِ المَبْحُوثِ عنه هذه المَبَادِيءُ الثلاثةُ لَمْ يَبْقَ في أمرِهِ ما يَعْتَرِضُهُ شَكٌّ ، وَصَحَّ العِلْمُ بِهِ إِلَّا حَالٌ كَمَالِهِ ، وَالشَّيْءُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وُجِدَ ، وَهذه العِلَّةُ الأخيرةُ التي تَسْمَى الكَمَالِيَّةُ وهى أَشْرَفُ العِلَلِ . وَأَرِسْطَطَالِيْسُ هو أَوَّلُ مَنْ نَبَّهَ عَلَيْهَا وَاسْتَخْرَجَهَا ، وَذَلِكَ أَنَّ العِلَلَ الثَّلَاثَ هِيَ كُلُّهَا خَوَادِمٌ وَأَسْبَابٌ لهذه العِلَّةِ الأخيرةِ ، وَكَأَنَهَا كُلُّهَا إِنَّمَا وُجِدَتْ لَهَا وَلَأَجْلِهَا . وَهذه التي يُبْحَثُ عنها يَلَمُّ .

فإذا عُرِفَ لَمْ وُجِدَ ، وَمَا غَرَضُهُ الْآخِرُ ، أَعْنَى الَّذِي وُجِدَ مِنْ أَجْلِهِ - انْقَطَعَ البَحْثُ ، وَحَصَلَ العِلْمُ التَّامُّ بِالشَّيْءِ ، وَزَالَتِ الشُّكُوكُ كُلُّهَا فِي أَمْرِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ وَجْهٌ تَتَشَوَّقُهُ النَفْسُ بِالرَّوْيَةِ فِيهِ ، وَالشُّوقُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ، لِأَنَّ الإِحَاطَةَ بِجَمِيعِ عِلَلِهِ وَمَبَادِيئِهِ وَاقِعَةٌ حَاصِلَةٌ ، وَلَيْسَ لِلشُّكِّ وَجْهٌ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ ، فَلِذَلِكَ صَارَتِ البَحُوثُ أَرْبَعَةً لَا أَقْلَ وَلَا أَكْثَرَ .



المقاييسات

حبا للفلسفة ، وبعد أن تقدمت
رؤيته في الحياة ، وبعد طرح الأسئلة
في الهوامل والشوامل ، يضع
أبو حيان المقاييسات . والكتاب
صورة دقيقة ليس لرؤية التوحيدي
فقط ، ولكن للحالة الفكرية في
عصره .

اعتمدنا على طبعتين ، الأولى
لحسن السندوبي سنة ١٩٢٩ ،
وطبعة محمد توفيق حسين الثانية
الصادرة عن دار الآداب في بيروت
سنة ١٩٨٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقى إلا بالله . اللهم إليك نرغب فيما أنت أهله ، ومظنته ، ومعروف به . ونلتمس منك ما أنت واجده ، وقادر عليه ، ومأمول فيه . فهب لنا بجودك ومجدك روح القلب بنور العقل ، وسكون البال ببصيرة النفس ، ورخاء العيش بدرور الرزق ، وصلاح الحال بفائض الخير ، وصواب الفضل بثبات العقل ، وبلوغ الغاية بصحة العزم ، ونيل المراد بدوام الصبر ، وبعد الصيت بحسن السيرة ، وتتابع الثناء بمرضى الطريقة ، وفاشى النعمة براتب العز ، وسلامة العاقبة بحيازة الفوز . واكفنا من اللسان فلتته ، ومن الهوى فتنته ، ومن الشر خطرته ، ومن الرأى غلطته ، ومن الظن خبطته ، ومن الطبع سورته ، ومن الثقة غدرته ، ومن الأمين روعته ، ومن العدو سطوته . وجنبنا معاندة الحق ، ومجانبة الصدق ، وشراسة الخلق ، ومذمة الخلق ، والعجب بالعلم ، والبهت بالجهل ، والاستعانة باللجاج ، والاخلاد إلى العاجلة ، والخفوق مع كل ريح ، واتباع كل ناعق . حتى نوحذك بسرائر سليمة من الشرك ، ونقدسك بألسنة نقية من الهجر ، ونتوجه إليك بقلوب صافية من الدغل ، ونعبدك عبادة بريئة من الرياء خالصة باليقين ، ونستجيب لك فى كل سهل وعسير ، ونستريح اليك فى كل قليل وكثير ، وحتى نرى أن ما حرمانا من المال والثروة تخفيف عنا ، وما رزقنا من العلم والحكمة تشريف لنا ، وحتى نعتقد أنك لم تسد إلى إحد من خلقك إلا ما هو لائق بالاهيتك ، وإلا ما هو أخذ بأوفر الأنصباء من غامر جودك وسابغ نعمتك وحاضر صنعتك ، لانك الله العزيز الحكيم ، الجواد الكريم ، الرؤوف الرحيم .

أطال الله حياتك ، وأعز قدرتك ، وأكرم مثواك ، وقرن النجح بسعيك ، وضاعف منائجه قبلك وأدامها [لك] ، وذبح عنها ما يكدرها عليك . لم يذهب على حظى فى البدار إلى رسمك ، والسرع الى طاعتك ، فيما أشرت اليه ، وحضضت عليه ، من تصنيف أشياء من الفلسفة رويتها لك ، ونشرتها عليك ، وحطت بها رغبتك فيها ونشاطك لاقتنائها ، وإضافة أشياء أخر ، تجرى معها وتدخل فى طرازها وتقوى عمدتها وتدل على شرف جوهرها واناقة محلها ، عن مشائخ العصر الذى أدركته والزمان الذى لحقتهم فيه . ووالله ما تلومت على جمعها فى كتاب ، واهدائها إليك فى أقرب وقت على أيسر وجه ، إلا لغمرات هذه الدنيا ، واختلاف أحوال أهلها ، وتقلب ظلالها وأفيائها ووجى نجومها وأنوائها ، وقلة يقظة آبائها وأبنائها ، وانحطاط

رتبة بعد رتبة بأهلها ، (وفساد) حال بعد حال على المتعلقين بحبالها ، الحالين
لضرعها ، النادمين فى عواقبها . فقد أصبحنا فى هذه الدار وكأنما هى قاع أملس أو برّ
أخرس . لم يبق من يرضى هديه ، أو يقتبس علمه ، أو يخطب عرفه ، أو يعتفى
جوده ، أو يقدح زنده ، أو يستفاد لفظه ، أو يتوخى معانه ، أو يعرف حده ، أو يعرض
أدب من الآداب عليه ، أو يباش بوجه من الوجوه اليه . وما ذاك الا لنغل القلوب ،
ودخل الأعراق ، وخلوقة الدين ، وغلبة القحة ، وارتفاع المراقبة ، وسقوط الهيبة ،
ورفض السياسة ، والتبجح بالفحشاء والمنكر . ولعمري مازالت الدنيا على سجيّتها
المعروفة وعاداتها المألوفة ، ولكن اشتدت مؤونتها ، وتضاعفت رزيتها اليوم ، بفقد
السائس الصارم ، وبعدم العابد العالم ، وبانقراض أهل الحياء والتكرم ، وبتصالح
الناس على التعادى والتظالم . والله جل وجهه وتقّدى اسمه فى هذا الخلق غيب
لا يعرف قابه ، ولا يفتح بابه ، ولا يقع القياس عليه ، ولا يهتدى الاحساس إليه ،
ومن أجله سقط الاعتراض ، ووجب التسليم والانقياد . وأدع هذا فإنه سلم طويل ،
وفضاء عريض .

بل ما أخرت حاجتك إلى هذه الغاية ، مع تقاضيك بالتعريض والتصريح ،
والحاحك بالغداة والعشى ، وتلطّفك بالشفيع بعد الشفيع ، الا لظنى بأنها تزيّف على
نقدك ، وتبهرج بتقليبك ، ويبدو عوارها لعينك ، ويتجه عليها وعلى من أجلها
ما شئت من طعنك ولائمتك . وفى السكوت ، أبقاك الله ، أمان من هذا كله . وليس
القلم كاللسان ، ولا الخط كالبيان ، ولا ما يذهب مع الانفاس كما يبقى وسمه بين
الناس . فهذا وأشباهه كان يقصّ جناح العزم ، ويغضّ طرف النشاط ، ويغطّي وجه
الهمة ، ويكذب رائد الطمع ، ويلجّج لسان الرأى ، الى أن قال بعض من أثق
بخلته ، وأستنير بمشورته ، وأستقبل مقاصدى برأيه ، ينبغى أن تتأتى لعمل ما أهّلك
فلان له وشرفك به ، وتخفّ إلى مراده ، وتعلم أن ائتمارك لأمره رشد وأثرة وجمال
وزينة . وليس فى فرش فضائل هؤلاء المشايخ ، وتحجير كلامهم ، عليك مؤونة
غليظة ، ولا مشقة فادحة ، ولا كلفة شديدة . ولأنك ان لم تبلغ منها ذروة الخاصة
لا تقع منها إلى حضيض العامة ، بل ان لم تزد ما تحكيه عنهم رونق لفظ ، وبهاء
رصف ، وتقريب بعيد ، وإيضاح مشكل ، لم تبخسه حظه من الحقيقة التى إليها
انتهت المطالبة وعليها وقعت الارادة . فخفض عليك ، وخفف عنك ، فما بالأمر كل

هذه الصعوبة ، ولابك كل هذا العجز ، وقال أيضا : قد علم الصغير والكبير أن كلا يتنفس برئته ، وينشئ بأنفه ، وينبأع بساعده ، ويسبق الى غايته ، ويعمل على شاكلته ، ويجزئى على قدر عمله ونيته واجتهاده . فوهب الى هذا الكلام قوة ولكن مدخولة ، وأفاء على نشاطاً ولكن ضعيفاً . فأقبلت على ما عرفتكم من حالى ، فى ضيق صدرى ، وفقد أنسى ، وانسداد مذهبى ، أتألف ما شرد منها ، وأنظم ما انتثر منها ، وأرقع بجهدى وطاقتى شملها ، وأحلى بوسعى عطلها . ومن بذل لك مجهوده فقد حرم عليك ذمه ، ومن سعى الى مرادك شوطه فقد استحق منك ثوابه . هذا فى أوائل التعارف ، وفواتح التناصف . وارجو أن لا اخيس بين إرادتى الخير لك وبين اشتمالك بالكرم على ، إن شاء الله تعالى .

المقابلة الأولى

نداء قريب

سمعت أبا سليمان المنطقى يقول : بالاعتبار تظهر الاسرار ، وبتقديم الاختبار يصح الاختيار ، ومن ساء نظره لنفسه قل نصحه لغيره . وكما تنظف الأنية من وسخ ما جاورها ولابسها ، ووضع ما خالطها وذنسها ، لتشرب فيها ، أو لتنظر اليها ، وتستصبحها ، وتحفظها ، ولتكون غنياً بها ، ولا تريد الا طاهرة نقية صافية مجلوة ، ومتى لم تجد لها كذلك عفتها وكرهتها ونفرت عنها وطرحتها ، لأن طبيعتك لا تساعدك عليها ، ونفرتك لا تزول منها ، وإبائك لا يفارقك من أجلها ، وقشعيرتك لا تذهب من بشاعة منظرها ، كذلك فاعلم أنك لا تصل الى سعادة نفسك ، وكمال حقيقتك ، وتصفية ذاتك ، الا بتنقيتها من درن بدنك ، وصقالها من كدر جبلتك ، وصرفها عن ظلمة هواك ، وفطامها عن رضاع شهوتك ، وحسمها عن الضراوة على سوء عادتكم ، وردّها عن سلوك الطريق الى هلكتك وتلفك ونبوذك واضمحلالك . فاسعد أيها الانسان بما تسمع وتبصر وتحس وتعقل ، فقد أردت لحال نفيسة ، ودعيت الى غاية شريفة ، وهيئت لدرجة رفيعة ، وحلّيت بحلية رائعة ، ونوجيت بكلمة جامعة ، ونوديت من ناحية قريبة .

مثال الملك^(١)

ثم قيل : وهذا يوضح بمثال . وليكن ذلك المثال ملكاً في زمانك وبلادك ، واسع الملك ، عظيم الشأن ، بعيد الصيت ، شائع الهيبة ، معروفاً بالحكمة ، مشهوراً بالحزامة ، متصل اليقظة ، قد صح عنه أنه يضع الخير في موضعه ، ويوقع الشر في موقعه ، عنده جزاء كل سيئة وثواب كل حسنة ، قد رتب لبريده أصلح الأولياء له ، وكذلك نصب لجباية أمواله أقوم الناس به ، وكذلك عمارة الأرض أنهض الناس بها وانصحهم فيها ، وشرف آخر بكتابته بحضرته ، وآخر بخلافته ووزارته في حضرته وسفره . اذا نظرت الى ملكه وجدته موزوناً بسداد الرأي ومحمود التدبير ، وأولياؤه حواليه ، وحاشيته بين يديه ، وكل يخف الى ما هو منوط به ، ويستقصى طاقته فيه ويبذل وسعه دونه . والملك يأمر وينهى ، ويصدر ويورد ، ويحل ويعقد ، وينظم ويبدد ، ويعد ويوعد ، ويرق ويرعد ، ويعدم ويوجد ، ويخلع ويهب ، ويعاقب ويشيب ، ويفقر ويغنى ، ويحسن ويسىء . فقد علم صغير أوليائه وكبيرهم ، ووضع رعاياه وشريفهم ، ونبه الناس وخاملهم ، أن الرأي الذي تعلق بأمر كذا صدر من الملك الى كاتبه لأنه من جنس الكتابة وعلائقها وما يدخل في شرائطها ووثائقها ، والرأي الآخر صدر الى صاحب بريده لأنه من جنس أحكام البريد وفنونه وما يجرى في حلبته ، والأمر الآخر ألقى الى صاحب المعونة لأنه من جنس ما هو مرتب له ومنسوب من أجله ، والحديث الآخر صدر الى القاضي لأنه من باب الدين والحكم والفصل ، وكل هذا مسلم إليه ومعصوب به لا يفتات عليه في شيء ، ولا يستبد بشيء دونه . فالأحوال على هذا كلها تجارية على إذلالها وقواعدها في مجاريها لا يزل منها شيء الى غير شكله ، ولا يرتقى الى ما ليس من طبقته وهكذا ما عدا جميع ما حددناه باسمه وحليناه برسمه . فلو وقف رجل له من الحزم نصيب ، ومن اليقظة قسط ، على هذا الملك العظيم ، وعلى هذا الملك الجسيم ، وسدد فكره ، وحدد وهمه ، وصرف ذهنه ، وتصفح حالاً [حالاً] وحسب شيئاً شيئاً ، وقدر أمراً أمراً ، وتأمل باباً باباً ، وتخلل بيتاً بيتاً ، ورفع سجفاً سجفاً ، ونقض وجهاً وجهاً ، لأمكنه أن يعلم بما يثمر له هذا النظر ، ويثريه هذا القياس ، ويصيده هذا الحدس ، ويقع عليه

(١) من المقلبة الثانية .

هذا الامكان ، ما يستعمله هذا الملك غدا ، ويبتديه بعد غد ، وما يتقدم به الى شهر ، وما كاد يكون منه الى سنة وسنين ، لأنه يفلى الأحوال فلياً ، ويجلوها جلواً ، فيقاييس بينها قياساً ، ويلتقط من الناس لفظاً لفظاً ، ولحظاً لحظاً ، ويقول في بعضها رأيت الملك يقول كذا وكذا ، وهذا يدل بعد على كذا وكذا . وإنما جرأه هذه الجرأة على هذا الحكم والبت لأنه قد ملك لحظ الملك ولفظه ، وحركته وسكنه ، وتعريضه وتصريحه ، وجده وهزله ، وشكله وسحته ، وتجعده واسترساله ، ووجومه ونشاطه ، وانقباضه وانبساطه ، وغضبه ومرضاته ، وناديه ومعتاده ، وسفره وحضره ، وبشره وقطوبه . ثم يهجس في نفس هذا الملك يوماً هاجس ، ويخطر بباله خاطر ، فيقول : أريد أن أعمل عملاً ، وأوتر أثراً ، وأحدث حالاً ، لا يقف عليها أوليائي ولا المطيفون بي ولا المختصون بقربي ولا المتعلقون بحبالي ولا أحد من أعدائي والمتتبعين لأمرى والمحصين لأنفاسي والمترقبين لعطاسي ، ولا أدري كيف افتتحه واقترحه ، لأنى متى تقدمت فى ذلك بشيء الى كل من يلوذ بى ويطيف بناحيتى ، كان الأمر فى ذلك نظير جميع أمورى ، وهذا هو الفساد الذى يلزمنى تجنبه ويجب على التيقظ فيه . فيقدح له الفكر الثاقب ، والذكاء اللاهب ، أنه ينبغى أن يتأهب للصيد ذات يوم . فيتقدم بذلك ويذيعه ويطالب به . فيأخذ أصحابه فى أهبة ذلك واعداد الآلة . فاذا تكامل ذلك له اصحر للصيد ، وتشوف له ، وتقلب له فى البداء ، وصمم على بعض ما يلوح له ، وامعن وراءه وركض خلفه جواده ، وبدد فى طلبه بدده ، ونهى من معه ان يتبعه . حتى اذا أوغل فى تلك الفجاج الخاوية والمدارج المتباينة ، وتباعد عن متن الجادة وواضح المحجة ، صادف انساناً فوقف عليه وحاوره وفاوضه فوجده حصيفاً محصلاً يتقد فهماً وينقد إفهاماً . فقال له أفيك خير ؟ فقال نعم ! وهل الخير إلا فى ، وعندى ، والامعنى ؟ ألقى الى ما بدا لك ، وخلنى وذلك . فقال : ان الواقف عليك ، المكلم لك ، ملك هذا الأقليم ، فلا ترع واهداً ولا تقلق فيكفر له عند سماع هذا ، ويقول : لسعادة قيضتنى لك ، والجد اطلعك على . فيقول له الملك : انى أريد أن اصطنعك لأرب فى نفسى ، وأبلغ بك ان بلغت ذاك لى ، وأريد منك ان تكون عيناً على نفسك ذكية ، وصاحباً لى نصوحاً ، فقم لى بذلك جهدك ووسعك ، واطو سرى هذا عن سانح فؤادك فضلاً عما سوى ذلك . فاذا بلغ منه غاية الوثيقة

والتوكد ألقى اليه عجرته وبجرته ، وبعثه على السعى والنصح وتحرى الرضى ،
ووصاه بما أحب وأحكمه ، وأزاح غلته فى جميع ما تعلق المراد به ولا يتم
الا بحضوره . ثم ثنى عنان دابته إلى وجه عسكره وأوليائه ، ولحق بهم ، وتعلل بقية
نهاره فى قضاء وطره من صيده . ثم عاد إلى سريره فى داره ومقره فى ملكه ، وليس
عند أحد من رهطه وبطانته وغاشيته وحاشيته وخاصته وعامته علم بما قد أسره الى
ذلك الكهل الصحراوى وبما حادثه فيه . والناس على سكنتهم وغفلاتهم حتى
أصبحوا ذات يوم عن حادث عظيم ، وأمر جسيم ، وشأن هائل ، وعارض محير .
فكل عند ذلك يقول : ما أعجب هذا ! من انتصب لهذا ؟ وكيف تم هذا ؟ هذا
صاحب البريد وليس عنده منه أثر ، وهذا صاحب المعونة وهو عن الخبرة به بمعزل ،
وهذا الوزير الأكبر وهو متحير ، وهذا القاضى وهو متفكر ، وهذا حاجبه وهو ذاهل .
وكل عن الأمر الذى دهم مشدوه ، ومنه متعجب . وقد قضى الملك مأربته ، وأدرك
حاجته ، وأصاب طلبته ، وبلغ غايته ، ونال أربه . كذلك ينظر هذا المنجم الى زحل
والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر ، والى البروج وطبائعها ،
والرأس والذنب وتقاطعهما ، والهيلاج والكخداه ، والى جميع ما دانى هذا وقارب
وكان له فيه نتيجة وثمره ، فيحسب ويمزج ويرسم ، وتنقلب عنه أشياء كثيرة من سائر
الكواكب التى لها حركات بطيئة وآثار مطوية ، فينبعث مما أغفله وأهمله وأضرب عنه
ولم يتسع له ما يملك عليه حسه وعقله وفكره ورويته ، حتى لا يدري من أين أتى ،
ومن أين دهى ، وكيف انفرج عليه الأمر ، وانسد دونه المطلب ، وفاته المطلوب ،
وعزب عنه رأى . هذا ولا خطأ فى الحساب ، ولا تقصير فى قصد الحق . وهذا كى
يلاذ بالله عز وجل فى الأمور ، ويعلم أن الله مالك الدهور ، ومدبر الخلائق ،
وصاحب الدواعى والعوائق ، والقائم على كل نفس ، والحاضر عند كل نفس ، وأنه
إذا شاء نفع وإن شاء ضر ، وإذا شاء عافى وإذا شاء أسقم وإذا شاء أغنى وإذا شاء
أفقر ، وإذا شاء أحيا وإذا شاء أمات ، وأنه كاشف الكربة والمؤنس فى الغربة ، وأنه
مجلى الغمة وصارف الأزمة ، ليس فوق يده يد ، وهو الأحد الصمد على الأبد
والسرمد .

المقايسة الخامسة الزمان والمكان

قلت لأبى بكر القومسى ، وكان كبيراً فى علم الأوائل : بأى معنى يكون هذا الزمان أشرف من هذا الزمان ، وهذا المكان أفضل من هذا المكان ، وهذا الإنسان أشرف من هذا الإنسان ؟ فقال : هذا يسوغ بإضافة الزمان إلى سعادة سابعة ، وخير غامر ، وبركة فائضة ، وخصب عام ، وشريعة مقبولة ، وخيرات مفعولة ، ومكارم مؤثرة ، من جهة شكل الفلك بما يقتضيه بعض أدواره.. وكذلك المكان إذا قابله أثر من هذه الأجرام الشريفة والأعلام المنيفة . فأما الزمان ، الذى هو رسم الفلك بحركته الخاصة ، فليس فيه جزء أشرف من جزء وكذلك المكان لأنه رديف الزمان . ولا سبيل فى مثل هذه المسائل إلى معرفة الحقائق الا بالاضافة التى هى شاملة للعالم ، غالبية عليه ، من محيطه إلى مركزه . فأما الإنسان فلا شرف له أيضاً على إنسان آخر من جهة حده الذى هو الحياة والنطق والموت ، لأن الحد فى كل واحد واحد . فاذن لا شرف من هذا الوجه . فان اعتبر بعد هذا فعل هذا ، وفعل هذا ، من جهة الاختيار والايثار والاكتساب والاجتلاب ، فذاك يقف على الاشرف فالاشرف ، والأعلى فالأعلى ، بحسب ما يوجد منظوماً فيه ، نافعاً لغيره ، واقعاً موقعه الأخصر به .

المقايسة السادسة

اختلاف الألفاظ .. لماذا أحلى ؟

قلت لأبى بكر القومسى - وكان كبير الطبقة فى الفلسفة ، لزم يحيى بن عدى زماناً ، وكتب لنصر الدولة ، وكان حلو الكتابة ، مقبول الجملة : ما معنى قول بعض الحكماء : الألفاظ تقع فى السمع فكلمة اختلفت كانت أحلى ؟ [والمعانى تقع فى النفس فكلمة اتفقت كانت أحلى] . فقال : هذا كلام مليح ، وله قسط من الصواب والحق . ان الألفاظ يستملئها السمع ، والسمع حسٌّ ، ومن شأن الحس التبدد فى نفسه والتبديد فى نفسه . والمعانى تستفيدها النفس ، ومن شأنها التوحد بها ، والتوحيد لها ، ولهذا تبقى الصورة عند النفس قنية ومملكة ، وتبطل عند الحس بطولا ، وتمحى امحاء . والحس تابع للطبيعة ، والنفس متقبلة للعقل . فكأن الألفاظ

على هذا التدرّيج والتنسيق من أمة الحس ، والمعاني المعقولة له من أمة العقل .
فالاختلاف فى الأول بالواجب ، والاتفاق فى الثانى بالواجب . وبالجمله الألفاظ
وسائط بين الناطق والسامع ، فكلما اختلفت مراتبها على عادة أهلها كان وشيها أروع
وأجهر . والمعاني جواهر النفس ، فكلما اختلفت حقائقها على شهادة العقل كانت
صورتها انصع وأبهر . واذا وفيت البحث حقه فان اللفظ يجزل تارة ويرق أخرى ،
ويتوسط تارة ، بحسب ملابسته التى له من نور النفس ، وفيض العقل ، وشهادة
الحق ، وبراعة النظم . وقد يتفق هذا التعديل لانسان بمزاجه الصحيح ، وطبيعته
الجيدة ، واختياره المحمود ، وقد يفوته من هذا الوجه فيتلافاه بحسن الاقتداء بمن
سبق بهذه المعاني اليه ، فيكون اقتداؤه حافظا عليه نسبة البيان على شكله المعجب
وصورته المعشوقة . ومدار البيان على صحة التقسيم ، وتخير اللفظ ، وزينة النظم ،
وتقريب المراد ، ومعرفة الوصل والفصل ، وتوخى المكان والزمان ، ومجانبة العسف
والاستكراه ، وطلب العفو كيف كان .

المقايسة السابعة

لماذا لا ينكتم السر؟

قيل لأبى سليمان ، وقد جرى كلام فى السر وطيه والبوح به ، ما السبب فى أن
السر لا ينكتم البتة ؟ فقال : لأن السر اسم لأمر موجود قد ضرب دونه حجاب ،
وأغلق عليه باب ، فعليه بالكتمان والطفى والخفاء والستر مسح من العدم ، وهو مع
ذلك موجود العين ثابت الذات محصل الجوهر ، فباتصال الزمان وامتداد حركة الفلك
يتوجه نحو غاية هى كماله ، فلا بد له اذا من النمو والظهور ، لأن انتهاء اليهما ووقوفه
عليهما ، ولو بقى مكتوما خافيا أبدا لكان والمعدوم سواء ، وهذا غير سائغ ، أعنى أن
يكون الموجود معدوما ، ولو قبل الوهم هذا لقبل أن يكون المعدوم موجودا . وهذه
مسألة فى الهوامل ولها جواب فى الشوامل . لكن هذا القدر مستفاد من هذا الشيخ
الفاضل . ومرّ أيضا فى كلامه أن الحجاب المضروب على هذا السر يرث ويخلق ،
لأنه لا يبقى على هيئته الأولى يوم يقع سرا ، ويحدث مكتوما . ثم قال : هذه
الخواطر والسوانح ، على لطفها ودقتها وشدة خفائها وغموض مشاربها ، تبدو وتظهر
وتقوى وتكثر ، حتى يعرف منها الشيء بعد الشيء ، باللحظ والسحنة والتلفت

وضروب شكل الوجه ، فكيف ما ابتذله اللسان ، ونسخته العبارة ، وظعن من مكان إلى مكان .

المقايسة الثامنة

الموت والحياة

سمعت الأنطاكي أبا القاسم ، وكان يعرف بالمجتبي ، يقول : الأسباب التي هي مادة الحياة هي في وزن الأسباب التي هي جالبة للموت . قيل له : فلم كان الموت على هذا أولى بالإنسان من الحياة ؟ فقال : لأن الموت طبيعي ، وكل طبيعي لا محيص عنه . وإنما أطلقنا الكلام الأول لأنك ترى من نجا من الموت بشيء وقع به غيره في الموت ، وتجد من تخلص إلى الحياة بشيء وقع غيره إلى الموت . فلو استطيع حصر هذه الأبواب لوجد ما به يموت من يموت في عدد ما به يحيى من يحيى .

ثم قال : وما هنا موت طبيعي معترف به في مقابلته حياة طبيعية . وهكذا أيضا ما هنا موت عرضي وفي مواجهته حياة عرضية . فالموت الطبيعي قد قامت به الشهادة من الكافة . فأما الحياة الطبيعية فحياة العقل بالعقل . والموت العرضي الجهل الشائع في الإنسان . فأما الحياة العرضية فحس الإنسان وحركته بسلامة بدنه ، وسكون أخلاطه ، وقوة طبيعته ، وتصرف سائر ما هو مركب من جهته .

ثم قال : ومن فتح الله بصر عقله ولحظ هذه الحقائق ، ترقى في درجات المعارف وسلاليم الفضائل ، وانتهى إلى أفق الروح والراحة ، ونجا من هذه المعادن التي هي معادن العطب والتلف ومساكن الآفات والهلاك . وتفجر في هذا الفصل بكل كلام شريف وبكل موعظة حسنة . وكان من القادرين على أمثاله ، وممن قد أيده الله تعالى بتوفيقه ومعونته .

المقايسة التاسعة

لماذا يتعصب صاحب العلم لعلمه ؟

سأل أبو محمد الأندلسي النحوي عيسى بن علي الوزير ، وأنا عنده ، فقال : لم قال صاحب كل علم ليس في الدنيا أشرف من علمي الذي أنظر فيه ؟ هكذا نجد

الطبيب والمنجم والنحوى والفقيه والمتكلم والمهندس والكاتب والشاعر . قال : وأنا . لمكانى من النحو ، أقول هذا القول ، وهكذا أجد من سميت . فقال الشيخ عيسى بن على : هذا لأن صورة العلم فى كل نفس واحدة ، فكل أحد يجد تلك الصورة بعينها ، فيمدح العلم بها ، ويظن أن تلك الصورة إنما هى لعلمه وحده ، وكذلك صاحبه . وتلك ، أطال الله بقاءك ، صورة العلم الأول . فأما إذا قسمت العلم ، كما قسمه أبوزيد أحمد بن سهل البلخى الفيلسوف فى كتابه المسمى أقسام العلوم ، وتتبع مراتبه ، فانك تجد حينئذ علما فوق علم ، بالموضوع أو بالصورة ، وعلما دون علم ، بالفائدة والثمرة . وهذا المعنى الذى أشير إليه يصح لك لو فرضت نفسك عالمة بكل شيء ، فكنت حينئذ لا يحضرك علم دون علم بل كنت تطلع على جميعه بنوع الوحدة مع اختلاف مراتبه من نواحى مواده وصوره وفوائده وثمره ، وكنت تجدها كلها واحدة . لأن حد العلم كان يشتق من كل فن منها على ما هو به من غير خلل عارض ولافساد واقع .

قال الأندلسى : قد كنا ، أيها السيد ، نترامى بهذه المسألة تحقيرا لها ، وامتهانا لقدرها ، وفيها هذا الجواب الذى لو رحل إليه من قطر شاسع ، أو غرم عليه مال دثر ، لكان ذلك دون حقه . وما أكثر ما يحقر الشيء فيصير صلة لشيء لا يحقر . لولا أن عمرى استهلكه التحول كنت ألبس لهذا العلم صدار المنكمشين ، واصبغ به نفسى صبغة المتحققين .

المقابلة العاشرة

الأفعال الالهية

قال أبوزكريا الصيمرى لأبى سليمان : إذا كان البارئ تعالى لا يفعل ما يفعل ضرورة ولا اختيارا ، فعلى أى نحو يكون فعله ؟ فانه ان كان كاستنارة الهواء عن الشمس فهو ضرورى ، وان كان كفعل احدنا فهو اختياري ، وماخلا هذين فغير معقول ، وما لا يعقل فغير مقبول .

فقال ابوسليمان : قد قال كبار الأوائل أنه تعالى يفعل بنوع اشرف من الاختيار . وذلك النوع لا اسم له عندنا ، لأننا إنما نعرف الأسماء التى قد عهدنا أعيانها ، وشبهنا

بها . والناس إذا عدموا شيئا عدموا اسمه ، لأن اسمه فرع عليه ، وعينه أصل له ، وإذا ارتفع الأصل ارتفع الفرع ، هذا مالا دفاع له ، ولا امتناع منه . وخواص الخواص معدومة الأسماء . ونحن نحس بمعان جملة ، وفوائد كثيرة ، لا نستطيع صرفها عن أنفسنا ، وقد التبست بها ، وقرت في أثنائها . ومع ذلك إذا حاولنا أسماءها عجزنا . بلى قد نعتاض من الأسماء الفائتة اشارات بصفات وتشبيهات تقوم لنا من بعد مقام الأسماء الفائتة ، ولكن لها فينا أعمال رديئة وإيهامات عندنا فاسدة ، ولكن ليس لنا في هذا بوجه من الوجوه حيلة . فمن جملة ذلك هذا الذى نحن فيه ، أعنى أنه قد صح بالبرهان أن فعل الله تقدس وعلا ليس باضطرار ، لأن هذا فعل عاجز ، ولا دافع لهذا القول . وليس باختيار أيضا لأن فى الاختيار معنى قويا من الانفعال . وهذا مسلم عند من ألف شيئا من الفلسفة ، وشدا بعض علم الأوائل . فلم يبق بعد هذا الا انه بنحو عال شريف يضيق عنه الاسم مشارا إليه ، والرسم مدلولاً به عليه . ولو قال لك رجل لم خبرت عن الله بالتذكير دون التأنيث ؟ لم يكن عندك الا أن تقول هذا ما أقدر عليه وليس عندى لما هو حقه فى الخبر عنه اسم يخصه ، وأكثر ما أمكننى أنى لم أنعته بما أنعت به الأنثى . وهذا لأن التذكير والتأنيث معنيان يوجدان فينا وفيما أشبهنا من سائر الحيوان وهما منفيان عن الله تعالى من كل وجه وبكل وهم .

ثم قال : بعد هذا الذى أقدم من القول ، والذى أختاره فى هذا الجواب ، مع هذا التضييق الواقع ، أن قولنا يفعل لا يصح معناه فى البارى البتة . بل قولنا يفعل عبارة عن انفعال الأشياء له ، لأن الأشياء كلها مشتاقة إليه ، متوجهة نحوه ، مستأنسة به ، مقتبسة منه . وذلك أيضا لأن وجوده قد حرك الأشياء إلى ذاته ، وشوقها إلى قربهِ ، وبث الوسائط بينها وبينه . ثم ضرب مثلا يقال : ألا ترى إلى الطبل يضرب عند الرحيل من قبل الملك ، فترى كل احد قد تحرك حركة لا ثقة به موقوفة عليه نحو الملك ، من غير أن يكون قد تقدم إلى واحد واحد منهم بما هو إليه بل هو على سكونه وحاله السالفة . وانما لاح لهم لائح فتحركوا مشتاقين متشبهين .

ثم قال : وينبغى أن يعلم أنه لا فاعل الا وهو يعتريه نوع من أنواع الانفعال فى فعله ، كما أنه لا منفعل الا وهو يعتريه نوع من أنواع الفعل فى انفعاله ، الا أن

الانفعال فى الفاعل خفى جدا ، والفعل فى المنفعل خفى جدا ، فلهذا لا يطلق على الفاعل الا الاسم الأخص له ، الأعم لجملته . وهذا وان كان الاطلاق والاستعمال على حد ما حقق القول فيه ، وأن المعقول لا سبيل إلى إنكاره ، وما عرف بالحقيقة لا طريق إلى جحوده . فقد بان أن قولنا يفعل ولا يفعل ، وفاعل وغير فاعل ، كلمات مطلقة على حد المجاز والعادة .

المقابلة العشرون بعد الموت

قال المجوسى ، وكان ذا حظ وافر من الحكمة ، لأبى الحسن محمد بن يوسف العامرى ، وكان من أعلام عصره : أيها الشيخ ! إنى أجد النظر فى حال النفس بعد الموت مبنيًا على الظن والتوهم . وذلك ان الإنسان كما يستحيل منه أن يعلم حاله قبل كونه ، [كذلك يستحيل أن يعلم حاله بعد كونه] لأنه يصير مستقى علمه ومستنبط مراده عدما ، والعدم لا يقتبس منه علم شيء بوجه ، ولا يستفاد منه معرفة حال ، لا فيما يتعلق بالحق ، ولا فيما يتعلق بالباطل .

فقال فى الجواب : ليس النظر فى حال النفس بعد الموت مبنيًا على الظن ، وإن كان شبيها به . وليس يجب أن يثبت القضاء فى هذا المعنى بالظن للمشابهة القائمة بينه وبين غيره ، لأن الفصل حاضر والفرق ظاهر . وذلك أن الإنسان لم يجهل حاله قط فيما سلف ، لأن الطريق إلى تبين ذلك وتحصيله مسلوک ، والشاهد على ثمره المطلوب قائم ، والتقريب يدل على ذلك فى هذا الوقت . وان كان البرهان فى الصناعة موجودا إذا أخذت على ترتيبها الخاص لها فى معرفة المنطق ، الذى هو آلة فى استقراء الطبيعات التى هى مراق ، وفى معرفة النفس التى هى طلبة كل ناظر فى علم ، وتحقيق بنحلة .

كان الإنسان أجزاء مبثوثة فى هذا العالم ، فلما صمدت النفس لها ، حركت الطبيعة على تأليفها ، وتوزيع الحالات المختلفة فيها ، وأعطتها النفس بوساطة الطبيعة صورة خصتها بها ، ودبرت أخلاطها ، وهيات مزاجها ، فظهر الإنسان فى الثانى بشكل غير الشكل الذى كان لأجزائه ، التى مردّها فى آخر البحث إلى الهوى ، بالقول المجمل .

والكلام فى هذا ذو شعب وذوائب . ثم ان الإنسان ، فى معارفه التى يترقى فى درجاتها ، يجد لنفسه قنية ليست كسائر القنيات ، وهياة ليست كجميع الهيئات ، أعنى الحكمة التى هى علم الحق والعمل بالحق . فيجول طالبا لبقائها ، ناظرا وباحثا عن حقيقة ذلك ، حائرا إلى أن يبلغ بفرط العناية ، وجودة الفحص ، وحسن مشاورة

العقل ، إلى الحد الذى يفصح له بأن النفس ليست تابعة للمزاج ، ولا حادثة بالأخلاق ، بل هى مستتبعة للمزاج ومقومة للأخلاق ، بوكالة الطبيعية التى هى ظل لها ، وقوة من قواها ، وأن النفس ليس لها استعانة بالبدن ، ولا بشيء منه ، وأنها خالصة لا شوب فيها ، وقائمة بجوهرها ، غنية بعينها عما يفسدها ويحللها ويتخونها ويؤثر فيها . وكيف يكون ذلك وهى لا تفعل البتة ؟ فبهذا وأشباهه ينفتح للإنسان إن النفس يمكن أن يطلب علم حالها ، بعد مفارقة البدن ، بالأمر الطبيعى ، والسبب الضرورى . فقد تجلى وانكشف أن البحث عن ذلك ليس بحثا عن عدم مطلق ، بل هو بحث عن أحوال منزلة مشهورة مرتبة محدودة . بل هو بحث عما تتصور غايته ، ويطمأن إليه ، تارة بالبرهان المنطقى ، وتارة بالدليل العقلى ، وتارة بالأيماء الحسى ، والأمر الالهى ..

وقال أيضا فى هذا الموضع ما يجب إirاده ، وإن طال الفصل ، واسأم ذكر ، رضى الله عنه ، أن الحسيات معابر إلى العقليات ، ولا بد لنا ، مادنا باحثين عن حقائق العقل ولا نقدر على أن نخلص إلى عالمه دفعة واحدة ، من سبل نسلكتها ، ومثل نستصحبها ، وشواهد نستنطقها ونثق بها . ولو أمكننا الخلوص إلى عرصات العقل وبلادها ، لكان التفاتنا إلى الحواس فضلا . الا أننا متى أخذنا الأمثلة من الحواس فليس يجب أن نتثبت بها كل التشبث ، بل الذى يحكم به العقل ويقتضيه الحزم أن نأخذ الأمثلة من الحس ، فإذا وصلنا إلى العقل حينئذ فارقناها أغنياء عنها ، مستريحين منها ، ومن تموجها واضطرابها . ولما كنا بالحس فى أصل الطبيعة ، لم ننفك منه ، ولما كنا بالفعل فى أول الجوهر لم نجهل فضله ، فلماذا ما استغنى بالحس ولم يقض به ، ووصلنا إلى العقل ولم نتمر عليه .

وهذا اقتضاه قول عرض فى جملة كلامه ، وذلك أنه قال : فى كل محسوس ظل من المعقول ، وليس فى كل معقول ظل من الحس . ومتى وجدنا شيئا فى الحس فله أثر عند العقل ، به وقع التشبه ، وإليه كان التشوق ، وبه حدث القرار . والإنسان متى لم يخلع آثار الحس خلعا ، لم يتحل بلبوش العقل تحليا . وإنما شق الاقرار بمعرفة حال النفس بعد الموت ، لأن الحس لم يساعد فى تسليم ذلك بشهادة يسكن إليها ، وإن كان العقل قد استوضح ذلك بالأمثلة المضروبة فى إقامة البينة عليها .

المقابلة السادسة والعشرون

النوم واليقظة

سمعت أبا اسحاق الصابي يقول : رأيت ثابت بن قرة الحرائي في المنام ، قاعداً على سرير في وسط دحلنا ، وحوله ناس كثيرون كان كل واحد منهم من قطر وهم على خلق مختلفة ، وهو يعظهم ويبتسم في خلال وعظه وكلامه . وحصلت عنه نكتة شريفة ، ذهبت عنى في اليقظة ، وساءنى ذاك . وكنت اسرح بفكرى كثيراً في الظفر به والوقوع عليه ، فلا يعود بطائل . فلما كان بعد دهر ، وبعد اختلاف أحوال ، ذكرت أنه قال لى : خذ يا إبراهيم نمرة الفلسفة من هذه الكلمات الشافيات ، التى هى خير لك من أهلك وولدك ومالك ورتبتك . أعلم أن اليقظة التى لنا بالحس هى النوم ، والحلم الذى لنا بالعقل هو اليقظة . ولغلبة الحس علينا قد اتفقنا أن الأمر بخلاف هذا . وإلا فغلب العقل مكان الحس ينصدع لك الحق فى هذا الحكم . فإذا وضع هذا فبالواجب ينبغى أن ينتقص من الحس وإن ظننا أن اليقظة من ناحيته ، ويلتبس بالعقل وإن ظننا أن الحلم من ناحيته . فكان يقول أبو اسحاق : وهذه النكتة مفروشاها واسع ، ولكن بقى أن تفهم منتفعاً بها ، وتسمع على وجه التقبل لها لا على معنى الاعتراض عليها . الفلسفة هى لطائف العقل . فكل من لطف وصل إليها . ولطف الإنسان فى طلبها هو تأتية عند التفهم ، وصبره عند الطلب ، وثباته على السيرة التى ندب إليها المشفقون الناصحون . فإن النفس تزكو عند ذلك ، والصدر ينشرح ، والخاطر يتوالى ، فلا يبقى حينئذ باب إلا انفتح ، ولا مشكل إلا وضع .

المقابلة السابعة والعشرون

نفس الانسان

سئل أبو سليمان : هل يجوز أن يقال الإنسان ذو نفس ، كما يقال : هو ذو ثوب ، وذو مال ؟ قال : أما على التحقيق فلا . وذلك أن الإنسان قد يكون ذا ثوب وذا مال ، وقد لا يكون ، ويستحيل أن يكون إنساناً إلا وهو ذو نفس ، لأنه بالنفس ما هو إنسان ، ولولا النفس لم يكن إنساناً ، فكيف يكون على هذا ذا نفس إلا على السعة والمجاز ؟ ..

قيل له : فهل تقول : إن النفس ذات إنسان ؟ قال : لا ، لأنها غنية عن الإضافة .
ألا ترى أنه لا يقال : إن الثوب ذو إنسان ، وإن اليد ذات إنسان ، كما يقال أن
الإنسان ذو ثوب ، والإنسان ذو يد ، لأنه لا حاجة بالثوب للإنسان ، وإنما الحاجة
بالإنسان إلى الثوب واليد .

ثم قال : واعلم أنه ينبغي أن تفهم من قولنا الإنسان ذو نفس أنه بالنفس إنسان ،
لأن الإنسان عرف بالنفس أنه إنسان . ومما يزيدك بياناً أنك إذا قلت الإنسان ذو
نفس ، فقد اضمرت في الإنسان نفساً في الأول ، ثم ميزته بعد بقولك ذو نفس ، وإذا
رجوع فيما أعطيت . ألا ترى أنك إذا قلت : الإنسان ذو ثوب ، لم تضمر الثوب في
الإنسان ، بل تميزه منه حتى تكون اشارتك إلى هذا غير إشارتك إلى هذا . فقد
انكشف أن الإنسان لا يقال هو ذو نفس إلا على سعة وتجوز . ومما يزيدك أيضاً
استبانة أن معنى الملك يستحيل في هذا الكلام . وقولك الإنسان ذو ثوب إيضاح
للملك ، والمالك غير المملوك . وليس كذلك الإنسان مع النفس ، فإنه لا يملك
النفس ، بل النفس تملكه . ألا ترى أنها تصرّفه ، وتكلفه ، وتستعمله ، وتستكملها .
فأين معنى الملك ، الذي يقتضيه اللفظ ، في جميع نظائر هذا القول ؟ هذا يكون من
أمرين مختلفين . أحد الأمرين كدر النفس بالجهل ، وظلمتها بالغباوة ، وانمحاء
صورتها بصدأ الدهر ، وقلة اقتناء المعارف ، وشدة انجرادها من العبر . وهذه حال
دهماء الناس . وأما الآخر فهو أن تعلو النفس في مراتب المعارف ، وترتعى رياض
العلم ، حتى تصير حالها في الحلم قسيمة حالها في اليقظة ، فلا يستفيد صاحب هذه
النفس شيئاً بالمثال والتشبيه من ناحية الرؤيا ، لا سواء حاله في المنام واليقظة .
وربما تحولت تلك القوة من المنام إلى الفراسة في اليقظة ، وإلى الكهانة ، حتى إذا
حدس قرطس ، وإذا طنّ طن ، وإذا وهم هجم ، وإذا اعتبر عبر . وربما تحولت إلى
ما يرفد العقل فقط ، باستخراج الدقائق ، وتأليف المقدمات ، واستنباط النتائج ،
والوصول إلى سرارة الحق ، وبحبوحه الصواب . وربما صارت الحال مصادفة
للحقائق ، بزوال الوسائط ، من غير إعمال أداة ، وإحضار آلة . قال : وهذه كلها
درجات النفس ، تارة من ناحيتها بالبحث والتنقير والنظر والتقليب ، وتارة بالوحي
والإلهام والإلقاء والسنوح والموافقة والمصادفة ، وما جرى في نظائر هذه المعاني ،
والتبس بما يكون شكلاً لها . وهذه حال تقع أولاً في مزاج مهياً ، وتركيب معدل ،

وطينة حرة ، ثم تظهر ثانياً بتهذيب النفس ، وتطهير الأخلاق ، وتصفية الأعمال ، وقمع الشهوات . وكل من كان قسطه من الحال الفلكية أوفر ، كان مضאוؤه فى الحال البشرية أظهر . وهذا باب طويل الذيل ، مياس . وفيما وقع النص عليه ، ووصلت الإشارة إليه ، بلاغ لمن أثر رشده ، وقصد خطه ، ويدل سعيه ، وأم غايته . وفقنا الله لما نحب ، واستعملنا فيما يرضى ، إنه قريب مجيب .

المقابلة الثالثة والثلاثون

الحركة والسكون

سئل أبو محمد العروضى مرة عن الحركة والسكون أيهما أقدم ؟ فقال : أما عند الحس فالحركة أقدم ، وأما عند العقل فالسكون أقدم . وبعد : فالسكون عدم الحركة . وكل حسّ فقوامه بالحركة ، وكل عقل فصورته بالسكون ، ونظامه بالهدوء ، وخاصته بالطمأنينة ، وأثره بالقرار ، وقوته باليقين . وكأنه من فيض العلة الأولى وجوده ، لأن هذا النعت لكل ما دونه بالاستعارة ، وله بالواجب والحقيقة . والسكون عند العقل عدم الحس ، والحركة عند الحس تأثير العقل . وأطال إطالة شدّ بها عنى أكثر قوله .

وسمعت أبا سليمان يقول ، ما هو جار مع هذا القول ورقد له ، قال : سكون العقل فى نوع الحركة ، وحركة الحس فى نوع السكون ، لأن حركة الحس إلى الاضمحلال والنكود ، وسكون العقل إلى الكمال والمحصول . وقال أيضا : إن الحركة التى يعتقد لها ضدّ ، أعنى السكون ، هى الحركة التى فى بلاد الحس . فأما الحركة التى للعقل بنوع السكون فلا ضدّ لها بوجه ، لأن العقل كل بمعنى واحد ، وواحد بمعنى كل ، وله هذا باشتمال العلة الأولى عليه ، واقتباسه منه . وقد وضح أن السكون عدم ما ، فكيف يكون هناك عدم ؟ كما وضح أن الحركة ها هنا عدم ما ، فكيف يكون ها هنا وجود ؟

قيل له فى هذا المكان : فالعالم ساكن أو متحرك ؟ قال : لو كان متحركاً الحركة المعروفة لقلق ، وارجحن ، ومال ، وتهافت . ولو كان ساكناً لبقى كذلك على حال . ولكنه متحرك حركة استدارة ، فلذلك ما يظن به السكون ، وساكن سكون

قابل للفيض ، ولذلك ما يظن به الحركة . فالتشوق حركة ما ولكن عقلية ، والدوام على التشوق سكون ما ولكن عقلى . فكل ما قد فاض من العلة الأولى ، وتقبله المعلول الثانى ، هو موجود على مراتبه المتباينة ، ودرجاته المختلفة ، بين الطرفين الأدنى والأقصى . ومع ذلك فقد وقف الجميع تجاه كل متصفح ، وقبالة كل باحث ، فليس يذهب من جميع ذلك شىء إلا سوء الاختيار ، وقلة الاقتداء بالأفاضل الأخيار . حفظك الله ، لو انتفعنا ببعض هذه الفقر الكريمة ، سعدنا ، ونلنا منيتنا ، فسل ربك ذلك بالتضرع إليه ، والخضوع بين يديه ، مع العبادة الدائمة ، والبحث اللطيف ، والتؤدة المعتادة ، والإحسان إلى البرية ، فإنك تعطى بغيتك ، وتبلغ غايتك ، وتنال سعادتك .

المقابلة الرابعة والثلاثون

الموجود !

سمعت البديهي يقول - وكان صاحب يحيى بن عدى دهرأ ، وهو حملنى بدعوته اللطيفة إلى مجلسه - : من البين أن الموجود على ضربين : موجود بالحس ، وموجود بالعقل . ولكل واحد من هذين الموجودين وجود ، بحسب ما هو به موجود ، إما حسى ، وإما عقلى ، فعلى هذا ، النفس لها عدم فى أحد الموجودين وهو الحسى ، ولها وجود فى القسم الآخر وهو عقلى . وقد كان الدليل على هذه الحال حاضراً فى هذا العالم ، وذلك أنها كانت تتفكر ، وتبسط ، وتعقل ، وتستبطن ، وتنظم المقدمات ، وتدل على ينابيع المعلومات ، وتعلو إلى غاية الغايات . وليس للحس معها شركة ، ولا له عندها معونة ومادة . فكيف لا تكون النفس التى هذا عنوان كتابتها ، وضريح كنايتها ، وفاضل عنايتها ، بعد مفارقة القشور والحواجز والحيطان والحواجب والغواشى والملابس ، عن الحس أغنى ، وبجوهرها أغلى ، وبخاصتها اسنى ، وهذه الأشياء عنها أبعد ، وعن شرفها أهبط ؟ وهل هذه الشهادة إلا عادلة ، وهذه البيئة إلا مقبولة ، وهذا الحكم إلا مرضى ، وهذا المثال إلا بين ؟ ثم قال : ولطائف الحكمة لا يصل إليها الجبس الجافى ، والغليظ الجلف ، والفدّم العبام ، والهلّابجة العلفوف . وإنما هى تعرض لمن صح ذهنه ، واتسع

فكره ، ودق بحثه ، ورق تصفحه ، واستقامت عادته ، واستنار عقله ، وحسن خلقه ، وعلت همته ، وخمد شره ، وغلب خيره ، وأصل رأيه ، وجاد تمييزه ، وعذب بيانه ، وقرب إيقانه .

قيل له : هذا عزيز جداً ؟ فقال : كما أن المتشبه به فى هذا عزيز جداً ، وانباع فى هذا الفن وتمطى ، وجاز كل غاية وتخطى . ومحصولى من ذلك ما سمعته الآن ، وترى . نفعنا الله به وحلانا بأزينه ، واسعدنا بقوله .

المقابلة الخامسة والخمسون والثلاثون

نعيم أهل الجنة

سمعت أبا إسحاق النصيبى المتكلم ، وكان من غلمان جعل ، يقول : ما اعجب أمر أهل الجنة ! قيل : وكيف ؟ قال : لانهم يبقون هناك لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح . أما تضيق صدورهم ؟ أما يملون ؟ أما يكلون ؟ أما يربؤون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة ، التى هى مشاكلة لأحوال البهيمة ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون ، وأخذ فى هذا وشبهه ، يبوج متعجباً ، مستعظماً . وكان يقول بتكافؤ الأدلة ، ويخفيه عن أكثر الناس ، ويفتح فيه ابن الخليل ويناقله عليه . ولعمري من طلب طمأنينة النفس ، ويقين القلب ، [ونعمة البال ، بطريقة أصحاب الجدل وأهل البلاء حل به البلاء ، وأحاط به الشقاء . والكلام كله جدل ، ودفاع ، وحيلة ، وإيهام ، وتشبيه ، وتمويه ، وترقيق ، وتزويق ، ومخاتلة ، وتورية ، وقشر بلال ، وأرض بلا ريع ، وطريق بلا منار ، وإسناد بلا متن ، وورق بلا ثمر . والمبتدئ فيه سفیه ، والمتوسط شاك ، والحاذق فيهم متهم . وفى الجملة : آفته عظيمة ، وفائده قليلة .

نعم ، فأعدت على أبى سليمان قوله بنصه ، وحكى له شمائله فيه . فقال فى الجواب : إنما غلب عليه هذا التعجب من جهة الحس ، لا من جهة شئ آخر . وهكذا كل ما فرض بالحس ، أو لحظ بالحس ، لأنه قد صح أن شأن الحس أن يورث الملل والكلال ، ويحمل على الضجر والانقطاع ، وعلى السامة والارتداع ، وهذا منه فى ذوى الإحساس ظاهر معروف ، وقائم موجود . وليس كذلك الأمر فى

المعاد ، إذا فرض من جهة العقل ، لأن العقل لا يعتريه الملل ، ولا تصيبه الكلفة ، ولا يمسه اللغوب ، ولا يناله الصمت ، ولا يتحيفه الضجر ، وهكذا حكمه في الشاهد الحاضر ، والعيان القاهر ، لولا عقل النصيبى ونظرائه . ألم يعلم أنه كان في هذه الدار ، على شوبها وفسادها وكدرها وتبورها ، كان العقل لا يكل معقوله أبداً ، ولا ينقضى منه ابداً البتة ، ولا يطلب الراحة عنه بوجه ، بل كان العقل إذا وجد معقوله ، وتوحد به ، صار هذا قد احيى ، لا يوجد بينهما بين بحال . فكيف إذا كان المنقلب إلى عالمه الصرف ، الذى لا حيلولة ولا تغير له ، وهو الوجود المحض ، ولأمر الصرف ، والشئ الذى كلما عرفته بالصفة بعد الصفة كان عنها أعلى ، وكلما أوضحته بالعبارة (بعد العبارة) كان عنها أخفى .

وأطال في هذا الفصل ، وعلقت من جميعه قدر ما قررته في هذا المكان . ولعلك تجد به ما أكون منصوراً فيه عندك ، غير ملوم على إساءتك . وفي الجملة القول في حصول النفس بعد خلع الحد الذى خص به الإنسان صعب . ولولا أمثلة توضح إيضاحاً يثق به الإنسان مرة بعد مرة لكان باب معرفة حالها قد ارتج ، والطريق قد سد . وقد بين هذا كله بالبرهان المنطقى فى مواضعه المعروفة إن كانت الثقة تقع كذلك . فأما هذا المقدار فإنه جرى فى عرض مقابسة هؤلاء المشائخ بينهم ، بالحديث والاسترسال . فليكن العذر فيه مقبولاً عندك بحسب الحال التى قلبت ظهرها لبطنها لك مرة بعد أخرى . فهذا الولوع منى بالاعتذار إحساس بالتقصير ، أما من جهتى فلسوء الرواية ، وأما من جهتك فلقللة الدراية . وأنا أسأل الله رب العالمين أن يفرغنى لبلوغ غاية هذا الأمر بقية عمرى ، فإنها فيما أخال قليلة . وماذا يرجو المرء بعد الالتفات إلى خمسين حجة ، قد أضاع أكثرها ، وقصر فى باقىها . فإذا أراد الله نجاة عبده تولاه بلطف من عنده .

المقابلة السابعة والثلاثون

الانسانية أفق

قال ارسطاطاليس ، فيما ترجم من كلامه عيسى بن زرعة المنطقى البغدادى أبو على : الإنسانية أفق ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع ، ودائر على مركزه ، إلا أن يكون موقوفاً بطبيعته مخلوطاً بأخلاق بهيمية . ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله

على غاربه ، وشتت هواه فى مرعاه ، ولم يضبط نفسه عما تدعو إليه بطبعه ، وكان لئن العريكة لاتباع الشهوات الردية ، فقد خرج عن أفقه ، وصار اذل من البهيمة ، بسوء إيثاره .

هذا آخر ما ترجمه من هذا الفصل . وهو كما ترى وعظ بحكمة ، وإيقاظ برأفة ، وتعليم بنصيحة ، وإرشاد ببيان . 'لوروى هذا للحسن البصرى ، ومنصور بن عمار ، وضربائهما ، ما زاد على ذلك .

المقايسة الثامنة والخمسون

سمعت أبا سليمان يقول : نحن نساق بالطبيعة إلى الموت ، ونساق بالعقل إلى الحياة . لان الذى هو بالطبيعة قد أحاطت به الضرورة ، والذى بالعقل قد أطاف به الاختيار ، ولهذا الفرق الذى استبان ، وجب أن نستسلم لأحدهما ، ونتحزم للآخر . ولا يصح الاستسلام إلا بطيب النفس فيما لا حيلة فى دفعه ، ولا يتم التحزم إلا بإيثار الجد فيما لا ينال به . والضرورى لا يسعى إليه ، لانه واصل إليك . والاختيار لا يكسل عنه ، لانه غير حاصل لديك . فانظر أين تضع توكلك فيما ليس إليك ، ومن أين تطلب ثمرة اجتهادك فيما هو متعلق بك . ثم قال : نحن نقضى ما علينا ، ونجتهد بما لدينا ، ويجرى الدهر بما شئنا أو أبينا .

وقال أيضا فى هذا الفصل ، على تقطع علائق الحديث ومجاذبة بعض الحاضرين : الانسان مسجون بالضرورة والاختيار . ومع ذاك فمعاده إلى غايته التى هو متوجه إليها من جهة اختياره ، ومتوجه نحوها من جهة اضطراره ، وهذه كالحيرة لا سبيل إلى محوها واستبانة كنهها . ويحق ما عرض لان الصورة عنونت الاختيار ، والهيولى رسمت الاضطرار ، والذى يكون بهما يصرف على جديلتها ووتيرتها . وإنما كان الاختيار منسوباً إلى الصورة بحق الشرف . وإنما كان الاضطرار منسوباً إلى الهيولى بحق الخسة . والإنسان كالاناء لهما ، ولالتباسهما به عرض هذا الصراخ والعويل ، واحتيج فيه إلى القال والقليل . والله المستعان ، فى كل ما عز وهان . فليكن هذا مقنعاً ، إن لم يكن شافياً .

المقابلة الرابعة بعد المائة

المحرك والمسكن

حضرت أبا سليمان يوماً ، فقليل له : إذا كان للأشياء محرك أول ، فلم لا يكون لها مسكن أول ، لان الأشياء تسكن تارة وتتحرك تارة أخرى ؟ فقال : الأشياء تتحرك ، كما قلت ، وتسكن . ومعنى تسكن أنها لا تتحرك ، فمحركها في الحقيقة هو مسكنها ، لأنها إليه تتحرك إذا تحركت ، وبه تسكن إذا سكنت ، ولو سكنت لغيره ، لتحركت بغيره ، ولو احتاجت في التحريك إلى محرك وفي التسكين إلى مسكن غيره ، لكأنت إما أن تألف السكون من جهة المسكن ، أو تألف الحركة من جهة المحرك ، فكأنت تستمر على الحركة أو على السكون ، أو كان المسكن لا يخليها تتحرك بالمحرك ، أو كان المحرك لا يدعها تسكن بالمسكن . والوحدة ، التي تكرر الأيماء إليها ، وترددت العبارة على ألطف الوجوه عنها في هذا الكتاب ، تأبى الوصف ، وتمتنع من هذه القسمة . وذلك أن المحرك هو المسكن ، والمسكن هو المحرك ، لا لانقسام الواحد الأول بين حالين مختلفين ، ولكن لانقسام الموجودات التي من شأنها الانفعال بالحركة مرة وبالسكون مرة . ولو كانت الأشياء تحتاج في كل عرض إلى من ينسب إليه لبطل التوحيد رأساً ، أعني أنها كانت إذا تضاممت تحتاج إلى ضام لها ، وإذا تبددت تحتاج إلى مبدد لها ، وعلى هذا سائر السمات . وليس يطرد هذا البحث ، ولا يلزم هذا الاعتراض ، بل المحرك الأول بالتحريك الأول على ما يليق به ، وهو الذي جمع وفرق ، وحرك وسكن ، وأعاد وأبدى ، وأفاد كل شيء ما كان محتملاً له غير باخس ولا ناقص ، وهذا كلام من سره التوحيد ، فليكن اكثارك له على قدره وقدر حفظك منه .

ثم قال : وعلى أن الأشياء ، بنظر آخر ، تنقسم انقساماً آخر ، وذلك أن منها ما سكونه طبيعة له . ومنها ما حركته طبيعة له . ومنها ما هو مهياً للسكون في وقت ، وللتحريك في وقت ، فلا يتحرك في وقت السكون ، ولا يسكن في وقت الحركة . فلو أن مجموع هذا الباب راجع إلى واحد متى تحرك شيء فإليه يتحرك ، ومتى سكن شيء ففيه يسكن ، ومتى لزم شيء نهجاً واحداً فله يلزم ، لكن الخلل يدخل ،

والنظام يزول ، والفساد يقع . فان ظن من لا إدراك له ، ولا معقول عنده ، مع هذا ، ان الخلل والفساد قد وقعا بما نشاهد من تغير الأمور ، وتصرف الدهور ، وتلف الانفس ، وزوال النعم ، وتنقص المرائر ، واعتراض الآفات والعلل . فليعلم ان هذا ليس من قبيل ما كنا فيه . وذلك ان كل من أوجب الحركة العلوية بالفعل ، أوجب الحركة السفلية بالانفعال . فبحسب ذلك تمزج هذه الاركان ، ويوجد منها اختلاف الشأن . ولو كان هذا العالم السفلى ثابتاً على صورة واحدة ، كالعالم العلوى الذى هو على صورة واحدة ، لكان لا خوف بين العالمين وكان لا يكون احد العالمين أولى بتحريك الآخر من العالم الآخر بتحريكه . فحينئذ كان يسقط العلوى والسفلى ، فلا يبين الفاعل من المنفعل ، ولا المؤثر من القابل ، ولا البسيط من المركب ، ولا البائد من الدائم ، ولا الصافى من المكدر ، ولا الطرى من الدائر . وهذا كلام مردول ، ليس عليه بهجة ولا نور . فبالواجب تحرك ما تحرك إلى واحد ، وسكن ما سكن بذلك الواحد ، لان هذه الفروع جارية على أصولها ، وهذه الأواخر تابعة لتلك الأوائل ، أعنى أن كل هوى مهياة لصورتها الخاصة لها ، وكل صورة مهياة لهيولها الخاصة لها ، فلا تعادى ولا فساد ، ولا تظالم ولا عناد ، فى هذه العناصر والجواهر ، ما دامت سالكة نحو غاياتها ، ساحبة لقوامها إلى مآلها .

قال : ومن ظن فى هذين العالمين غير ما هما عليه فهو فى وادى الوهم ، وأسر الحساب ، أو به غلبة من مرة ، أو فساد من خلط ، أو لعل تقليد من تقدمه قد اضله وأعماه وأصمه ، لان الحكمة بارزة ، والاساس محكم ، والقدرة ظاهرة ، والعجائب منتشرة ، والنظر مستخرج ، والعقل ممجد ، والنفس بحاث ، والطبيعة منصرفة ، والأمور موروثة ، والاسرار مكتومة ، والشواهد ناطقة ، والادلة حاضرة ، والاعلام منصوبة . انظر إلى الشمس فى اشراقها ، والنار فى احراقها ، والنجوم فى اثتلافها ، والبحور فى أعماقها ، والأرض فى نباتها والجبال فى انتصابها ، والادوية فى انسكابها ، وإلى الغرائب فى اضعافها واثنائها ، تعلم أن الذى هو واحد فى الحقيقة هو مالك لها ، وأولى بها ، وأقدر عليها ، واعلن عنها . وما أحسن ما قال بعض بلغاء الحكماء ، فإنه قال : لامر ما ربطت الجواهر بالاعراض ، ولامر ما تحركت الكواكب والافلاك ، ولامر ما تباينت العقول والازمان ، ولامر ما تصرفت الليالى والأيام ، ولامر

ما وضع هذا المهاد مركزاً لهذه الاوتاد ولأمر ما لا يحجز المعانى المحرك عن تقديره أحد . صدق هذا الحكيم الفاضل . الأمر كما ترى على سنن لا حب ، ودليل إما شاهد أو غائب ، إما من جهة الحس واما من جهة العقل . وقد بان بما تشقق القول فيه من هذه المقابلة ان المتحرك متى سلب الحركة ما حركة بقي ساكناً ، فليس يحتاج المتحرك الذى سكن فى الثانى إلى مسكن غير من سلبه الحركة التى سكن بعدها ، وليس المحرك مجبراً على التحريك فيحرك ولا يسكن ، بل هو واهب لحركة المتحرك ونازعها من الساكن ، فالمحرك هو بعينه المسكن ، والمتحرك بعينه هو الساكن . ومن كان طاهر النفس ، صافى القريحة ، صائب النظر ، قصد الجواب ، ولحظ الحق ، بدون ما التأم ها هنا من البيان ، ولم يحوج نفسه إلى شك مؤد إلى وحشة ، فالحق أنس كل عقل ، والباطل وحشة كل نفس .

المقابلة الخامسة بعد المائة

سمعت أبا سليمان يقول : لو لم يكن فى النوم من الحكمة إلا أنه شاهد على المعاد لكفى ، دع ما فيه من راحة الاعضاء ، وسكون الجرم ، واستجلاب القوة إليها بعد العياء والكد . ولو كان النوم حالاً مصمتة ، لا شعور لصاحبها من أولها إلى آخرها ، لكانت الوحشة داخلية ، والشك قائماً ، والتهمة واقعة ، ولكنها حال يتزود الإنسان منها أموراً غريبة ، وأحوالاً عجيبة ، ويتلقف منها غيباً كثيراً ، ويستقبل منها عياناً ظاهراً ، فهل هذا الرمز إلا على ما سلف القول فيه من ثبات النفس على حال واحد لا تنام ، والنوم شبيه بالموت ، فاذا لا تموت ، لان الموت شبيه بالنوم . فالحالان جميعاً قد زلتا عنها ، وحطتا دونها .

وفاتحة هذه المقابلة مدخولة ، ولكن الشيخ كذا قال ، والاعتراض عليه مع علو رتبته فى الحكمة ، وبجميل ظننا به فى الاجابة والإصابة ، ليس من حقه علينا ، ولا مما يحمد فى الحال التى تجمعنا . أعنى أنه كان الأولى أن يقول : لو لم يكن فى النوم من الحكمة إلا أنه راحة لأبداننا ، وجمام لأرواحنا ، وتخفيف عنا أثقال ما عملنا فى اليقظة بضروب التصرف وأصناف الحركة ، لكفى . دع ما فيه من الشاهد على المعاد الذى عنه نبحت مجتهدين ، وعليه نكون مضطرين ، ومن أجله نفث ما فى صدورنا متروحين .

وما أحق ، أكرمك الله ، هذه الغاية بالسعى إليها ، والتشمير لها ، وبذل كل موجود ومذخور دونها ، والاستعانة بكل صاحب وقريب فيها ، واستخلاص الروية في تحصيل حقيقتها ، ورفض الراحة والدعة عند فرصة تلوح من ناحيتها . وبالحق وجب هذا الاجتهاد والاحتشاد ، وهذا التحفظ والتيقظ ، وهذا التنادى والتحارس ، وهذا التبارى والتنافس ، وهذا الغدو والرواح ، وهذا الثبوت والسياح ، لان الإنسان في هذا العالم ، وان بلغ المنتهى في أمانى نفسه من كل علم كالهندسة والحساب والنجوم والطب وسائر أجزاء الفلسفة وكذلك ان أشرف على غاية كل علم يتعلق بالأديان والآراء والمقالات والنحل ، فان آخر مطالبه أن يعلم معاده ، ويعرف منقلبه . وكذلك أيضاً إذا بلغ في الدنيا كل حال عليّة ، وكل دولة سنية ، من المال والثروة واليسار والعزة والأمر والنهي والتأييد على أصناف البرية ، ونيل كل شهوة ولذة ، وبلوغ كل إرادة وأمنية ، فان آخر ما يقترحه أن يقف على ما يتحول إليه ، ويصير مرتهاً به ، ومفكوكاً منه . فقد صار النظر في هذه الخاصة والخالصة من أشرف ما في قوة الإنسان ، وأعلى ما في همته ، وأعظم فوائده . ولغلبة هذا المطلوب على جميع الخلائق حاموا حومه ، وأرادوا مراده ، ووردوا شرائعه ، وسلكوا شوارعه ، وعلوا روايه ، وخاضوا سوايه وروايه ، حتى اتفقوا على إثبات هذه الغاية لشدة حاجتهم إليها ، وتوقد حسرتهم عليها . هذا مع اختلافهم في تحقيقها على ما ينبغي لها ، حتى هتف قوم بما ألقى على ألسنة الأنبياء . وهينم قوم بما رأوه من التناسخ في الأدوار ، وتخافت قوم آخرون بأمور تبهرجها معوز ، والإطناب في احصائها متعب . فاستخلص ، أكرمك الله ، نيتك وعزيمتك في البحث عن هذه الغاية ، مع الرفق الذى كل من لابسه ويصير صلة إلى ما طلب منه فان المكث تحت هذا السقف ، على هذا الظهر ، يسير ، والتنقل وشيك ، والحاجة إلى العناد ماسة ، والعائق ، مع هذا كله ، عظيم ، .

الإشارات الإلهية

أخيرا ، يقترب طرفا الدائرة ،
توشك الرحلة على الاكتمال ،
ويطلق التوحيدى زفراته الحرى فى
هذا النص الرائع الذى لا أجد له
مثيلا فى النثر العربى ، ومن أصعب
الأمور اقتطاع جزء منه ، وفصل فقرة
عن سياقها ، وأعترف اننى حرت
طويلا ، ماذا أنا صانع بهذه الذروة ؟
وأخيرا استقر أمرى على أن أرسل
إشارة تدل على الإشارات ، إشارة
تكون من ومضتين ، الأولى تتضمن
المفتتح ، والثانية رسالة الغربة
كاملة . وآمل فى اصدار طبعة شعبية
ميسرة من هذا النص الكامل .

بسم الله الرحمن الرحيم

ميمون الابتداء مبارك الانتهاء

رسالة (١)

اللَّهُمَّ أَنَا نَسْأَلُكَ ، مَا نَسْأَلُ ، لَا عَنْ ثَقَةٍ بِيَاضٍ وَجُوهِنَا عِنْدَكَ ، وَحُسْنِ أَعْمَالِنَا مَعَكَ ، وَسَوَالِفِ إِحْسَانِنَا قَبْلَكَ ؛ وَلَكِنْ عَنْ ثَقَةٍ بِكَرَمِكَ الْفَائِضِ ، وَطَمَعاً فِي رَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ . نَعَمْ ، وَعَنْ تَوْحِيدٍ لَا يَشُوبُهُ إِشْرَاكٌ ، وَمَعْرِفَةٍ لَا يَخَالِطُهَا إِنكَارٌ . وَإِنْ كَانَتْ أَعْمَارُنَا قَاصِرَةً عَنْ غَايَاتِ حَقَائِقِ التَّوْحِيدِ وَالْمَعْرِفَةِ ، فَنَسْأَلُكَ أَنْ لَا تَرُدَّ عَلَيْنَا هَذِهِ الثَّقَةَ بِكَ ، فَتُشِمَّتَ بِنَا مِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ هَذِهِ الْوَسِيلَةُ إِلَيْكَ . يَا حَافِظَ الْأَسْرَارِ ، وَيَا مُسْبِلَ الْأَسْتَارِ ، وَيَا وَاهِبَ الْأَعْمَارِ ، وَيَا مُنْشِئَ الْأَخْبَارِ ، وَيَا مُوَلِّجَ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ ، وَيَا مُصَافِيَ الْأَخْيَارِ ، وَيَا مُدَارِيَ الْأَشْرَارِ ، وَيَا مُنْقِذَ الْأَبْرَارِ مِنَ النَّارِ وَالْعَارِ ! عُدْ عَلَيْنَا بِصَفْحِكَ عَنْ زَلَّاتِنَا ، وَأَنْعِشْنَا عِنْدَ تَتَابُعِ صَرَغَاتِنَا ، وَحِطْ^(١) حَالَنَا مَعَكَ فِي اخْتِلَافِ سَكْرَاتِنَا وَصَحَوَاتِنَا . وَكُنْ لَنَا ، وَإِنْ لَمْ نَكُنْ لَأَنْفُسِنَا ، لِأَنَّكَ أَوْلَى مِنَّا . وَإِذَا خِفْنَا مِنْكَ ، فَاْمُرْجْ خَوْفَنَا مِنْكَ بِرَجَائِنَا فِيكَ . وَإِذَا غَلَبَ عَلَيْنَا يَأْسُنَا مِنْكَ ، فَتَلَقَّهِ بِالْأَمَلِ فِيكَ . بَشِّرْنَا ، عِنْدَ تَوَجُّهِنَا نَحْوَكَ ، بِالْوَصُولِ إِلَيْكَ . مَتَّعْنَا بِالنَّظَرِ إِلَى نُورِ وَجْهِكَ . أَسْبِغْ عَلَيْنَا نِعْمَتَكَ بِمَا وَهَبْتَ لَنَا مِنْ تَوْحِيدِكَ . وَلَا تَهْجِرْنَا بَعْدَ وَصْلِكَ ، وَلَا تُبْعِدْنَا بَعْدَ قُرْبِكَ ، وَلَا تُكْرِبْنَا بَعْدَ رَوْحِكَ^(٢) . قَدْ عَادَيْنَا أَعْدَاءَكَ فِيكَ ، فَلَا تُشْمِتْهُمْ بِنَا لِتَقْصِيرِنَا فِي حَقِّكَ ؛ وَوَالَيْنَا أَصْفِيََاءَكَ لَكَ ، فَلَا تُوَحِّشْنَا مِنْهُمْ لِسَهْوِنَا عَنْ وَاجِبِكَ قَدْ كَدَرْنَا^(٣) لَكَ فَارْحَنَا بِكَ ؛ وَرَفَعْنَا أَيْدِيَنَا إِلَيْكَ فَاْمَلَأْهَا مِنْ بَرِّكَ وَلَطْفِكَ . ا هـ

إِذَا زَحَرَ بِكَ وَادِي الدَّعَاءِ فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُرَادٌ بِالْإِجَابَةِ وَإِذَا تَابَعَ لَكَ الْمَزِيدُ فِي النِّعْمَةِ فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُعَرَّضٌ لِلشُّكْرِ وَإِذَا اكْتَنَفَكَ الْكَرْبُ^(٤) مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُطَالِبٌ بِالتَّصْفِيَةِ . وَإِذَا تَوَالَى عَلَيْكَ هَاتِفُ الْعِلْمِ^(٥) فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُحَثُّوْثٌ عَلَى الْعَمَلِ . وَإِذَا أَشْهَدْتَ غَيْبَ حَالِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَخْصُوصٌ بِالْيَقِظَةِ . وَإِذَا غُيِّبْتَ عَنْ شَاهِدِ أَمْرِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ غَيْرُ قَابِلٍ لَوَاقِعِ الْمَوْعِظَةِ ؛ وَإِذَا اسْتَوْحِشْتَ مِنْ بَقَاعِ الذِّكْرِ ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ

(١) ص : خطر .

(٢) الروح بفتح الراء : الراحة والنعيم .

(٣) خرم في الأصل اعلنها ، اكملناه من « الملخص » .

(٤) أى : ألق على مُصَابِك .

معزول عن الولاية . وإذا غميت عن الاعتبار بآثار السلف ، فاعلم أنك مخلى من
يُمن الهداية . وإذا استحسنيت القول واستثقلت العمل ، فاعلم أنك بعيد من التوفيق
والعناية اهـ .

يا هذا ! إن كنت ثاكلاً فَنَحْ عَلَى ما أُصِبتَ به ؛ وإن كنت مكروباً بالسر ، فُجَحْ ،
فلعلك تشفى غليلك فيه ؛ وإن كنت طالباً فِجْدٌ ، فعساك تصل إلى يَغِيَتِكَ منه ؛ وإن
كنت واجداً فاحفظ ، فإنك غير واثق من ثبات ما ظفرت به . وتَلَطَّفْ ، جهْدَكَ ، حتى
تقف على مكنون أمرِكَ ، فلعلك مُسْتَدْرِجٌ من حيث لا تعلم ، ولعلك مرادٌ
بالخصوصية وأنت مُسْتَكْتَمٌ . زَيْن وجهك بالصورة البهية . حَسُنْ أَثَرُكَ بالنية القوية
التقية . أنت في مناط الربوبية فلا تهبط إلى قاع العبودية . صَانُوكَ فلا تَبْدُلْ (١) .
أَعَزُّوكَ ، فلا تَذِلْ . أَعْلُوكَ ، فلا تَسْفُلْ . غَسْلُوكَ ، فلا تَتَوَسَّخْ . نَقُّوكَ ،
فلا تَتَلَطَّخْ . يَسِّرُوكَ فلا تَتَعَسَّرْ . قَرِّبُوكَ ، فلا تَتَبَاعِدْ . أَحْبُبُوكَ ، فلا تَتَبَغَّضْ . جَدُّوا
بك ، فلا تَكْسَلْ . استخدموك ، فلا تَتَكَبَّلْ . أَعْتَقُوكَ ، فلا تَتَعَبَّدْ . أَقَالُوكَ ،
فلا تَتَعَثَّرْ . دَعُوكَ ، فلا تَتَأَخَّرْ . نَسِبُوكَ ، فلا تَجْحَدْ . جَبْرُوكَ ، فلا تَتَكَسَّرْ .
أَنْبَتُوكَ ، فلا تَذُو . حَسَّنُوكَ ، فلا تَقُبِّحْ . حَلَّوْكَ ، فلا تَسْمُجْ . عَلَّمُوكَ ، فلا تَجْهَلْ .
نَوَّهُوا بك ، فلا تَخْمَلْ . قَوْمُوكَ ، فلا تَضْعَفْ . لَطْفُوكَ ، فلا تَكْثُفْ . أَسْرُوكَ ،
فلا تَتَنَكِّشْ . انظُرُوكَ ، فلا تَتَوَقَّفْ . أَمَّنُوكَ ، فلا تَتَخَوَّفْ . قَوْمُوكَ ،
فلا تَتَعَقَّفْ (٢) . نَدُّوكَ ، فلا تَتَشَفَّفْ .

يا هذا ! إنك إن عرفت هذه اللغة ، واستخرجت حالك من هذا الديوان ،
وَحَصُلْتَ مَالِكَ وَعَلَيْكَ مِنْ هَذَا الْحِسَابِ ، أَوْشَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَجْدُوبِينَ إِلَى
حُظُوظِهِمْ ، وَالرَّاسِخِينَ فِي عِلْمِهِمْ ، وَالْخَالِدِينَ فِي نِعْمَتِهِمْ . وإن كنت عن هذه
الكنایات غَمِيًّا ، وَعَنْ هَذِهِ الْإِشَارَاتِ أَعْجَمِيًّا ، طَاحَتْ بِكَ الطَّوَائِفُ ، وَنَاحَتْ عَلَيْكَ
النَّوَائِحُ ، وَلَمْ تَوْجَدْ فِي زُمْرَةِ الْغَوَادِي وَالرَّوَائِحِ . مَطَرَتْ سَمَاءُ الْمَحَبَّةِ ، فَلَمْ تَبْتَلْ
بِقَطْرَةٍ مِنْ قَطَرَاتِهَا . وَهَبَّتْ رِيحُ الْوِلَايَةِ ، فَلَمْ تَعْبِقْ بِنَسِيمِ مِنْ نَسَائِمِهَا . وَغَنَّتْ ضَمَائِرُ
الْحِكَمِ ، فَلَمْ تَطْرِبْ عَلَى لَحْنٍ مِنْ لَحُونِهَا . وَجُلِّيتْ عِرَائِسُ الْهَدْيِ فَلَمْ تَتَشَبَّثْ بِذِيلِ

(١) تَبْدُلْ وَابْتَدُلْ : تَرِكَ الْإِحْتِشَامَ وَالتَّصَوُّنَ .

(٢) انْعَقَفَ الشَّيْءُ وَتَعَقَّفَ : تَعَوَّجَ وَانْعَطَفَ .

من أذيالٍ واحدةٍ منها . فياجافى الطبع ، ويا قاسى القلب ، وياسىء الاختيار ! كيف
يطمع الطامع فى رُشدك ، وهذا نظرك لنفسك ! أشهد أنك غيبين^(١) الرأى ، مسلوب
التوفيق . على أنه قد بقى من شمسك شفى^(٢) ، فإن تداركت يقينك رجوتُ لك أن
نسلو عن فائيتك ، وإن جَنَحْتَ إلى التوانى وذهبتَ فى آفاق الأمانى لم تَرثُ من حالك
إلا حسرةً ، ولم تمضغ بفمك إلا جمرةً . يا هذا ! خَفُضْ أَسَى عما ساءك طُلأبه :

ما كلُّ شائِمٍ بارق يُسْقاه !

قد يَسْلَمُ المرءُ مما قد يحاذره وقد يصير إلى المكروه بالحذر
وما هو كائنٌ ، وإن استَظَلْنَا إليه النَّهْيُ^(٣) ، يوشك أن يكونا
ما خَطُبُ من حُرِمِ الإرادة وإدعاً خَطُبُ الذي حُرِمِ الإرادة جاهدا

يا هذا ! خُذْ من التصريح ما يكون بياناً لك فى التعريض ؛ وَخَصِّلْ من التعريض
ما يكون زيادة لك فى التصريح ، واستيقن أنه لا حرف ولا كلمة ، ولا سِمَة
ولا علامة ، ولا اسم ولا رسم ، ولا ألف ولا ياء ، إلّا وفى مضمونه آية تدل على سرٍ
مَطْوَى وعَلَانِيَة منشورة ، وقدره بادية وحكمة محبورة ، وإلهية لا ثقة وعبودية شائقة ،
وخافية مشوقة وبادية معوقة . فاصرف زمانك كله فى فُلَى هذه الأنباء^(٤) واستنباط هذه
الأنباء . على أن زمانك أقصر من ذاك ، أعنى أن يطول لك حتى تقف على كنه
حقيقته ، على ما فى باطن ذرة من هذه القصة . وهذه الإشارة ، وإن كانت محدثة
للناس فى النفس الضعيفة ، فإنها مُبَشِّرَة بعظم الحال فى الغاية المنيفة . فائْتَرِّزْ ،
حاطك الله ، بالانكماش ؛ وارْتَدِّ بالجهد ، واكتمل بالسهر ، واغْرَ^(٥) بالفكر ، وحَرِّمْ
على بالك أن يَلْمَ به الهوينا وَالْفَتور . وإذا حَلَمَصَ النوم بمرادك ، فتعلّل به فى

(١) الغيبين : الضعيف الرأى .

(٢) شَفِيَتْ الشمسُ : تَشْفَى شفى : غَرَبَتْ .

(٣) استهلكت النهى : النهى فى الوصول والبلوغ ، واستحلت أى وجدناه طويلاً ، أى وجدنا الوصول إليه
عزيزاً . والبيت للبحترى ، وقد ورد ديوانه : « النهج » (ط ص ١٩٢ ش ، طبع الاستانة سنة ١٣٠٠ هـ)

(٤) لعلها جمع (لم يرد فى لسان العرب) ابنة ، وهى العيب . والجمع الوارد هو ابن .

(٥) غَرَى بالشئ يَغْرِى وغَرَى به غَرَّ وغَرَاء : أولع به من حيث لا يحمله عليه حامل .

اليقظة . وزن واتزن ، واخضع واستكن ، وتمهل واستمكن ، وانظر واستحسن ،
وسل واستيسن ، وخف واستامن ، وقر واطمانن ؛ وارجع في كل حادث فادح ، وفي
كل مغلق وفاتح ، إلى ربك ، بل كن معه وعنده حتى لا تحتاج إلى الرجوع إليه .
وإذا وردته فلا تصدر عنه ، وإذا صدرت عنه فلا تنسه .

يا هذا ! الحديث ذو شجون ، والقلب طافح بسوء الظنون بما لعله يكون أو
لا يكون . فكّر يخالطه جهل وجنون ، ويفارقه علم ويقين . لكن بقى أن تملك زمام
الفكر كما تملك عنان الذكر ، لأن القلب هدف ، والهدف لا يزول عن تجاه الرامي
ولا ينحرف ، إلى غير جهة المسدد . فمن لك الآن بقوة بها تدبر فكرك ، أو تكرر
ذكرك ، أو تأمن في أضعاف مكرك ونكرك ! إنك ربما أعوججت في طي مستقيم ،
واستقيمت في المعوج . وذلك لأنك مملوك ، والمملوك لا يكون مالكا ، والأول
لا يكون ثانياً ، والصاعد لا يكون نازلاً .

هذا ، فديتك ! نبأ غريب استنبط من الغيب المكنون ، والسر المخزون . فإذا
كان هذا خبراً عن بعض ما تراه العين ، فأين تجدك فيما يجده القلب ! ثم أين أنت
عما وراء ذلك مما لا يبدو إلا بإذن الحق الذي أخفى الخوافي في البوادي ، وأبدى
البوادي في الخوافي ، ثم حكم بالبوادي على أنها الخوافي ، وعكس الخوافي على
أنها البوادي ، لتكون ملكوته محفوفة بالعبرة بعد العبارة ، وليقلب المتصفحون عنها
بالحسرة بعد الحسرة ؟ ذلك سر لا سبيل إلى السؤال عنه ، لأنه جرأة عليه ، والجرأة
موجبة للمقت ، والمقت باب إلى السخط ، والسخط جالب للبعد . ولا سبيل أيضاً
إلى الجواب عنه ، لأنه محو لكل ، وتطويع للعقل ، ولبس^(١) على التحصيل
وطمس على الدليل ، واغتراب في الوطن ، واجتذاب للحزن ، واختلاط للقيح في
الحسن . فسبحان من وارى منافع ما جهل من سره في عرض^(٢) ما عرف من
علانيته ! وسبحان من لو شاء لأرانا في الذي أرانا غير ما أرانا ، وأتانا من لدنه سوى
ما أتانا ! فعلنا بذلك كنا على سكون لا تعتوره حركة ، أو على حركة لا يعتقبها^(٣)

(١) من : لبس عليه الامر : خلطه وجعله مشتبهاً بغيره .

(٢) عرض : ناحية .

(٣) يخلقها .

سكون . فإن الحركة والسكون ، فيما كان ويكون ، قد أبلينا جِدَّتَنَا^(١) ، وأكلًا جِدَّتَنَا ، وأضعفنا شِدَّتَنَا ، وأفنيا عُدَّتَنَا . فلم يبق منا إلَّا ذَمَاءُ^(٢) ينبض في حُشاشاتٍ مضمحلة ، لا يطرقها طارق الا بِجِدْثَانٍ غريب ، والأحوال مُرادة ، والأوقات مُبادة . فلا حسيْسَ^(٣) فُتِعِلُّ به ، ولا أنيسَ فيستراح إليه . إنما هو رنين وأنين ، وحنين وزفرات ، تُسَخِّنُ^(٤) العيون ، وتخيلُ الظنون ، وتُبْرِزُ الفنون من ملاحظِ العيون . فأين الأمان ، وإنا^(٥) أتينا من المأمن ! وأين المطلوب ، وإنا عطينا في الطلب ! وكيف الطلب ، وإنا هلكنا بالوجدان ! وَمَنْ لَنَا بالخبر ، وقد بُؤْنَا بالآثر ! وهل لنا من مناص ، وقد أُخِذْنَا بالنواصي ! هيهات ! اليأسُ مما لا ينال احدى الراحتين ، والسُّلُوةُ عما لا يُدْرِكُ إحدى العاقبتين . بلى ! إِنْ صَدَقَ الْفَالُ وَصَحَّ الزَّجْرُ ، وصادف الإلهام حقًا ، وارتفع الخُلُقُ عن أن يكون خَلْقًا^(٦) ، فلعلَّ نسيم الأشجار يعبث بهذه الأرواح المتهتكة ، ويتميز بهذه الصفات المشتركة ، فنَكُرُّ على خزائن الغيب بالنَّهَبِ ، ونُوَقِّحُ وجوهنا بالاعتذار ، ونخلع أرساننا^(٧) بالتملق ، ونسترد حقوقنا المغصوبة ، ونتبادر إلى أعلامنا المنصوبة ، ثم نجلس على منابر الرضوان مترملين في عِطَافِ أولياء الحق ، نحمد على آفاتٍ زالت طالما خُرِجَتْ الصدورُ بها ، ونقترح أمانِيَّ طالما طَمَحَتِ العيون إليها .

فإذا كان ذلك وعن قريب يكون ذلك ونشاهد ما هنالك ، فيالك من رَوْحٍ لا كرب بعده ، ويالك من صَفْوٍ لا كدر معه ، ويالك من وَصْلٍ لا هَجْرٍ يشيِّعه ، ويالك من قَبُولٍ لا رَدٍّ يريبه ! اللهم لا تحرمنا هذه المُقَامَةَ^(٨) في دار المقام ، فإنك أنطقتنا بوصفها ، وشوقتنا إليها بذكرها . فبِحُرْمَةِ إِنطَاقِكَ لَنَا بوصفها ، وبذمام تشويقِكَ إِيَّانَا إِيَّاهَا ، إلَّا أَنْعَمْتَ بَالْنَا بالقرار معك ، وأقررت أعيننا بالنظر إلى وجهك ، وحققت آمالنا في ذُرَى دار عَزِّكَ ، وصدقت رجاءنا بما أسلفتنا من فضلك ، فإنك الجواد إذا

(١) الجُدَّة : بكسر الجيم : ضد البلى .

(٢) ذَمَاء : بقية النَّفْس .

(٣) حسيِس : صوت خفى .

(٤) أسخن الله عينه وبعينه : أى أنزل ما يبكيه . وعكسه : أقر الله عينه .

(٥) ص : ابن .

(٦) خَلْقًا : أى فاسدا .

(٧) جمع رُشْن : حبل ، أى قِوَانَا .

(٨) المقامة (بضم الميم الاولى) : الإقامة .

لم تُسأل ، فكيف إذا سُئِلْتَ ! والمنعِمُ إذا لم تُطالب ، فكيف إذا طولبت !
يا هذا ! قد اخترط الحق لساناً لا يمرُّ بصَدْعٍ إلا شَعَبَهُ^(١) ولا يُلْمُ بقلْبٍ
إلا رَغَبَهُ^(٢) ، ولا يُطِلُّ على فاسدٍ إلا أصلحه ، ولا يقرع باباً إلا فتحه ، ولا يَبِلُ^(٣)
على نبتٍ إلا اعلولب^(٤) ، ولا يجتاز بوادٍ إلا اعشوشب . فأصِخْ إليه ، واملاً عيانك
منه ، فليس في كل حين تُحال عن الماء والطين ، ولا في كل زمان تُخصُّ بالأمان ،
ولا في كل بقعة تؤهل للرفعة ، ولا في كل وقت تُناغى بلحن مُطرب ، أو تُناجى
بلسان مُعرب . فالبدار البدار ، إلى محل الأبرار الأخيار ، الذين يجلو بصحبته
الحنظل الحولى^(٥) ، ويخف برؤيتهم الخفوف عن هذا العالم السفلى إلى محل
ذلك العلوى . ومتى اتهمتنى^(٦) في هذه النصيحة فشاوِرْ عقلك وإلا فاستنصح أوثق
الناس في نفسك ، وأوضحهم سِمةً في الشفقة عليك . وإلا فقدّم الاستخارة لله عز
وجل ، فإنه إذا استهدى هدى ، وإذا استنصح أسدى ، وإذا فزع إليه كفّل ، وإذا
توكل عليه سهّل ، وإذا طلب ما عنده جاد ، وإذا سئل ثانياً وثالثاً أعاد ؛ لا يؤوده^(٧)
شيء ، ولا يعوزه شيء ، ولا يفوته شيء . وكيف يؤوده أو يعوزه أو يفوته وهو أول كل
شيء وآخره ، ومُبرِزه ومُظهِره ومُسِرِه ومُضْمِرِه !
ذلك الله رب العالمين .

يا هذا ! دارت اللغات على مراكز المعاني بفوت المُدرك ، وإدراك الفائت ،
بلا رسم معهود ولا أثر مشهود ولا دليل قاطع ورائد صادق ، بل طسم وقسم وحسم ؛
إن جهل فبالواجب ، وإن علم فهو العَجَب العاجب . اللهم إنا في سكرة من
وارداتك ، وفي حيرة من مجارى أقدارك ؛ وليتك إذ لم تُخصّنا بانكشاف العين ، لم
تشرنا التمنى لما لم تجرِبِه مشيئتكَ ، ولم يسبق في معلومك .
إلهنا ! قُدنا بزمام طاعتك إلى كريم حضرتك ، واعصمنا من كيد كل كائد لنا من

(١) شَعَبَ من باب قطع : جمع ، فرق ، أصلح ، أفسد - ضد .

(٢) رَغَبَهُ : كسر رُغْبَهُ وإزاله .

(٣) وَبِل ، يَبِل : امطر الوبل وهو شديد المطر .

(٤) ماخوذة على وزن اعشوشب من غَلَبَ : من باب نصر : اشتد وقسا .

(٥) أى الذى بقى عاماً ، ولعله يكون شديد المرارة .

(٦) اتهمه بكذا اتهاماً : أدخل عليه التُّهْمَة (كهمة) . أى ما يتهم عليه .

(٧) اد ، يؤود : أعيا ، أعجز .

أجلك ، وأُمَحُّ أَسْمَاءَنَا مِنْ دِيْوَانِ غَيْرِكَ ، وَاكْتَبْنَا فِي الْمُنِيِّينَ (١) إِلَيْكَ ، الذَّاكِرِينَ لَكَ ، الْمُفْتَخِرِينَ بِكَ ، الْمُبْتَهِجِينَ بِقُرْبِكَ ، الْمَغْمُورِينَ بِعِطَائِكَ ، الْمَذْكُورِينَ بِحَضْرَتِكَ ، الْمُتَوَجِّينَ بِتَاجِ صِفَوَتِكَ ، الْمَخْصُوصِينَ بِالْإِطْلَاعِ عَلَى إِسْرَارِكَ وَإِعْلَانِكَ ، الْمُطْمَئِنِّينَ عَلَى بَسَاطَةِ خَبْرِكَ وَعِيَانِكَ ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ !

رسالة الغربة (٢)

سَأَلْتَنِي - رَفَقَ اللَّهُ بِكَ ، وَعَظَفَ عَلَى قَلْبِكَ - أَنْ أَذْكَرَ لَكَ الْغَرِيبَ وَمَحْنَهُ ، وَأَصِفَ لَكَ الْغُرْبَةَ وَعَجَائِبَهَا ، وَأَمُرَّ فِي أَضْعَافِ ذَلِكَ بِإِسْرَارِ لَطِيفَةٍ وَمَعَانٍ شَرِيفَةٍ ، إِمَّا مُعَرِّضًا ، وَإِمَّا مُصَرِّحًا ، وَإِمَّا مُبْعَدًا ، وَإِمَّا مُقَرَّبًا . فَكُنْتُ عَلَى أَنْ أَجِيبَكَ إِلَى ذَلِكَ . ثُمَّ إِنِّي وَجَدْتُ فِي حَالِي شَاغِلًا عَنْكَ ، وَحَائِلًا دُونَكَ ، وَمُفَرَّقًا بَيْنِي وَبَيْنَكَ . وَكَيْفَ أَخْفِضُ الْكَلَامَ الْآنَ وَأَرْفَعُ ، وَمَا الَّذِي أَقُولُ وَأَصْنَعُ ، وَبِمَاذَا أَصْبِرُ ، وَعَلَى مَاذَا أَجْزَعُ ؟ وَعَلَى الْعَلَاتِ الَّتِي وَصَفْتَهَا وَالْقَوَارِفِ الَّتِي سَتَرْتَهَا أَقُولُ :

إِنَّ الْغَرِيبَ بِحَيْثُ مَا حَظَّتْ رَكَائِبُهُ ذَلِيلٌ
وَيَدُ الْغَرِيبِ قَصِيرَةٌ وَلِسَانُهُ أَبْدَأُ كَلِيلٌ
وَالنَّاسُ يَنْصَرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَنَاصِرُهُ قَلِيلٌ
وَقَالَ آخَرُ :

وَمَا جَزَعًا مِنْ خَشْيَةِ الْبَيْنِ أَخْضَلْتُ (٣) دُمُوعِي ، وَلَكِنَّ الْغَرِيبَ غَرِيبٌ يَا هَذَا ! هَذَا وَصَفُ غَرِيبٍ نَأَى عَنْ وَطَنِ بُنَى بِالمَاءِ وَالطِّينِ ، وَبَعُدَ عَنْ الْأَفْ لِهْ عَهْدُهُمِ الْخَشُونَةِ وَاللَّيْنِ ، وَلَعَلَّهُ عَاقَرَهُمُ الْكَأْسُ بَيْنَ الْغُدْرَانِ وَالرِّيَاضِ ، وَاجْتَلَى بَعِينَهُ مُحَاسِنُ الْحَدَقِ الْمِرَاضِ ؛ ثُمَّ إِنْ كَانَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى الذَّهَابِ وَالْانْقِرَاضِ ، فَأَيْنَ أَنْتَ عَنْ قَرِيبٍ قَدْ طَالَتْ غُرْبَتُهُ فِي وَطْنِهِ ، وَقَلَّ حَظُّهُ وَنَصِيبُهُ مِنْ حَبِيبِهِ وَسَكَنِهِ ؟ ! وَأَيْنَ أَنْتَ عَنْ غَرِيبٍ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى الْأَوْطَانِ ، وَلَا طَاقَةَ بِهِ عَلَى الْإِسْتِيطَانِ ؟ ! قَدْ عَلَاهُ الشَّحُوبُ وَهُوَ فِي كَيِّنٍ ، وَغَلَبَهُ الْحُزْنُ حَتَّى صَارَ كَأَنَّهُ شَنْ (٤) . إِنْ نَطَقَ نَطَقَ حُزْنَانِ

(١) أَنَابَ إِلَيْهِ : رَجَعَ ، عَادَ ، التَّجَا .

(٢) عَنَوَانَ الرِّسَالَةِ فِي النِّصِّ الْأَصْلِيِّ رِسَالَةُ (بَا) . وَالْعَنَوَانُ مِنْ وَضْعِنَا .

(٣) خَضِلَ (مِنْ بَابِ فَرَحٍ) خَضَلًا ، وَأَخْضَلَ وَأَخْضَلَ وَأَخْضُوضِلَ : نَدَى وَابْتَلَى ، فَهُوَ خَضِلٌ وَخَاضِلٌ .

(٤) الشَّنُّ (وَبِهَاءٍ) الْقُرْبَةُ الْخَلْقُ الصَّغِيرَةُ ، وَالْجَمْعُ : شَنَانٌ .

منقطعا ، وإن سكت سكت حيران مرتدعا ؛ وإن قرب قرب خاضعا ، وإن بُعد بُعد خاشعا ، وإن ظهر ظهر ذليلا ، وإن توارى توارى عليلا ؛ وإن طلب طلب واليأس غالب عليه ، وإن أمسك أمسك والبلاء قاصد إليه ؛ وإن أصبح أصبح حائل اللون من وساوس الفكر ، وإن أمسى أمسى مُتَّهَب السر من هَوَاتك السُّر ؛ وإن قال قال هائبا ، وإن سكت سكت خائبا ؛ قد أكله الخمول ، ومَصَّهُ الذبول ، وحالفه النحول ؛ لا يتمنى إلا على بعض بنى جنسه ، حتى يفضى إليه بكامينات نفسه ؛ ويتعلل برؤية طلعتة ، ويتذكر لمشاهدته قديم لَوَّعته ؛ فيثر الدموع على صحن خده ، طالبا للراحة من كده .

وقد قيل : الغريب مَنْ جَفَاه الحبيب . وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حابه الشريب^(١) ، بل الغريب مَنْ نُودى مِنْ قريب ، بل الغريب من هو في غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . فإن كان هذا صحيحا ، فتعال حتى نبكى على حالٍ أحدثت هذه النفوة ، وأورثت هذه الجفوة :
لعل انحذار الدَّمع يُعَقِّبُ راحةً من الوجد أو يَشْفِي نَجىً البلب^(٢)
يا هذا ! الغريب من غَرَبَتْ شمسُ جماله ، واغترب عن حبيبه وعُدَّاله ، وأغَرَبَ في أقواله وأفعاله ، وغَرَّبَ في إدباره وإقباله ، واستغرب في طِمْره^(٣) وسرِّباله . يا هذا ! الغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة ، وذللَّ عُنوانه على الفتنة عُقْبَ الفتنة ، وبانت حقيقته فيه في الفينة حَدَّ الفينة . الغريب من إن حضر كان غائبا ، وإن غاب كان حاضرا . الغريب من إن رأيته لم تعرفه ، وإن لم تره لم تستعرفه . أما سمعت القائل حين قال :

بِمَ التعلُّلُ ؟ ! لا أهلٌ ولا زمنٌ ولا نديمٌ ، ولا كأسٌ ، ولا سَكَنٌ^(٤)
هذا وصفُ رجلٍ لحقته الغربة ، فتمنى أهلا يأنسُ بهم ، ووطنا يأوى إليه ، وندِيمًا يحلُّ عُقدَ سُرِّه معه ، وكأسًا ينتشى منها ، وسَكَنًا يتوادع عنده . فاما وصف الغريب

(١) الشريب : من يشارك في الشرب ؛ من يستقى أو يسقى معك : النديم ، ويقصد به نديم المحبوب .
(٢) هذا البيت لدى الرُّمَّة (راجع ديوانه ، نشر كارتني ص ٤٩٢ بيت رقم ٢ . كمبردج سنة ١٩١٩م / ١٣٣٧هـ) .

(٣) الطمَّر : الثوب البالى ؛ والسربال : القميص ، أو كل ما يلبس .

(٤) السكن (محرَّكة) : كل ما يستأنس به .

الذى اكتنفته الأحزان من كل جانب ، واشتملت عليه الأشجان من كل حاضر وغائب ، وتجكمت فيه الأيام من كل جانب وذاهب ، واستغرقتة الحسرات على كل فائت وآيب ، وشتته الزمان والمكان بين كل ثقة ورائب ، وفى الجملة ، أتت عليه أحكام المصائب والنوائب ، وحطته بأيدي العواتب عن المراتب ، فوصف يخفى دونه القلم ، ويفنى من ورائه القرطاس ، ويشل عن بَجْسِهِ^(١) اللفظ ، لأنه وصف الغريب الذى لا اسم له فيذكر ، ولا رسم له فيشهر ، ولا طى له فينشر ، ولا عُذْر له فيعذر ، ولا ذنب له فيغفر ، ولا عَيْبَ عنده فيُستَر . اهـ .

هذا غريب لم يتزحزح عن مَسِيقِطِ رَأْسِهِ ، ولم يتزعزع عن مَهَبِّ أنفاسه . وأغربُ الغرباء من صار غريباً فى وطنه ، وأبعدُ البُعْداء من كان بعيداً فى محل قُرْبِهِ ، لأن غاية المجهود أن يسْلُوَ عن الموجود ، وَيُغْمِضَ عن المشهود ، وَيُقْصِي عن المعهود ، ليجد من يغنيه عن هذا كله بَعْطاء ممدود ، وِرْفِدٍ^(٢) مرفود ، وركن موطود^(٣) ، وَحِدٍ غير محدود .

يا هذا ! الغريب من إذا ذَكَرَ الحقَّ هَجَرَ ، وإذا دعا إلى الحق زَجَرَ . الغريب من إذا أَسْنَدَ كُذِّبَ ، وإذا تَظَاهَرَ^(٤) عُدِّبَ . الغريب من إذا امتار لم يَمَرِ^(٥) ، وإذا قَعَدَ لم يُزَرَ . يا رحمتا للغريب^(٦) ! طال سفره من غير قدوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب ، واشتد ضرره من غير تقصير ، وعظم عناؤه من غير جدوى !

الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه^(٧) لم يدوروا حوله . الغريب من إذا تنفَّسَ أحرقه الأسى والأسف ، وإن كتم أَكْمَدَهُ الحُزْنَ واللَّهْفَ . الغريب من إذا أقبل لم يُوسَّعَ له ، وإذا أعرض لم يُسْتَلَّ عنه . الغريب من إذا سأل لم يُعْطَ ، وإن سكت لم يُبَدَأَ . الغريب من إذا عطس لم يُشَمَّتْ^(٨) ، وإن مَرِضَ لم يُتَفَقَّدَ . الغريب

(١) وشل يشل : قل وضعف وافتقر ؛ ومنه الوشل : الماء القليل . والبجس : تفجّر الماء ، ومنه : عين بجيس : غزيرة .

(٢) أى : عطاء مُعْطَى .

(٣) وطيد ، ثابت .

(٤) تنزه عن الأدناس . أو أصلها : تظاهر (بالطاء المعجمة) ؟

(٥) مار عياله يمير ميراً وأمارهم وامتارلهم : جلب لهم الطعام .

(٦) يا رحمتنا للغريب بالبلد النازح ماذا بنفسه صنعا !

(٧) من : رواه .

(٨) التشميت والتسميت : الدعاء للعاطس .

من إن زار أُغْلِقَ دونه الباب ، وإن استأذن لم يُرْفَع له الحجاب اهـ .
 الغريب مَنْ إذا نادى لم يُجِبْ ، وإن هادى لم يُحَبِّ . اللهم إنا قد أصبحنا غرباء
 بين خلقك ، فآنسنا في فنائك . اللهم وأمسينا مهجورين عندهم ، فصلنا
 بِحَبَائِك^(١) . اللهم إنهم عادونا من أجلك لأننا ذكرناك لهم فنفروا ، ودعوناهم إليك
 فاستكبروا ، وأوعدناهم بعذابك فتحيروا ، ووعدناهم بثوابك فتجبروا ، وتعرفنا بك
 إليهم فتنكروا ، وصنناك عنهم فتنمروا ؛ وقد كُنَّا^(٢) عن نذيرهم ، ويشنا من
 توقيهم .

اللَّهُمَّ إنا قد حاربناهم فيك ، وسالمناهم لك ، وحكمنا لهم عنهم لوجهك ،
 وصبرنا على أذاهم من أجلك ؛ فخذ لنا بحقنا منهم ، وإلا فاصرف قلوبنا عنهم ؛
 وأنسنا حديثهم ، واكفنا طيبهم وخبيثهم .

أيها السائل عن الغريب ومحتته ! إلى ههنا بلغ وصفى في هذه الورقات . فإن
 استزدت زدت ، وإن اكتفيت اكتفيت ، والله أسأل لك تسديداً في المبالغة ، ولى
 تأييداً في الجواب ، لتتلاقى على نعمته ، ناطقين بحكمته ، سابقين إلى كلمته .
 يا هذا ! الغريب فى الجملة من كله حُرقة ، وبعضه فُرقة ، وليله أَسف ، ونهاره
 لهف ، وغداؤه حزن ، وعشاؤه شجن ، وآراؤه^(٣) ظن ، وجميعه فتن ، ومفرقه
 مجن ، وسره علن ، وخوفه وطن .

الغريب من إذا دعا لم يُجب ، وإذا هاب لم يهب .
 الغريب مَنْ « إذا » استوحش استوحش أسوحش منه : استوحش لأنه يرى ثوب الأمانة
 ممزقاً ، واستوحش منه لأنه يجد لما بقلبه من الغليل مُحرقاً .
 الغريب مَنْ فجّعته مُحكمة ، ولوعته مُضمرمة .

الغريب من لُبسته خِرقة ؛ وأكلته سَلقة ، وهَجّعتة خَفقة .
 دع هذا كله ! الغريب من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعياً إليه . بل الغريب مَنْ
 تهالك فى ذكر الله متوكلاً عليه ، بل الغريب من توجه إلى الله قالياً لكل من سواه . بل
 الغريب من وهب نفسه لله متعرضاً لجدواه .

(١) الحباء (بكسر الحاء) العطية : مهر المرأة .

(٢) كُفّت عنه اكيع واكاع ، كُنِعاً وكيعوعة : إذا هبته وجُبنت عنه ، فهو : كائع ، وهم : كاعة .

(٣) ص : ورواه . وظنن جمع ظنه بالكسر : تُهمة . او : وراؤه ؟ جمع رؤية .

يا هذا ! أنت الغريب فى معنك .

أيها السائل عن الغريب ! اعمل واحدة ولا أقل منها ، وإذا أردت ذكّر الحق فأنس ما سواه ، وإذا أردت قُربَه فأبعد عن كل ما عداه ، وإذا أردت المكانة عنده فدع ما تهواه لما تراه ، وإذا أردت الدُّعاء إليه فَمَيِّزْ مالك مما عليك فى دعواه . طاعاتك كلها مدخولة ، فلذلك ما هى ليست مقبولة . هممك كلها فاسدة ، فلذلك ليست هى صاعدة . أعمالك كلها زائفة ، فلذلك ليست نافعة . أحوالك كلها مكروهة ، فلذلك ليست هى مرفوعة . ويلك ! إلى متى تنخدع ، وعندك أنك خادع ؟ وإلى متى تظن أنك رابح ، وأنت خاسر ؟ وإلى متى تدعى ، وأنت منفي ؟ وإلى متى تحتاج ، وأنت مكفى ؟ وإلى متى تبدى القلق ، وأنت غنى ؟ وإلى متى تهبط ، وأنت على ؟ ما أعجب أمر تُراه بعينك ، ألهاك عن أمر لا تراه بعقلك . الحمار أيضاً يرى بعينه ولا يرى بغيرها . أفأنت كالحمار فتعذر ؟ فإن لم تكن حماراً ، فلم تشبّه به ؟ وإن كنت ، فلم تدعى فضلاً عليه ؟ وإذا لم تكن حماراً بظاهر خَلْقك وصِبْغتك ، فلا تكنه أيضاً بباطن نيتك وجَلَّتِكَ . قد والله فسدت فساداً لا أرجوك معه لفلاح ، ولذلك ما أدري بأى لسان أحاورك ، وبأى خُلُقٍ أحاورك ، وفى أى حقيقةٍ أشاورك ، وبأى شىءٍ أداورك ؟ شريك كُفران ، ولفظك بُهتان ، وسرورك طغيان ، وحزنك عصيان ، وغناك مرح وبَطَر ، وفقرك ترح وضجر ، وشَبَعُكَ كُظَّةٌ^(١) وتُخْمَةٌ ، وجُوعك قنوط وتُهْمَةٌ ، وغزوك رياء وسُمْعَةٌ ، وحجك حيلة وخُدْعَةٌ ، وأحوالك كلها بَهْرَجٌ وزَيْفٌ ، وأنت لا تحاسب نفسك عليها : هَلُمَّ ، ولا : بَلِّم وكيف اهـ .

ما أسعد من كان فى صدره وديعة الله بالإيمان فحفظها حتى لا يسلبها منه أحد !
أتدري ما هذه الوديعة ؟

هى والله وديعة رفيعة هى التى سبقت لك منه وأنت بدد^(٢) فى التراب لم تجمعك بعدُ الصورة ، ولم يقع عليك اسم ، ولم تُعرَفْ لك عَيْنٌ ، ولم يدُلَّ عليك خبر ، ولا يحويك^(٣) مكان ، ولم يَصِفِكَ عِيَانٌ ، ولم يُحِطْ بِكَ بيان ، ولم يأت عليك أوان . أنت فى ملكوت غيب الله ثابت فى علم الله ، عُطِّل^(٤) من كل شىء إلا من مشيئة

(١) الكظة (بالكسر) : البطنة .

(٢) أى متفرق .

(٣) ص : يحوك .

(٤) عَطِّل (بضمعين) متجرد ، عار عن .

الله . تُرَشِّحْ لمعرفته ، وتُلحِظْ فى صفوته ، وتَوَهَّلْ لدعوته . فما أسعدك أيها العبد !
فهذه العناية القديمة من ربك الكريم الذى نظر لك قبل أن تنظر لنفسك ، وأيدك بما
لم تهتد إليه همتك ، حتى إذا نَشَرَ مَطْوِيَّكَ ورتَقَ مُفْتَقَّكَ ، وجمع مفترقك ، وقَوِّمَ
مُنَادَّكَ^(١) ، وسَوَّى مُعْوَجَّكَ وفتح عينك ، وطرح شعاعها على ملكوته التى جعلها قبالة
بصرك ، وعَرَّفَكَ نفسك ، ودعاك باسمك ، وشهرَكَ بحكمته فيك ، وأظهر قدرته
عليك ، وعَجَّبَكَ وعَجَّبَ غيرك منك ، ولاطفك ولطف لك ، وَبَيَّنَّ لك مكانتك إذا
أطعت ، ومهانتك إذا عصيت . وثَبَّتْ على شهواتك فتناولتها ، وعلى لذاتك
فأنهمكت فيها ، وعلى معاصيك (لمن هذا حديثه معك) فركبت سنامها ، ولم تفكر
فيما خلفها وأمامها . ولما قيل لك : اتَّقِ الله ! أخذتكَ العِزَّةُ بالإثم ، وبُيُوتَ فيما فيك
من نعم الله عليك تَهَرُّ^(٢) على ناصحك ، وتهزأ بالمشفق عليك ، وتُحاجُّه بالجهالة ،
وتقابله بالكبرياء والمَخِيلَة^(٣) . إنك عندى لمن المسرفين ، بل من المجرمين ، بل
من الظالمين ، بل من الفاسقين ، بل من المطرودين ، بل ممن قد تعرَّضَ لأن يسلبه
الله ما أعطاه ، ويجعل النار مأواه ، حتى يصير عبرة لمن وراه^(٤) اهـ .
يا هذا ! أَحَجَرُ أَنْتَ ؟ فما أقسى قلبك ! وما أذهبك فيما يغضب عليك ربك !
أبينك وبين نفسك تِرَّةً^(٥) أو كيد ؟ هل يفعل الإنسان العاقل بَعْدُوهُ ما تفعله أنت
بروحك ؟ لا ينفعك وعظ وإن كان شافياً ، ولا ينجُ فيك نُصْحُ^(٦) وإن كان كافياً !
اللهم تفضل علينا بعفوك إن لم نستحق رضاك .
ياذا الجلال والإكرام .

(١) المناد : المعوج .

(٢) هَرَّ الكلب : نبح وكثر عن انيابه .

(٣) الكبرياء .

(٤) أى وراه ، يتبع سيرته .

(٥) تِرَّة : ثار .

(٦) ص : نصحاً .

لماذا أحرقت كتبى

كان أبو حيان التوحيدي قد أحرق
فى أزمة غضبية كتبه « لقله جدواها ،
وضنا بها على من لا يعرف قدرها
بعد موته » على حد قوله ، فكتب إليه
القاضى أبوسهل على بن محمد
يلومه على فعلته فأجابه أبو حيان
برسالة عاطفية مسوِّغاً فيها إقدامه
على حرق كتبه .

اعتمدنا على الطبعة الصادرة فى
دمشق بتحقيق د. ابراهيم الكيلانى .

نص الرسالة بسم الله الرحمن الرحيم

(. . حَرَسَكَ اللهُ أَيُّهَا الشَّيْخُ مِنْ سُوءِ ظَنِّي بِمُودَتِكَ ، وَطُولِ جَفَائِكَ ، وَأَعَاذَنِي مِنْ مَكَافَأَتِكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَجَارَنَا جَمِيعاً مِمَّا يُسَوِّدُ وَجْهَ عَهْدٍ إِنْ رَعَيْنَاهُ كُنَّا مُسْتَأْنِسِينَ بِهِ ، وَإِنْ أَهْمَلْنَاهُ كُنَّا مُسْتَوْحِشِينَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَأَدَامَ اللهُ نِعْمَتَهُ عِنْدَكَ ، وَجَعَلَنِي عَلَى الْحَالَاتِ كُلِّهَا فِدَاكَ .

وَإِنِّي كِتَابُكَ غَيْرَ مُحْتَسِبٍ وَلَا مُتَوَقِّعٍ ، عَلَى ظَمَأٍ بَرَّحَ بِي إِلَيْهِ ، وَشَكَرْتُ اللهُ تَعَالَى عَلَى النِّعْمَةِ بِهِ عَلَيَّ ، وَسَأَلْتُهُ الْمَزِيدَ مِنْ أَمْثَالِهِ ، الَّذِي وَصَفْتُ فِيهِ بَعْدَ ذِكْرِ الشَّوْقِ إِلَيَّ ، وَالصَّبَابَةِ نَحْوِي مَا نَالَ قَلْبِكَ ، وَالتَّهَبُّ فِي صَدْرِكَ مِنَ الْخَبَرِ الَّذِي نَمَى إِلَيْكَ فِيمَا كَانَ مِنِّي مِنْ إِحْرَاقِ كِتَابِي النَّفِيسَةِ بِالنَّارِ وَغَسَلِهَا بِالمَاءِ ، فَعَجْتُ مِنْ انْزَوَاءِ وَجْهِ الْعُذْرِ عَنْكَ فِي ذَلِكَ ، كَأَنَّكَ لَمْ تَقْرَأْ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(١)) وَكَأَنَّكَ لَمْ تَأْتِ^(٢) لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ^(٣)) وَكَأَنَّكَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَا ثَبَاتَ لَشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ شَرِيفَ الْجَوْهَرِ ، كَرِيمَ الْعُنْصُرِ ، مَادَامَ مُقْلَباً بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، مَعْرُوضاً عَلَى أَحْدَاثِ الدَّهْرِ وَتَعَاوُدِ الْأَيَّامِ : ثُمَّ إِنِّي أَقُولُ ، إِنْ كَانَ - ايِّدَكَ اللهُ - قَدْ نَقَبَ خُفَّكَ مَا سَمِعْتَ ، فَقَدْ أَدْمَى أَظْلَمِي^(٤) مَا فَعَلْتُ ، فَلْيَهْنُ عَلَيْكَ ذَلِكَ ، فَمَا انْبَرَيْتُ لَهُ ، وَلَا آجَتَرَأْتُ عَلَيْهِ حَتَّى اسْتَخَرْتُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ أَيَّاماً وَلِيَالِي حَتَّى أَوْحَى إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ بِمَا بَعَثَ رَاقِدَ الْعَزْمِ ، وَأَجَدَّ فَاتِرَ النِّيَّةِ ، وَأَحْيَا مَيِّتَ الرَّأْيِ ، وَحَثَّ عَلَى تَنْفِيزِ مَا وَقَعَ فِي الرُّوعِ ، وَتَرْبُّعِ فِي الْخَاطِرِ ؛ وَأَنَا أَجُودُ عَلَيْكَ الْآنَ بِالْحُجَّةِ فِي ذَلِكَ إِنْ طَالَبْتَ ، أَوْ بِالْعُذْرِ إِنْ آسْتَوْضَحْتَ . لِيَتَّقَ بِي فِيمَا كَانَ مِنِّي ؛ وَتَعْرِفَ صُنْعَ اللهِ تَعَالَى فِي ثَنِّيهِ لِي .

إِنَّ الْعِلْمَ - حَاطُكَ اللهُ - يُرَادُّ لِلْعَمَلِ ، كَمَا أَنَّ الْعَمَلَ يُرَادُّ لِلنَّجَاةِ ؛ فَإِذَا كَانَ الْعَمَلُ قَاصِراً عَنِ الْعِلْمِ ، كَانَ الْعِلْمُ كَلًّا عَلَى الْعَالَمِ ، وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ عَادَ كَلًّا ، وَأُورِثَ ذُلًّا ، وَصَارَ فِي رَقَبَةٍ صَاحِبِهِ غُلًّا .

(١) القرآن الكريم : ٢٨ - ٨٨ سورة القصص .

(٢) تابه : تكثرت .

(٣) القرآن الكريم : ٥٥ - ٢٦ سورة الرحمن .

(٤) الاظلم : باطن الاصبغ .

ثم أعلم - علمك الله الخير - أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم ، سره وعلايته ، فأما ما كان سراً فلم أجده من يتحلى بحقيقته راغباً ، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً ، على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ولמד الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله ، ولا شك في حسن ما اختاره الله لى ، وناطه بناصيتى ، وربطه بأمرى ، وكهرت مع هذا وغيره أن تكون حجة على لا لى .

ومما شحذ العزم على ذلك ، ورفع الحجاب عنه انى فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً وتابغاً أديباً ، ورئيساً منياً فشق على أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضى إذا نظروا فيها ، ويشمتون بسهوى وغلطى إذا تصفحوها ، ويتراءون نقصى وعيى من أجلها .

فإن قلت : ولم تسمهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟ فجوابى لك أن عياني منهم فى الحياة هو الذى يحقق ظنى بهم بعد الممات ، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح من أحدهم ودا ؟ ولا ظهر لى من إنسان منهم حفاظ ، ولقد اضطرت بينهم بعد الشهرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء وإلى التكف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرخ فى قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلته بخاف عليك ، مع معرفتك وفطنتك وشدة تتبعك وتفردك ، وما كان يجب أن ترتاب فى صواب ما فعلته وأتيت بما قدمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويته ، إما هرباً من التطويل ، وإما خوفاً من القال والقليل ، وبعد فقد أصبحت هامة اليوم أو غد ، فانى فى عشر التسعين ، وهل لى بعد الكبرة والعجز أمل فى حياة لذيذة ؟ أو رجاء لحال جديدة ؟ ألسنت من زمرة من قال القائل فيهم : نروح ونغدو كل يوم ليلة وعمّا قليل لا نروح ولا نغدو

وكما قال الآخر :

تَفَوَّقَتْ دَرَاتِ الصُّبَا فِي ظِلَالِهِ إِلَى أَنْ أَتَانِي بِالْفِطَامِ مَشِيبُ
وَهَذَا الْبَيْتُ لِلْوَرْدِ الْجَعْدِيِّ وَتَمَامُهُ يَضِيقُ عَنْهُ هَذَا الْمَكَانُ ، وَاللَّهُ يَا سِيدِي لَوْ لَمْ

أَتَعْظُ إِلَّا بِمَنْ فَقَدْتُهُ مِنَ الْإِخْوَانِ وَالْأَخْدَانِ فِي هَذَا الصُّقْعِ مِنَ الْغُرَبَاءِ وَالْأَدْبَاءِ وَالْأَحْبَاءِ
لَكَفَى ، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَتْ الْعَيْنُ تَقْرَأُ بِهِمْ ، وَالنَّفْسُ ، تَسْتَنِيرُ بِقُرْبِهِمْ فَقَدْتُهُمْ بِالْعِرَاقِ
وَالْحِجَازِ وَالْجَبَلِ وَالرَّيِّ ، وَمَا وَآلَى هَذِهِ الْمَوَاضِعَ ، وَتَوَاتَرَ إِلَى نَعْيِهِمْ ، وَاسْتَدَّتْ
الْوَاعِيَةُ بِهِمْ فَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ عُصْرِهِمْ ؟ وَهَلْ لِي مَحِيدٌ عَنْ مُصِيرِهِمْ ؟ أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى
رَبَّ الْأَوَّلِينَ أَنْ يَجْعَلَ اعْتِرَافِي بِمَا أَعْرِفُهُ مَوْصُولًا بِنَزْوَعِي عَمَّا أَقْتَرُهُ ، إِنَّهُ قَرِيبٌ
مُجِيبٌ .

وَيَعْدُ ، فَلِي فِي احْرَاقِ هَذِهِ الْكُتُبِ أَسْوَةٌ بَائِثَةٌ يُقْتَدَى بِهِمْ ، وَيُؤْخَذُ بِهِدْيِهِمْ ،
وَيُعْشَى إِلَى نَارِهِمْ ، مِنْهُمْ : أَبُو عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ^(١) ، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ مَعَ زَهْدٍ
ظَاهِرٍ وَوَرَعٍ مَعْرُوفٍ ، دَفِنَ كُتُبَهُ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ فَلَمْ يَوْجَدْ لَهَا أَثَرٌ . وَهَذَا دَاوُدُ
الطَّائِي^(٢) وَكَانَ مِنْ خِيَارِ عِبَادِ اللَّهِ زُهْدًا وَفَقْهًا وَعِبَادَةً ، وَيُقَالُ لَهُ تَاجُ الْأُمَّةِ ، طَرَحَ كُتُبَهُ
فِي الْبَحْرِ وَقَالَ يُنَاجِيهَا : نِعَمَ الدَّلِيلُ كُنْتُ ، وَالْوَقُوفُ مَعَ الدَّلِيلِ بَعْدَ الْوُصُولِ عَنَاءٌ
وَذُهُولٌ ، وَبِلَاءٌ وَخُمُولٌ .

وَهَذَا يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ^(٣) : حَمَلَ كُتُبَهُ إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ وَطَرَحَهَا فِيهِ وَسَدَّ بَابَهُ ،
فَلَمَّا عُوتِبَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ : دَلَّنَا الْعِلْمُ فِي الْأَوَّلِ ثُمَّ كَادَ يُضِلُّنَا فِي الثَّانِي ، فَهَجَرْنَاهُ
لَوَجْهِهِ مِنْ وَصَلْنَاهُ ، وَكَرِهْنَاهُ مِنْ أَجْلِ مَا أَرَدْنَاهُ .

وَهَذَا أَبُو سَلِيمَانَ الدَّارَانِي^(٤) : جَمَعَ كُتُبَهُ فِي تَنْوِيرٍ وَسَجَرَهَا بِالنَّارِ ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ
مَا أَحْرَقْتُكَ حَتَّى كِدْتُ أَحْتَرِقُ بِكَ ! وَهَذَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ مَرَّقَ أَلْفَ جُزْءٍ وَطَيَّرَهَا فِي

(١) أَبُو عَمْرِو زَيْدَانُ بْنُ عَمَّارٍ التَّمِيمِيُّ الْمَازِنِيُّ الْبَصْرِيُّ أَحَدُ أَئِمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَاحِدِ الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ قَالَ ابْنُ خُلَّكَانَ :
« كَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَالشَّعْرِ ، وَهُوَ فِي الطَّبَقَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَالَ
الزَّبِيدِيُّ « كَانَ أَوْسَعَ عِلْمًا بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَلِغَاتِهَا وَغَرِيبِهَا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ ، وَكَانَ مِنْ جِلَّةِ الْقُرَاءِ
وَالْمَوْثُوقِ بِهِمْ » وَفِيهِ قَالَ الْفَرَزْدَقُ مَادِحًا :

مَازَلْتُ أَغْلِقُ أَبْوَابَهَا وَافْتَحْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ أَبَا عَمْرِو بْنِ عَمَّارٍ
وَقَالَ صَاحِبُ الْوَفَايَاتِ : « قَالَ أَبُو عَمْرِو : كَانَ أَبُو عَمْرِو أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَأَيَّامِ الْعَرَبِ ، وَكَانَ
دَفَاتِرُهُ مَلَأَ بَيْتَ إِلَى السَّقْفِ ثُمَّ تَنَسَّكَ فَاحْرَقَهَا ، تَوَفَّى أَبُو عَمْرِو سَنَةَ ١٥٤ هـ أَوْ ٥٧ هـ أَوْ ٥٩ هـ .

(٢) أَبُو سَلِيمَانَ دَاوُدُ بْنُ نَصِيرٍ الطَّائِي الْكُوفِيُّ صُوفِيٌّ « شَغَلَ نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ وَدَرَسَ الْفِقْهَ ثُمَّ اخْتَارَ الْعَزَلَةَ
وَالْإِنْفِرَادَ وَالْخُلُوتَ وَالْعِبَادَةَ وَاجْتَهَدَ فِيهَا إِلَى آخِرِ عَمْرِهِ « قَدِمَ فِي أَيَّامِ الْمُهَدِيِّ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْكُوفَةِ وَبِهَا كَانَتْ
وَفَاتِهِ سَنَةَ ١٦٠ هـ وَكَانَ مُحَارِبُ بْنُ دَثَّارٍ يَقُولُ : « لَوْ كَانَ دَاوُدُ فِي الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ لَقَصَّ اللَّهُ تَعَالَى شَيْئًا مِنْ
خَبْرِهِ » .

(٣) يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ الشَّيْبَانِيُّ أَحَدُ الزَّهَّادِ الْوَاعِظِينَ قَالَ الْبَخَّارِيُّ : « كَانَ قَدْ دَفِنَ كُتُبَهُ ، فَكَانَ لَا يَجِيءُ بِحَدِيثِهِ
كَمَا يَنْبَغِي .

(٤) أَبُو سَلِيمَانَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَطِيَّةِ الْعَنْسِيُّ الدَّارَانِيُّ الزَّاهِدُ الْمَشْهُورُ مِنْ أَهْلِ دَارِيَا أَحَدِي قُرَى
دِمَشْقَ ، كَانَ مَتَصَوِّفًا « مِنْ جِلَّةِ السَّادَاتِ وَأَرْبَابِ الْجِدِّ فِي الْمَجَاهِدَاتِ » ، تَوَفَّى سَنَةَ ٢١٥ هـ .

الريح وقال :

لَيْتَ يَدِي قُطِعَتْ مِنْ هَاهُنَا ، بَلْ مِنْ هَاهُنَا وَلَمْ أَكْتُبْ حَرْفًا !

وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي^(١) : سَيِّدُ العلماء قال لولده محمد : قد تركتُ لك هذه الكتب تكسبُ بها خيرَ الأجل ، فإذا رأيتها تخونُك فاجعلها طُعمَةً للنار ، وماذا أقولُ وسامِعي يُصَدِّقُ أَنَّ زَمَانًا أُحَوِّجُ مِثْلِي إِلَى مَا بَلَغَكَ ، لَزَمَانٌ تَدْمَعُ لَهُ الْعَيْنُ حَزَنًا وَأَسَى ، وَيَتَقَطَّعُ عَلَيْهِ الْقَلْبُ غِيظًا وَجَوَى ، وَضَنَى وَشَجَى ، وما يصنع بما كانَ وحدثَ وبانَ ، إِنْ احْتِجَّتْ إِلَى الْعِلْمِ فِي خَاصَّةِ نَفْسِي فَقَلِيلٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى شَافٍ كَافٍ ، وَإِنْ احْتِجَّتْ إِلَيْهِ لِلنَّاسِ فِي الصِّدْرِ مِنْهُ مَا يَمَلَأُ الْقِرطاسَ بَعْدَ الْقِرطاسِ ؛ إِلَى أَنْ تَفْنَى الْأَنْفَاسُ بَعْدَ الْأَنْفَاسِ (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)^(٢) فَلِمَ تُغْنِي عَيْنِي - أَيْدِكَ اللَّهُ - بَعْدَ هَذَا بِالْجَبْرِ وَالْوَرَقِ وَالْجِلْدِ وَالْقِرَاءَةِ وَالْمُقَابَلَةِ وَالتَّصْحِيحِ ، وَبِالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ ، وَهَلْ أَدْرَكَ السَّلَفُ الصَّالِحُ فِي الدِّينِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى إِلَّا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَإِخْلَاصِ الْمُعْتَقَدِ ، وَالزُّهْدِ الْغَالِبِ فِي كُلِّ مَا رَاقَ مِنَ الدُّنْيَا وَخَدَعَ بِالزُّبْرِجِ^(٣) وَهُوَ بِصَاحِبِهِ إِلَى الْهَبُوطِ ؟ وَهَلْ وَصَلَ الْحُكَمَاءُ الْقَدَمَاءُ إِلَى السَّعَادَةِ الْعَظْمَى إِلَّا بِالْاِقْتِصَادِ فِي السَّعْيِ ، وَإِلَّا بِالرِّضَا بِالْمَيْسُورِ ، وَإِلَّا بِبَذْلِ مَا فَضَّلَ عَنْ الْحَاجَةِ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ؟ فَأَيْنَ يَذْهَبُ بِنَا وَعَلَى أَى بَابٍ نَحْطُ رِحَالَنَا ؟ وَهَلْ جَامِعُ الْكُتُبِ إِلَّا كَجَامِعِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ ؟ وَهَلِ الْمَنْهُومُ بِهَا إِلَّا كَالْحَرِيصِ الْجَشِعِ عَلَيْهِمَا ؟ وَهَلِ الْمُغْرَمُ بِحَبِّهَا إِلَّا كَمُكَائِرِهِمَا ؟ هَيْهَاتَ الرَّحِيلُ وَاللَّهُ قَرِيبٌ ، وَالثَّوَاءُ قَلِيلٌ ، وَالْمُضْجَعُ مُقْضٍ^(٤) وَالْمَقَامُ مُمِضٌ^(٥) وَالطَّرِيقُ مَخُوفٌ ، وَالْمَعِينُ ضَعِيفٌ ، وَالْاِغْتِرَارُ غَالِبٌ ، وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ هَذَا كُلِّهِ طَالِبٌ ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى رَحْمَةً يُظَلِّلُنَا جَنَاحَهَا ، وَيُسَهِّلَ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ الْعَاجِلَةِ غَدُودَهَا وَرَوَاحَهَا ؛

(١) أبو سعيد الحسن بن عبدالله المزرباني السيرافي النحوي القاضي الفقيه كان يدرس في بغداد القرآن وعلومه وكان عفيفا متقشفا وهو استاذ ابي حيان التوحيدى الذى قال عنه : « شيخنا أبو سعيد السيرافي هو اليوم عالم العالم ، وشيخ الدنيا ، ومقنع اهل الارض ، توفي السيرافي سنة ٣٦٨ هـ .

(٢) سورة يوسف ١٢ - ٣٨ .

(٣) زُبْرِجُ الشَّيْءُ : حَسَنُهُ وَزِينَتُهُ . الزُّبْرِجُ : الزَّيْنَةُ مِنْ وَشْيٍ أَوْ نَحْوِهِ .

(٤) قَضٌ وَاقْضُ الْمَكَانُ أَوْ الطَّعَامُ : صَارَ فِيهِ الْقَضِضُ أَيْ صَغَارُ الْحَصَى ، وَاقْضُ الْمَضْجَعُ : خَشَنٌ وَيُقَالُ : اقْضُ اللَّهَ مَضْجَعَهُ : خَشَنَهُ .

(٥) امْضُهُ : اَمْهَ وَمَمْضٌ : مَوْلَمٌ .

فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته بعد أن حصل تحت قدره فهذا هذا ، ثم إنني - أيدك الله - ما أردت أن أجيبك عن كتابك لطول جفائك ، وشدة التوائك عمن لم يزل على رأيك مجتهداً ، وفي محبتك على قربك ونأيك ، مع ما أجده من إنكسار النشاط ، وانطواء الانبساط ، لتعاود العلل على ، وتخاذل الأعضاء مني فقد كل البصر ، وانعقد اللسان ، وجمد خاطر ، وذهب البيان ، وملك الوسواس ، وغلب اليأس من جميع الناس ، ولكنني حرست منك ما أضعته مني ، ووفيت لك بما لم تف به لي ، ويعز علي أن يكون لي الفضل عليك ، أو أحرز المزية دونك ، وما حداني على مكاتبتك إلا ما أتمثلته من تشوقك إلي ، وتحرقك علي ، وأن الحديث الذي بلغك قد بدد فكرك وأعظم تعجبك ، وحشد عليك جزعك والأول يقول :

وقد يَجْزَعُ المرءُ الجليلُ وَيَبْتَلِي
عزيمَةً رأى المرءُ نائبةً الدهرِ
تعاوده الأيامُ فيما ينوءُ به

فَيَقْوَى على أمرٍ ويضعفُ عن أمرٍ
على أنني لو علمت في أي حال غلب علي ما فعلته ، وعند أي مرض ؛ وعلى أية عسرة وفاقية لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته ، واحتججت لي بأكثر مما نشرته وطويته ، وإذا أنعمت النظر تيقنت أن الله جل وعز في خلقه أحكاماً لا يعار^(١) عليها ولا يغالب فيها ، لأنه لا يبلغ كنهها ، ولا ينال غيبتها ، ولا يعرف قابها ، ولا يقرع بابها ، وهو تعالى أملك لنواصينا ، واطلع على أدانينا وأقاصينا ، له الخلق والأمر ، وبيده الكسر والجبر ، وعلينا الصمت والصبر ، إلى أن يوارينا اللحد والقبر والسلام .
إن سرّك - جعلني الله فداك - أن تواصلني بخبرك ، وتعرفني مقرّ خطابي هذا من نفسك فافعل ، فاني لا أدع جوابك إلي أن يقضى الله تعالى تلاقياً يسر النفس ؛ ويذكر حديثنا بالأمس ؛ أو بفراق نصير به إلى الرّمس ؛ ونفقد معه رؤية هذه الشمس ، والسلام عليك خاصاً بحق الصفاء الذي بيني وبينك ؛ وعلى جميع إخوانك عاماً بحق الوفاء الذي يجب عليّ وعليك والسلام .

(١) عازّه مُعَاوَنَة : عارضه في العزة .

□ محتويات الكتاب □

- مقدمة (ص ٣)
- البصائر والذخائر (ص ١٧)
- الصداقة والصديق (ص ٢٩)
- مثالب الوزيرين (ص ٤٧)
- الأمتاع والمؤانسة (ص ٦٧)
- الهوامل والشوامل (ص ١٠٥)
- المقابسات (ص ١٥٣)
- الاشارات الالهية (ص ١٧٩)
- لماذا احرق كتيبي ؟ (ص ١٩٣)

رقم الايداع

٩٥/٩٢٣٠

الترقيم الدولى

I - S.B.N.

977 - 08 - 0259

خلاصة التوحيدى

على بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدى ، إمام النثر العربى ، المجدد ، المؤصل ، ناصع الموهبة . عميق المعاناة ، وأعظم من عبر عن غربة الإنسان . حياة عاصفة ، وظروف شاقة يتحداها بموهبته الفذة ، تناقض صعب بين الأديب المدرك لقيمة ذاته ، وسبل تأمين العيش التى يجب أن يسلكها ، تناقض أوصله إلى حرق كتبه فى مشهد رهيب ، ما وصلنا منها قليل . وما تم تحقيقه وطبعه أصبح فى ندرة المخطوطات . ومع احتفال مصر بالذكرى الألفية للتوحيدى يقدم المجلس الأعلى للثقافة هذه المختارات من أعماله . أعدها الأديب الروائى جمال الغيطانى بعد معايشة نثر التوحيدى سنوات طويلة . لا تعرف المختارات بآثار التوحيدى فقط ولكنها تقدم رؤية فريدة تضيف أبعادا جديدة على نثر التوحيدى وابداعه ، تجعله ميسرا . متاحا للكافة ، هذا النثر الرائع ، الجميل ، المكتوب منذ ألف عام ، والذي يبدو كأنه كتب اليوم ، وهكذا سيقرأ بعد مئات الأعوام . تلك نصوص تتجاوز الأزمنة والأمكنة وتستقر فى أعماق نقاط الوجدان الإنسانى .

